

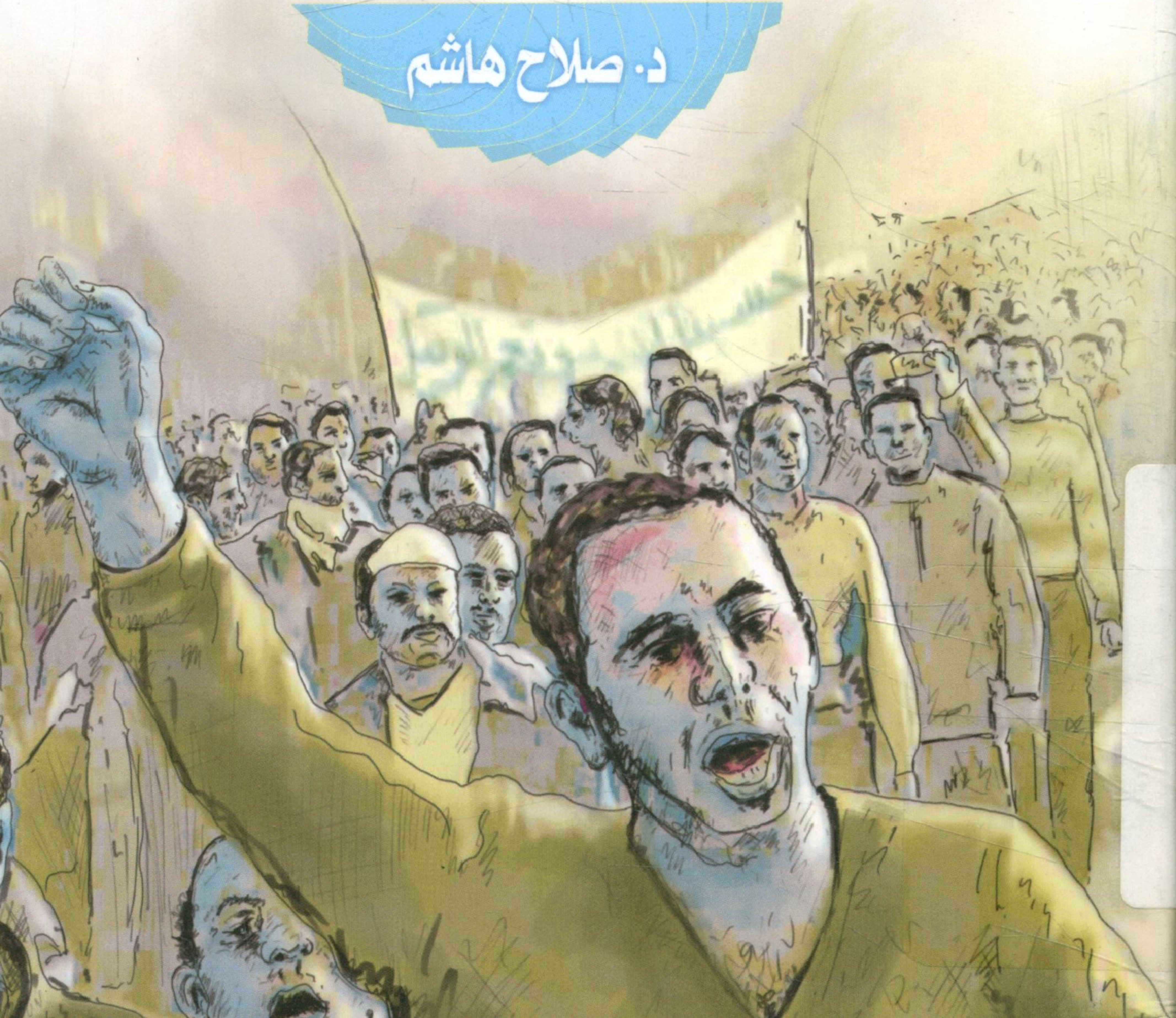
رفع محمود العثماني



ثورات الحياة

قراءة سوسيولوجية للثورات في تاريخ مصر

د. صلاح هاشم



ثورات الجوع

قراءة سوسيولوجية لثورات الجوع

في تاريخ مصر

د. صلاح هاشم

وزارة الثقافة



وزارة الثقافة



الهيئة العامة لقصور الثقافة

رئيس مجلس الإدارة
د. سيد خطاب
أمين عام النشر
محمد أبوالمجد
مدير عام النشر
ابتهاال العسلى
الإشراف الفنى
د. خالد سرور

المتابعة والتنفيذ
سحر عاصم

• حقوق النشر والطباعة محفوظة للهيئة العامة لقصور الثقافة.
• يحظر إعادة النشر أو النسخ أو الاقتباس بأية صورة إلا بإذن
كتابى من الهيئة العامة لقصور الثقافة، أو بالإشارة إلى المصدر.

• ثورات الجياع
قراءة سوسولوجية للثورات
فى تاريخ مصر
• د. صلاح هاشم
• تصميم الغلاف، أحمد فؤاد صالح
• المراجعة اللغوية، أحمد النناوى
• هذه الطبعة 2015م
الهيئة العامة لقصور الثقافة
• رقم الإيداع، ٢٩٤٧ / ٢٠١٥
• الترقيم الدولى، 7-0104-92-977-978
• الطباعة والتنفيذ،
شركة الأمل للطباعة والنشر
ت، 23904096

ثورات الجوع

قراءة سوسيولوجية للثورات في تاريخ مصر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿واذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقتلناها وفومها وعدسها وبصلها قال أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير اهبطوا مصراً فإن لكم ما سألتم﴾.

صدق الله العظيم

البقرة = آية (٦١)

إهداء

إلى ابني محمد ..

جئت بعد ثلاث سنوات من الثورة أملأ في إيجاد التغيير
المنشود .. فأتمنى ألا تكون قد خُدعت كما خُدعت .. فأليك أهدى
هذا الكتاب .. لعله ينفعك .. لينتفع بك الوطن الذي أنجبك من
أجله .. ومن أجله كتبت

صلاح هاشم

القاهرة - يوليو ٢٠١٤م

توطئة:

على مدار تاريخ مصر الحديث وبعض حقب من التاريخ القديم كان الفقر ولا يزال بيت القصيد في كل المناقشات السياسية والصراعات المحتمة بين الدولة والشعب. وكان المجتمع دائماً والقوى السياسية الشعبية فيه تُهمل شخصية الحاكم وطريقة إدارته للدولة ومواردها العبء الأكبر في كل هذه الشئون وتلك الشجون. وكلما اشتد الفقر وطأة كان حلم الخلاص من الحاكم هو الهدف .. وكأن الخلاص من مصيدة الفقر كان مرهوناً بالخلاص من الحاكم، فيما عدا الفترات التي انشغلت فيها القيادة السياسية بالحروب ومجابهة الأعداء، حيث انشغل الشعب عن إشباع احتياجاته الإنسانية بالعمل على استرداد الكرامة وحرير الأرض، وتأصل ذلك التفاني في حب الوطن في شدة رغبة الإنسان المصري عبر تاريخه الطويل في صراعه مع حكامه المتجبرين. فالفقر حميم لعامل اللامساواة وغياب العدل والعدالة الاجتماعية والجنائية، فهو رذيلة اجتماعية تخشاه كل المجتمعات المعاصرة وتحسب له بالتخطيط الجيد للتخلص منه أو التخفيف من قسوته على الفرد والمجتمع. ففي عهد مبارك لم ير الشعب مبرراً

للسنوات العجاف التي لم تنقضى، ولم يجد تفسيراً لها في كل مجالات الحياة؛ سوى بفشل يلاحق فشلاً في الإدارة السياسية للبلاد. حيث جاء تقرير الأمم المتحدة الصادر في ٢٠١٠ ليرسم صورة سيئة للأوضاع الاجتماعية في مصر إبان ثورة يناير؛ مؤكداً أن أكثر من ١٠ ملايين مصري لا يحصلون على احتياجاتهم من الغذاء وأن ٢٤,٨٪ من المصريين يعيشون بدخل يومي لا يتجاوز ٢ دولار وطبعاً بالقيمة الشرائية للدولار في أمريكا وليس بالقيمة المصرفية له في مصر.

كما بين التقرير أنه في أواخر عهد مبارك توقف ٢٣,٣٪ من الأطفال عن إتمام دراستهم، وأخطر ما جاء في التقرير أن نسبة الفقر ارتفعت بمعدل ٧٪ في نهاية ٢٠١٠. ولكي تزداد الصورة قتامة كشف التقرير عن تفشى وباء الالتهاب الكبدي سى إلى حد بلغ في بعض المحافظات ٥٧٪، وهذه الصورة بالغة السواد لم تفلح معها ما أعلنته حكومات ما بعد الثورة بأن هناك إجراءات تشترع الحكومة في اتخاذها للإصلاح الاجتماعي وتنمية الريف المصري الذي بلغ عدد القرى الأكثر فقراً فيه ٣١٥٠ قرية بل ارتفع معدل الفقر في المجتمع المصري بعد الثورة ليصل إلى ١٧٪.. ولعل هذه الأوضاع المتردية كانت هي العوامل الحافزة لقيام ثورة يناير وتأخر فترة الاستقرار في مرحلة ما بعد الثورة.. فرغم أن الثورة كانت هي الأمل المعقود للخلاص من مصيدة الفقر العنكبوتية، التي تشعبت أسبابها في كافة أنظمة الحكم الفاسدة" فإنها كانت صادمة لكثير من عامة الشعب الذين تعطلت مصالحهم وتوقفت أعمالهم وانحصرت دخولهم، في إطار

من حالات الاحتكار والاستغلال التي يمارسها التجار بتحكمهم في أسعار السلع الأساسية.

فبعد الثورة تزايدت معدلات الفقر في مصر بصورة ملحوظة، سواء إذا ما قيس بـ عدد الأسر التي تعيش عند مستوى الفقر أو أقل منه؛ حيث أوضحت مسح الاستهلاك في أوائل ٢٠١٢م ارتفاع معدل الفقر الكلي، مع عدم قدرة ٤٤٪ من السكان على الإنفاق بشكل كافٍ للحصول على الحد الأدنى من الغذاء المناسب. كما أدى إغلاق وتوقف كثير من المصانع والأعمال بسبب كثرة التذمرات العمالية وإحراق كثير من المصانع بسبب ارتفاع معدلات الانفلات الأمني إلى انخفاض متوسط الدخل ومن ثم انخفاض الإنفاق العائلي على الطعام.

ولم يكن التفكير أو الشروع في إعداد هذا الكتاب وليد تلك اللحظات التاريخية الراهنة، التي أتت بعد موجات الغلاء التي صاحبت تولى المشير عبد الفتاح السيسي لرئاسة البلاد، ولا حتى بعد حالات التدهور الاقتصادي والانفلات الأمني التي صاحبت ثورة يناير، وإنما جاء التفكير في هذا الكتاب تحديداً في أعقاب الاحتجاجات العمالية العديدة التي شهدتها البلاد إبان نهاية حكم مبارك، والتي تحددت مطالب أصحابها في رفع رواتبهم وتحديث مشكلاتهم في انخفاض رواتبهم وعدم كفايتها لإشباع احتياجاتهم الأساسية من غذاء وشراب وكساء وربما من مسكن مناسب. فعندما يصبح إشباع الاحتياجات الأساسية هدفاً عاماً لقطاع كبير من الشعب أو ربما طموح، أعلم أن هذا الشعب قادم لا محالة على كارثة تاريخية عنوانها "الجماعة".

وتلك كانت نقطة انطلاق الفكرة. إذا قفز السؤال مسرعاً إلى
الذهن : هل يمكن أن تتعرض مصر لمجاعة؟! وقد ذكرها القرآن على
لسان موسى عليه السلام بأنها موطن الغذاء للعالم. إذ يقول
تعالى ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعْ لَنَا رَبَّكَ
يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسُهَا وَبَصَلَهَا
قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ
مِمَّا سَأَلْتُمْ﴾. (البقرة - آية ٦١) وهنا كان لزاماً علينا أن نبحث
فى الأدبيات التاريخية لنستبين هل شهدت مصر ثورات للجوع ؟
وجاءت الإجابة صادمة.. نعم شهدت مصر التى قيل عنها إنها " هَبَّةُ
النيل " وأنها " سلة غلال الشرق " أول ثورة للجوع فى تاريخ البشرية،
وشهدت قرابة ١٤٧ واقعة ثورية بين ثورة مكتملة أو إضراب أو احتجاج
عمالى أو هَبَّة شعبية للمطالبة بالغذاء.

وعندما شرعت فى البحث وضعت خمسة محاور رئيسة فى
صورة تساؤلات أحاول الإجابة عنها. عبر القراءات التاريخية المرتبطة
بهذا الشأن، والتى اتسمت بصفة عامة بأنها شحيحة. وتحدثت تلك
المحاور الخمسة فى: لماذا قامت الثورة ومن الذى قام بها وما الأساليب
والوسائل التى اتبعت فى الحشد والتعبئة ضد النظام وكيف تعامل
النظام مع الثوار والأزمة والنتائج التى انتهت إليها الثورة حتى مرحلة
الاستقرار. وتطرقنا بين الأسطر إلى الفترة التى قضتها الثورة حتى
هدأت، والمغارم التى حملها الوطن وأكثر الفئات تضرراً من الثورة.
وسرت بتلك الآلية بدءاً من العصر الفرعونى مروراً بالعصر البطلمى

والرومانى ثم العصر الاسلامى ولنتهيت بثورة ٢٥ ينايرالتى أراها بأنها هجين من الصراع بين الجوع والكرامة.

وحاولت أن أطرح فى بداية الكتاب توطئة أكشف من خلالها دلالة مصطلحى الثورة والجوع وما علق بهما من ظواهر اجتماعية.. ارتقت لتصبح مفاهيماً فرعية مصاحبة لمفهوم أكبر اسمه " ثورة الجياع". ونظراً للأحداث الأخيرة التى مرت بها مصر وخاصة بعد القرارات الرئاسية المتعلقة بالغلاء وارتفاع اسعار السلع الأساسية وتخفيض نسبة الدعم على الطاقة، والنقاشات الدائرة للإجابة على سؤال : هل نحن قادمون على ثورة جياع..؟ وبين مؤيد لقدمها ومعارض.. وضعت فصلاً ختامياً للإجابة على هذا التساؤل.. لنربط الماضى بالحاضر والمستقبل . وعنوان الفصل بـ " هل نحن قادمون على مجاعة..؟" ففى الحقيقة .. المجاعة هى التى تهمنى أكثر من الثورة، فالثورة فى الغالب هى تعبير عن احتقان شعبى وطنائى حكومى. فإذا حدثت المجاعة فلن تستجيب لها الحكومة سريعاً، وربما نحتاج إلى وقت أطول كى تعترف بها. وهذا هو ما يدفع الجياع إلى الثورة، والتى ربما تتحول بالضرورة إلى فوضى، ولم انتهِ من الكتاب قبل أن أقدم لقارئى تصوراتى الشخصية لتحاشى المجاعة فى الوطن أو تعرض النظام لثورة جياع.

وما يهمنى أن أطرحه عليكم من نتائج فى صدارة هذا الكتاب هى: أولاً- أن ثمة علاقة وشيجة بين اطالة فترة الحكم وتعرض الشعوب للمجاعة. فكلما طالت فترة حكم الرئيس كلما تمكنت

حاشيته فى فرض سياجا حديديا بينه وبين شعبه، حتى يتمكنوا من اتمام أعمال النهب والسرقه لموارد البلاد التى هى بالأساس قوت للشعب وملك له.

ثانيا- أن الحاكم الضعيف مصدر قوي للفتنة، فكما ضعفت شخصية الحاكم وقلت قدراته، كلما كان ذلك مدعاة لقوة الحاشية وسبيلا لانتشار الفساد الذى يفضى للمجاعة ويقود إلى الفوضى.

ثالثا- أن ثورات الجياع دائما لم يبدأها جياع، وإنما الذى يبدأها هم المثقفون وأبناء الطبقة الوسطى، الذين هم يمثلون بوعيتهم الوطنى الفتيل الثورى لثورة الجياع. والذين إذا خرجون منددين بالجوع ومطالبين بالخبز، خرجت خلفهم كل البطون الجائعة، التى كانت تبحث لها عن قيادة أو نافذة مضمونة للثورة على النظام .

ورابعا- أن الفتنة والفوضى والانفلات الأمنى كلها ظواهر مصاحبة ولازمة فى ثورات الجياع. وذلك عكس الثورات السياسية ، والتى غالبا ما تنتهى بسرعة ولا يصاحبها انفلاتات شعبية.

خامسا- أن المدة التى تستغرقها الثورة حتى تهدأ، تحكمها قوة الحاكم وجدية المعارضة . والأهم من الاثنين وجود جيش قوى قادر على ضبط الانفلات والسيطرة السريعة على الموقف.

سادسا- أنه ليس للدين حسابات تذكر عندما تجوع الشعوب. فليس بالدين وحده تخنع الشعوب.. وأن العلاقة الاقتصادية بين الحاكم والشعب أهم واسبق بكثير عن العلاقة الدينية. فعندما تفرغ البطون لا تملأها كتب السماء ..

واخراً أن النيل كان وسوف يظل مصدر سعادة المصريين ومصدر
شقاوتهم أيضاً. فمتى فاض النيل عمت السعادة والرخاء على البلاد.
ومتى هبط خل المجاعة. وأنه كان بالفعل رمانة الميزان بين تقدم عصر
من العصور وأقول آخر.

ولا يفوتنى فى تلك التوطئة أن أقدم الشكر لزوجتى واطفالى
الذين جشموا مشقة انشغالى عنهم بالبحث والكتابة قرابة
أربعة أعوام كاملة قضيتها فى الاطلاع والبحث والكتابة . والشكر
موصول لصديقى الدكتور مجدى رشاد أستاذ التاريخ المساعد بكلية
الآداب جامعة الفيوم الذى أعاننى بكل اخلاص فى مراجعة الأحداث
التاريخية التى ذكرت فى هذا الكتاب وتسلسلها الزمنى. وكذلك
الأستاذ محمد عبد الحليم مُعد البرامج التاريخية بالتلفزيون المصرى
فلهما منى كل الشكر والتقدير .. وكل الشكر لأصدقائى الأعزاء
الشاعر الأستاذ السعيد عبد الكريم والأستاذ جودة قرنى والأستاذ
رضوان العزبى الذين تكبدوا مشقة المراجعة اللغوية للكتاب .. وفى
النهاية أتمنى أن يكون ذلك الجهد الذى أهبه لله والوطن عملاً نافعا
ينتفع به كل قارئ ليصبح خطوة مهمة فى .. حفظ الله مصرنا
وحباها بالأمن والأمان ..

المؤلف

فصل تمهيدي

الجوع والثورة

"أحدثكم هنا عن الجوع الذي مرّ بنا ..
وكم أخاف أن تحدثوا أبناءكم عن النعمة
التي مّرت بكم .."

ماثورة

تمهيد:

"مصر هبة النيل" .. مقولة هيروdot الشهيرة عن مصر. تلك
المقولة التي صححها التاريخ وأعادها إلى مسارها الحقيقي الذي
أتده الواقع، وناصره العلماء والباحثون المنصفون ثم أضاف إليه
المصريون ذخائر معارفهم وكنوز خبراتهم فأعادوا صياغتها لتصبح:
" النيل هبة الله لمصر ومصر هبة الله للمصريين والمصريون هبة
الله للعالم كله "، عريه وعجمه، شرقه وغربه، قديمه وحديثه،
لأن الله قد وهب هذه البلاد موقعاً فريداً يَنُدَّر أن ترى عينُ مَنْصَفةٍ
مثله، وموارد عديدة وفريدة وفوق كل هذا وهبها إنساناً فريداً في
فكره وتديّنه وثقافته، فنتج عن امتزاج هذه العناصر الفريدة النادرة،
حضارة زاهرة هي خلاصة حضارات العالم بداية بزمان الفراعنة ومروراً
بعصور الإغريق والرومان ثم انتهاءً بعصر الدولة الإسلامية. كانت

حضارة ترعى الجسد وتراعى الروح، ولم تكن حضارة مادية قط، و لا روحانية صرفة، ينفصل فيها الإنسان عن الواقع ولا يتمتع بمباهج الحياة و جوانبها الجميلة، لكن الحضارة المصرية ظلت على مر التاريخ حاملة للوجهين: المادي والروحي، حضارة مُلبية لحوائج البدن و حياة الروح في مزج مُتناغمٍ و مُتجانس يندّر حقيقته كما يصعب الحفاظ عليه و بقاءه مستمراً، فالحضارات غالباً ما تحيد في بعض مراحلها مُتأرجحةً بين الإفراط والتفريط، فتميل لجانبٍ على حساب الجوانب الأخرى، وتلك هي أولى علامات الأفول وبدايات الزوال.

إن التاريخ وحده لا يصنع حضارة، والجغرافيا كذلك لا تكفي لازدهارها، فكما أن التاريخ يكتبه الأقوياء، فإن الحضارات يصنعها العظماء، الذين يستلهمون دروس الماضي لينيروا الحاضر ويبنّون المستقبل، وهكذا كان المصريون دوماً في أغلب مراحل حضارتهم العريقة، ولقد قال تعالى في كتابه الكريم واصفاً مصر وأهلها :
﴿كَمْ تَرَكَوْا مِنْ جَنَاطٍ وَعُعْيُونٍ، وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ، وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَاقِهِينَ﴾ (الدخان ٢٨: ٢٥).

أي أن قوم فرعون خرجوا من مصر ذات البساتين والأنهر والكنوز والمقام الكريم ثم غرقوا في البحر وهو ما يدل على ما كانت تتمتع به من خيرات .

من هذا الوصف الذي ذكره العليم الخبير لأرض مصر يمكننا أن نستنتج أن أي تقدم أو ازدهار لمصر لن يتحقق إلا بحسن استغلال مواردها على نحو يهتم بتوسيع رقعة الزراعة وتطوير أساليبها

و تحقيق الاستغلال الأمثل للمتاح من مواردها المائية. هذا إلى جانب
حتمية الأخذ بأساليب التطوير وأسباب التقدم الصناعي لما في أرض
مصر من ثروات طبيعية تتيح لها - إذا ما أحسن استغلالها - أن
تكون في مصاف الدول المنتجة بل والمصدرة أيضاً في غضون سنوات
قليلة. وهنا لا ينبغي أيضاً ألا ننسى ما لمصر من موقع متميز حبتها
به الطبيعة، و شواطئ خلابة، وطقس معتدل طوال العام، فضلاً
عن ما على أرضها من آثار هي في الحقيقة ثلث آثار العالم مجتمعة.
كل هذا جعلها قبلة للزائرين والباحثين عن الراحة والاستجمام. فأى
مقام كبير هذا الذي حباها به الخالق العظيم.

وفي النهاية تبقى مصر بعراقتها و حضارتها، ويبقى المصريون
بها منحهم الله من خصال بشرية فريدة ربطت فيما بينهم بأواصر
المودة و مشاعر الحب، هي من أهم الأسرار التي صنعت لهذا الشعب
ذلك التاريخ العريق وتلك الحضارة العظيمة، وهو ما ينبغي أن يكون
دافعاً لأبنائها على النهوض بحاضرهم وبناء مستقبلهم .

ورغم زيوع مفهوم الثورات وتكراره على السنة السياسيين والعامة
.. بيد أن هناك اختلافات شديدة حول المفهوم سواء بين السياسيين
انفسهم او بيان اطياف العوام المهتمة، ولذلك ثمة لغط شديد حول
هذا المفهوم الذى اتسم بشدة الايجابية، حينما كان له هدف، تحقق
على أرض الواقع، وانتهى الأمر بأنه أصبح مفهوماً سيئ السمعة
فى الآونة الأخيرة، حيث تسبب فى شروخ شعبية جسيمة تسببت
فى سيول انهار من الدماء ووجهت من خلاله طعنات متتالية

للاقنصادى المعيشى للشعب. ووضع حاضـر الشعوب ومستقبلها على حافة الهاوية. وذلك عندما غاب الأمن وتفشت الفوضى وعصف الجوع ببطون البسطاء.. الأمر الذى جعل البعض ينظر إلى الثورات على أنها حركات تأمرية استهدفت تفكيك البلدان من الداخل وإضعاف قدرتها على التنمية والمنافسة الدولية .. كما نُظر إلى الثوار على أنهم محض عملاء وخونة حصلوا على أجورهم مقدما، وثارت النخبة المثقفة لضمان السير فى طريق التفكك والانحيار وضمان وحماية مصالح الممولين لهذه الحركات والدافعين إليها .. كل ذلك ساعد الى الخلط بين الثورة والانتفاضة .. والهزة الشعبية والانقلاب على السلطة .. وأصبح لكل مفهوم أنصاره. ليس فقط على المستوى التنظيرى ولكن أيضا وصل إلى عمق الفعل والممارسة. فجعل الساحة صراعا بين الثورة والثورة المضادة .. لذا فأحرى بنا أن نصدر إليكم مدخلا سوسيولوجيا لمفهوم الثورة وآخر للجوع.

أولاً : الثورة (مدخل سوسيولوجي) :

في حياة الأمم والشعوب أيام لا تنسى تظل ماثلة أمام الأجيال المتعاقبة تمتاز بأنها من الأيام الفارقة الصانعة للتغيرات الكبرى .. أيام تؤصل وتجسد مستقبل الشعوب وأمالها وطموحاتها .. وقد عاشت مصر على امتداد خريطتها أياماً خالدة مع بدء أحداث ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١ وحتى سقوط رأس النظام السابق في الحادي عشر من فبراير ٢٠١١م.

" وهناك اتفاق بين العلماء الاجتماعيين على أن الإصلاح هو نقيض الثورة ذلك لأنه إستراتيجية للتغيير الاجتماعي تقوم على التدرج ويتم إيقاعها بالبطء النسبي الذي يعتمد على التراكم المجتمعي البطيء في حين أن الثورة تؤمن بالطفرة والانقلاب على الأوضاع المجتمعية الراهنة للتغيير تغييراً جذرياً".

وتعرف الثورة Revolution بأنها مصطلح ذو معان عدة ولكنها مرتبطة ببعضها البعض وهو يستخدم أحياناً كالإشارة إلى تدمير إحدى الجماعات الحاكمة بواسطة جماعة أخرى وأن كان هذا الحدث يسمى في الغالب انقلاباً إذ أن الثورة تطلق عادة على الوقائع التاريخية التي يتم فيها القضاء على نظام سياسي وليس فقط تدمير جماعة أو صفوة حاكمة أما المعنى الثالث للثورة فهي إحداث تغييرات جذرية في النظام الاقتصادي والسياسي والاجتماعي سواء كانت التغييرات مصحوبة بالقوة بالمعنى الأدق للكلمة أو واضحة في إطار ثورة.

ويعتبر أرسطو هو المؤسس الحقيقي لدراسة الثورات ففي الباب الخامس من مؤلفه "السياسة" نجده لا يناقش فقط التفكك أو التحلل الاجتماعي وقبوله أي تفسير تؤكد الشواهد الواقعية حتى ولو كان ذلك الذي يذهب إلى أن الرغبة في التخلص من الفقر يمكن أن تؤدي إلى انقلاب اجتماعي بل يتناول التغيير السياسي، حيث أوضح أنه (أي التغيير السياسي) يتيح غطاءً دائرياً يضم مختلف أشكال الحكم، غير أنه لم يمنح هذا النمط الدائري اسماً معيناً وهو أول من لاحظ وناقش التغيير السياسي العنيف.

ويري "ماركيوز Marcuse" في كتابه "الثورة المضادة والتمرد" محاولة البحث عن قوة ثورية جديدة، لأنه فقد الأمل المعقود على الطبقة العاملة في النظرية الماركسية الكلاسيكية فنجده يحلل استراتيجيات اليسار الجديد في ظروف تطور الرأسمالية المتقدمة ومن خلال محاولته لإحياء السمة الديالكتيكية للماركسية وأنه لا يتوقع من الطبقة العاملة القيام بدورها نتيجة تحولات جذرية كنتيجة الطفرات الهائلة في التكنولوجيا، لذا نجد ماركيوز يرى أن الثورة سوف تصدر من فئات أخرى غير الطبقة العاملة هي المنيوزون والملونون والعاطلون والأقليات المضطهدة، ثم أخيراً أضاف ماركيوز الطلاب بعد حركات الاحتجاج في أوروبا عام ١٩٦٨.

وحيث إن الأمم التي تمتلك ثقلاً حضارياً في حال تعرضت للاضطهاد فهي لا تستسلم بل تعمل لعلاج تلك الخسائر وتحقيق نهضتها وقوتها، فالشعب المصري لم يفقد حيويته وقدرته والدليل على ذلك هو قيامه بثورة ٢٥ يناير رغم كل ما تعرض له في العقود الثلاثة الماضية من سياسات الاضطهاد والقهر والانتهاك الاقتصادي، إن الفعل الثوري يجعل ثقتنا في أنفسنا بلا حدود، فهذا الشعب الذي استطاع أن ينفذ كل هذا الركام البغيض لا شك أنه يمتلك الإرادة والقدرة على تحقيق التنمية الشاملة وإعطاء نموذج نهضوي يفيض حيوية ورونقاً على الحضارة العالمية المعاصرة.

والثورة هي عملية تغيير سريع وجذري للنظام السياسي، بما يؤدي للإحاطة بالنظام القديم والنخبة التابعة له، والثورة تختلف عن

عمليات التغيير الصغير أو المتوسط والتي تحافظ على النظام القديم، فالتغييرات عادة ما تكون جميلية ويمكن اختبار الثورة الحقيقية عن طريق رؤية ما إذا كانت قد أطاحت بالنخبة القديمة أم لا فإذا ظلت في مكانها، فما حدث لا يعتبر ثورة.

ففي أي ثورة راديكالية تتخلص النخبة الجديدة من القديمة تماماً، ولا يعني ذلك ضرورة أن تكون الثورة دموية، ففي عام ١٩٨٩ على سبيل المثال مثل معظم دول أوروبا الشرقية التي مرت بتغيير جذري للأنظمة دون إراقة دماء وهذا ما سمي بالثورة البيضاء، وكانت رومانيا الاستثناء الدموي الوحيد.

ويتأسس منطق الثورات السلمية على مبدئين :

المبدأ الأول :

أن السلطة المستبدة ليست جسداً واحداً أصم، وإنما هي بناء ديناميكي مركب وهي لا تتحكم في الناس إلا لقبولهم بذلك، لذا فإن الثورة لا تحتاج إلى مواجهة النظام القمعي مواجهة مباشرة، وإنما يكفيها أن تحرمه من التحكم في المجتمع المستبد، فإذا فقد التحكم في حياة الناس فقد الثقة في نفسه، وأصبح سقوطه محتملاً، فالثورات السلمية لا تهدم النظام المستبد مباشرة، وإنما تستنزفه من خلال حرمانه من دعم بعض مكونات سلطته، فيهدم البنيان الاستبدادي من تلقاء ذاته.

المبدأ الثاني :

أن العنف الدموي المباشر ضد السلطة المستبدة ليس خياراً

مناسباً، والمقاومة السلمية أجدي وأبقى وقد بين المنظر الأمريكي "جين شارب" في كتابه "من الديكتاتورية إلى الديمقراطية" أن الثورات السلمية تبني على فكرة البطولة الهادئة التي ترفض الرد على عنف الاستبداد ويعنف مضاد فالانحراف إلى العنف الدموي يمنح الاستبداد أخلاقية الرد بالعنف ويسبغ على تمسكه بذاته طابعاً شرعياً.

ويتبين أن الثورات الشعبية هي مزيج من العفوية والتنظيم وهو ما اتضح خلال الثورة المصرية في ٢٥ يناير فالعفوية عصمتها من الاستئصال والتنظيم أعانها على حسن التسديد. وحتاج كل ثورة إلى قيادة، لكن القيادة في عصر الانترنت قيادة انسيابية وليست هرمية وهذا ما يجعل استهدافها عسيراً، واستئصالها مستحيلاً وبذلك تحقق في هذه الثورة المبدأ الأول لمنطق الثورات السلمية فهي لم تقم على مواجهة النظام القمعي مواجهة مباشرة وإنما اعتمدت على أن حرمانه من التحكم في المجتمع (أو ما يسمى بالتجويع السياسي) واستطاعت بالفعل أن تظهر عجزه أمام العالم وتحقق أيضاً المبدأ الثاني حيث اعتمدت الثورة على البطولة الهادئة التي ترفض الرد على عنف الاستبداد بعنف مضاد.

لقد بات واضحاً للجميع أن مصر قد تغيرت من حالة الذل والخضوع لنظام مستبد إلى صحوة وطنية شاملة تزداد كل يوم قوة، فمعظم الفئات والقوى الوطنية تقف اليوم ضد الاستبداد فالقضاة والنقابات المهنية والحركات السياسية، حتى أحزاب المعارضة الرسمية التي طالما اعتمد عليها النظام كديكور ديمقراطي فارقت

الطاعة فجأة ودعت المصريين إلى مقاطعة الاستفتاء، فمصر تغلي بالثورة على الظلم والفساد والاستبداد ويتضح ذلك في أسباب خروج عشرات الآلاف من الشباب المصري كل يوم ليتلقوا بصدورهم ضربات الأمن المركزي ويتحملوا الاعتقالات والتعذيب من أجل العدل والحرية وخروج عشرات الآلاف من العمال في الاضطرابات بالإضافة إلى اشتراك الشباب في المدونات على شبكة الانترنت لفصح النظام وجرائمه في تعذيب المواطنين وهتك أعراضهم.

إن أجيال الشباب عموماً والشباب العربي خصوصاً قد هاجروا من المجتمع الواقعي بكل ما يزفر به من قيود على حرية التفكير والتعبير والتنظيم والعمل السياسي بدون قهر وقيود وضعتها النظم السلطوية العربية إلى العالم الافتراضي الذي أوجدته شبكة الانترنت العنكبوتية من فضاء عاماً جديداً Public Sphere غير مسبوق في التاريخ الحضاري الإنساني وذلك لأنه أتاح لأجيال الشباب الغاضب النائر على النظم الديكتاتورية والسلطوية مجالاً رحباً للتعبير الطليق عن الذات بغير قيود أو حدود، وقد استحدثت أدوات جديدة للاتصال تمثلت أساساً في المدونات والفيس بوك والتويتر غير أن ابتكار فيس بوك غطى إلى حد كبير على تأثير المدونات لأنها تحولت من شبكة اجتماعية إلى شبكة سياسية يتم من خلالها التخطيط لثورة ٢٥ يناير المصرية على فيس بوك بين شباب ناهض لا يعرفون بعضهم البعض معرفة شخصية ولكنهم أجمعوا على معارضة توجهات النظام السياسي المصري السلطوي وممارساته

المنحرفة في مجالات السياسة والاقتصاد والاجتماع والثقافة. وهذه الطبيعة خططت ليكون يوم ٢٥ يناير هو يوم الغضب وهو يوم عيد الشرطة الذي يتم الاحتفال به كل عام تمجيداً لمعركة الشرطة مع قوات الاحتلال الإنجليزي في الإسماعيلية قبل ثورة يوليو ١٩٥٢.

ثانيا - الجوع: نافذة إلى المفهوم

رغم الاختلاف المتجذّر بين جموع الباحثين والمهتمين بتعريف الفقر والذي انعكس بشكل فج في السياسات التي تتبع لمواجهته، نظراً لاختلافهم الأكبر على مسبباته .. إلا أن اختلافهم حول مفهوم الجوع لم يكد يذكر .. فأسبابه غالباً ما تكون محض اتفاق بينهم، وينحصر الاختلاف الحقيقي بينهم في طرق مواجهة الجوع أو الحد منه ويعرف الجوع بوجه عام بأنه ظاهرة يعاني فيها سكان منطقته معينة من سوء تغذية نتيجة أسباب عدة من أهمها الحروب والكوارث الطبيعية كالفيضانات والزلازل والبراكين. لذا فهي تنتشر بشكل أساسي في الدول النامية أو دول العالم الثالث ويترتب على ذلك نقص فادح في الأكل لمدة طويلة مما يتسبب في موت الآلاف أو ربما الملايين من الناس جوعاً ورغم أن مفهوم الجوع ارتبط بالنواحي الاقتصادية المتصلة بالبقاء البيولوجي للإنسان أو غير من الكائنات، بيد أن هناك اصطلاحات جديدة لمفهوم الجوع .. فتحدث رجال السياسة عن الجوع السياسي ويربطوه بالحرمان المتعمد لفئات سكانية من ممارسة السياسة ويربطوه خيراً بالتنمية البشرية عن الجوع الاجتماعي في

اطار الحديث عن الاقصاء الاجتماعى وعلاقة الانسان بالآخر.. بينما
حدث خبراء المياه عن أزمة الجوع المائى وذلك عندما تكون كمية المياه
العذبة المتاحة لمجتمع معين غير كافية لإشباع احتياجات أبنائه من
مياه الشرب.. ومن ثم فإن تحديد مفهوم الجوع يخض لمحددات أو توازنات
معينة تتصل بكل تخصص.. إلا أنه يظل مفهوم الجوع مرتبط الى
حد كبير بالنقص الحاد فى العناصر الغذائية المطلوبة لاستمرارية
الحياة , ويصاب الانسان او الحيوان بالجاعة عندما لا يتناول الطعام
لفترة طويلة من الزمن .

وتختلف تأثيرات الجوع باختلاف الفئات العمرية والنوع الاجتماعى
للفئات المعرضة لخطر المجاعة.. ورغم قدرة الاجسام على مقاومة
أعراض الجوع من خلال ما يعرف بيولوجيا بالـ "الهيموستازية " فإن
الجسم يبدأ بالاستسلام بعد ابقاء المعدة خاوية لزمان طويل, ورغم
شدة تأثيرات الجوع على قدرات الانسان, غير أنه بوسع الناس أن
يتعافوا من درجات المجاعة الحادة فيستعيدوا امكانتهم الطبيعية
ووظائفهم.. بينما يمكن للأطفال أن يصابوا باعاقات ذهنية دائمة
او بخلل فى النمو . وتتسبب المجاعة التامة عند البالغين بالموت بعد
٨ الى ١٢ اسبوع؛ حيث يخسر الأشخاص المصابون بالمجاعة الدهون
الاساسية وكتل العضلات. وذلك لأن الجسم يقوم بتحويل تلك
الأنسجة إلى طاقة. وفى الغالب تحدث المجاعة ايضا نتيجة نقص
الفيتامينات التى تسبب فى فقر الدم, وعادة ما يكون الأشخاص
المصابون سريعى الغضب ومجهدين وكسولين. وربما تمتد تأثيرات

الجماعة لتتسبب في ظهور كثير من الأعراض على الإنسان مثل التعب وانتفاخ المعدة وفقدان الوزن والضعف وعدم القدرة على الوقوف.

ثالثاً- ثورات الجوع:

لثورات الجوع في مصر دائماً أسباب عديدة، تلخصت جميعها في الأزمات الاقتصادية التي تمر بها البلاد والتي عادة ما كانت ترتبط بمجموعة من العوامل أهمها:

١- التيل: فهو الذي منح الله به الحياة لأرض مصر وأهل مصر قال الله تعالى (وجعلنا من الماء كل شيء حي) وبهذا المعيار القرآني تتوقف الحياة على الأرض بغير الماء. وناهيك عن طبيعة الري وطبيعة الأرض فمصر منذ بدء معرفتها بالاجتماع البشري، كانت تعتمد على النيل على الرغم من أن الري كان ري حيضى وليس ريا دائماً.. لذا فقد اتجه الوعي المصري نحو حفر الترع والخلجان وإقامة السدود للانتفاع بمياه النيل قدر المستطاع.

٢- الجسور والخلجان: درج بين العاملين بالفلاحة مفهوم "الخلجان" بمعنى "أمهات الترع" أو هي الفروع الرئيسية للري. تلك التي تغذي الترع. وتم حفر كثيراً منها منها قد حفر قبل الفتح الإسلامي بسنوات طويلة. اذ وردت في أدبيات الري والزراعة أسماء عديدة لخلجان وترع تم حفرها منذ نشأة الحضارة المصرية كخليج "سخا" و"دمياط" و"منف" و"المنهي" و"أكسردس" و"الإسكندرية". وكان للسدود دوراً مهماً في نشأة الحضارة المصرية القديمة بل والحديثة أيضاً. نظراً لما تقوم به من دور في حجب مياه النيل قبل الفيضان بما

يجعل الرى يتم بشكل مرحلى، فضلا عن اهميتها فى الحفاظ على المياه من التسرب والضياع اثناء الفيضان.

وكثيرا ما يربط المعنيون بدراسة التاريخ المصري بين فترات المجاعات وبين عدم وفاء النيل وعدم العناية بالجسور والخلجان والترع. إذ هي منظومة متكاملة تحتاج إلى عناية فائقة. ففي العصر الفاطمى وتحديدًا إبان ولاية "المستنصر بالله الفاطمى" أنشأ المصريون جسرا من الطين "كان يصرف على تجديده من خزانة السلطان.. وانقسمت الجسور فى ذلك العصر البائس إلى "جسور عامة" ترعى صيانتها الدولة وأطلق عليها "الجسور السلطانية". كما كان هناك ما يعرف "بالجسور المحلية"، وكانت مسئولية العناية بها تقع على عاتق الفلاحين، أولئك الذين اهتموا بمقياس النيل لتقدير الشدة والرخاء والخراج، فأقاموا المقاييس على طول مجرى النيل في صعيده ودلتاه .

هذا وقد وجد العرب إبان الفتح الإسلامى عدة مقاييس كمقياس "منف" و"حصن بابليون" الأمر الذى دفعهم إلى إضافة مقاييس أخرى جديدة، كمقياس حلوان والمقياس الهاشمي .. الخ. وكان مقياس وفاء النيل عندهم هو "ستة عشر ذراعا". وتجدر الإشارة إلى أن نقصان النيل كان يؤثر تأثيراً كبيراً على التجارة الداخلية المعتمدة على النيل في نقل البضائع وسير السفن. ففي عام ٣٩٨ هـ نقص ماء النيل نقصانا فاحشاً. إذ أصبح النيل حسب ما وصفه "يحيى بن سعيد الأنطاكي" مخائضاً تخوضه الدواب. وذلك يعني عدم سير الراكب فيه وانقطاع صنوف التجارة الداخلية المعتمدة على نقل السفن والمراكب.

وليس نقصان النيل وحده كما سبق أن ذكرنا هو المسئول الوحيد والمتهم الأوحده في حدوث الظلم والقحط .. بل وفيضانه أيضا كان سببا قويا في تفويت موسم الزراعة على الفلاح المصري.. فإذا زاد المقياس عن ثمانية عشر ذراعا استبحر من الأرض أكثر من ربعها. وعند انصرافه يحصل الوباء.

٣- طاعون الماشية: يعتمد الفلاح المصري القديم قبل تطور الماكينة الزراعية "وآلية العمل الزراعي" - إن جاز هذا التعبير- علي الماشية في العمل الزراعي من حرث وري وجر وغيرها. ولذلك سن القوانين التي تمنع ذبح الأبقار الخالية من العيوب والصالحة للحرث.

٤- الآفات الزراعية وإهلاك المحاصيل: من العوامل التي كانت سببا رئيسا في حدوث المجاعات في التاريخ المصري القديم، كانت الآفات الزراعية كالجراد الذي قضى علي المحاصيل، مثلما حدث في عام ٣٢٧ هـ وسد شعاع الشمس وأتى علي كل أخضر وقضى عليه، وعلى أثره خربت البساتين وأتلفت المزروعات .

٥- الأوبئة والأمراض والطاعون : تسببت الأمراض ولا سيما " الطاعون " بشكل كبير في تعطيل القوى الإنتاجية في كل مجالات الحياة. حيث كان الناس يهجرون المنطقة التي يظهر فيها المرض، ويتكدسون في سواها دون إنتاج. وعمل هذا التنقل بشكل اساسي علي تفشي الأمراض وزيادة البلوي وإهدار الإنتاجية بشكل كبير..

٦- عوامل بشرية: كثيرا ما تكون الأزمات صناعة بشرية.. فحسب ما ورد على لسان " القاضي " أن فرط الاستشعار بقدوم

الجماعة يؤدي إلى الاحتكار وغلاء الأسعار أي أن القلق الملازم للمصريين من عدم وفاء النيل يجعلهم يلجئون إلى تخزين الغلال بدافع الخوف والاحتمال والشك، وكذلك هذا الخوف يدفع التجار للاحتكار لتحقيق هامش ربح أكثر. وفطن المسلمون إلى ذلك الأمر جيدا. فانتبهوا إلى أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم حين قال مجرما الاحتكار " من احتكر فهو آثم " ويأثم المحتكر لأنه أضرب قوة المسلمين.. ورغم حقارة المحتكر وجرمه الفعل أخلاقيا ودينيا فما زال سير بعض الناس في الاحتكار معلوم.

ورغم أن الثورات التي أشعلها الجوع كان لها عوامل طبيعية وعوامل بشرية.. بيد أن عدم وفاء النيل كان من أشد وأنكى العوامل الطبيعية في أحداث المجاعات على الإطلاق . ورغم منطقية العرض والأهمية النسبية لعدم وفاء النيل في حدوث المجاعات، إلا أن هناك من يرى أن الثورات التي يثيرها البشر الطامعين في السلطة والحريصين على الوصول إليها بأي وسيلة هي أشد ضررا وأعظم خطرا وأطول زمنا.. لأن النكبات والأزمات الناجمة عن زلازل أو فيضانات أو انخفاض مياه النيل مثلا كلها تؤدي إلى تعاون الناس واتحادهم لمواجهة هذه الأزمات؛ مما يزيد المجتمع قوة وترابطا ويستطيع الصمود والتغلب على تلك الظروف الطارئة. أما الثورات التي يوجبها الصراع السياسي فإنها تضعف وتهدر من قوة المجتمع السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعسكرية وتستمر زمنا أطول لأن هناك من له مصلحة في استمرارها.. فأكبر بلاء وأعظم ضرر قد أصيبت

به الأمة العربية والإسلامية كان بسبب الصراع السياسى على الحكم وليس بسبب زلازل ولا براكين ولا نقص النيل ولا فيضانه .
وإذا كان هناك من يرى أن كثيرا ما أصاب الأمة من التفرق والصراع والضعف والهزيمة كان بسبب عبيد السلطة. فإن الواقع يشير إلى أن صبر الشعوب على الفقر والجوع أكبر بكثير عن صبرها على المساس بالكرامة أو تعرضها للظلم والهوان؛ وذلك لأن السلطة السياسية قد تجد مبررا للفقر وسوء الحالة الاقتصادية للبلاد متعلقة بكثرة السكان أو قلة الموارد و تأخر البحث العلمي وعدم قدرته على حل مشاكل المجتمع . لكن هذه السلطة السياسية لن تجد أبدا مبررا للظلم والتهميش .

رابعاً- الفتن والثورات؛

و بها يدمر المخزون الاستراتيجي للدولة ويذهب المدخر .. لتقريب ذلك المفهوم وعلاقته بالثورة نستشهد بثورة "محمد بن علي الخليجي" علي الدولة العباسية في مصر حيث ذكر " ابن تغري بردي" أن الخليجي رغم نبل مقصده من ثورته؛ بيد أنه تسبب في افساد أحوال الديار المصرية وتركها خرابا خاوية سرايا. لما تسببت فيه هذه الثورة من الفتن والفوضى. وكثورة " أبي ركوّة" الوليد بن هاشم أمين خزانة الفيوم علي خلافة ("الحاكم بأمر الله" فتسببت ثورته في اضطراب الأسعار وكذلك فتنة المغاربة والسودان في أيام ("المستنصر" وكان لها بالغ الأثر في حدوث الشدة المستنصرية .

وكذلك هجرات التكدس ونقل الأوعية كالهجرة الداخلية والخارجية هي من العوامل البشرية المسببة للأزمات مثل ارتفاع الأسعار عام ٣٠٧هـ بسبب الهجرة إلى الفسطاط وبعض المدن الكبرى وكذلك ٤٩٣هـ بسبب تكدس الناس في القاهرة هربا من الفرنجة . وكذلك التغيرات السياسية كسقوط دولة أو وفاة أمير أو تنحي رئيس يزيد تخزين الغلال ويؤثر في العرض والطلب نتيجة الخوف من المستقبل فترتفع الأسعار. وعلى أية حال لم تكن النوايا الحسنة وطيب المقصد عامل أساسيا لنجاح الثورة .. فليست النوايا السيئة وحدها من تسبب في إفشال الثورات وتفشي الفوضى.. فهناك ثورات عديدة فشلت رغم طيب مقصده القائمين عليها.. ويمكن ذع ذلك في الحسبان عند تحليلنا لما حدث في ثورة ٢٥ يناير التي قام بها فرقة من شباب الطبقة المتوسطة ضد نظام مبارك.. وما إن وقع مبارك رأس النظام إلا وتفشت الفوضى وتحولت الميادين إلى ساحات للتخوين والعمالة وانقسم الشعب إلا أطراف عديدة متقاتلة، مما تسبب في حدوث ثورة ٣٠ يونيو ٢٠١٣م والتي أعطت الفرصة كاملة لاستعادة النظام المنهار بمسكات جديدة ولكنها حمل نفس العقيدة . كما تذكرني الحرائق الكثيفة التي شهدتها مجلس إبان حكم المجلس العسكري في مرحلة ما بعد ثورة يناير بتلك الحرائق الكبيرة التي حدثت سنة ٣٤٣هـ في أيام "كافور الإخشيدى" وكانت وكانت سببا كافيا لتزمر الجياع في فترة حكمه كانت، وأثبتت الأحداث فيما بعد أنها كانت أزمة أفتعلها التجار المحتكرين ليحصدوا أرباحا طائلة.

ولقد صاحب سقوط الدولة الإخشيدية أزمة اقتصادية لم تنتهي إلا بعد عامين

وعندما تشتد المجاعة تضعف بالضرورة الحالة الأمنية في المجتمع؛ وذلك لما تسببه المجاعة من انتشار للسلب والنهب . ورحم الله (عمر) رضي الله عنه عندما رأى وهو المشهود له بالعلم والفقه أن يوقف تطبيق حد السرقة في عام الرماد لعدم اكتمال شروط تطبيقه في هذا العام. لذلك ليس عجيبا أن تنشب ثورة العبيد سنة ٤١٤هـ و ٤١٥هـ حين هجم العبيد علي سماط عيد الأضحى (النحر) عندما لم يحضره "الظاهر لإعزاز دين الله" وقالوا (الجوع الجوع نحن أحق بأكل سماط مولانا) ونجا رجال الدولة بأنفسهم ولم تنجح محاولات التصدي لهم. وفي ٢٣ من ذي الحجة سنة ٤١٥هـ جمع العبيد واللصوص إلي جبل المقطم وعزموا علي نهب المدينة وحرك " بدر الدولة نافذ " وعسكره وصدر أمر للأهالي بقتل العبيد إن تعرضوا لهم. وكان العبيد قد أكلوا الكلاب من الجوع. وتوجه " معضاد ونسيم" إلي العبيد ووعدوهم بإحضار الأموال إليهم في اليوم التالي وعاد العبيد إلي ديارهم ولكنهم نهبوا حاراتهم ودار " سبت ياقوت " التي بساحل الشعير ودار الكتابة واستولوا على القمح والشعير ونهبوا كل شيء. وتكاتف الناس مع " بدر الدولة نافذ " و" المعضاد " وأوقفوا أعمالهم ولم تستقم الأمور وتستتب وظل الحال كذلك طوال فترة الشدة المستنصرية .

خامساً- الثورة والجوع والانفلات الأمني؛

يقصد بالانفلات الأمني: مجموع أعمال العنف التي تقع داخل المجتمع، وينجم عنها أضرار بحقوق المواطنين، وعلى وجه الخصوص حقهم في الحياة والسلامة الجسدية وحماية ممتلكاتهم، يرتكبها أشخاص ينتمون إلى الأجهزة المكلفة بإنفاذ القانون، أو يحسبون عليها، أو من قبل مجموعات مسلحة محلية، كذلك الأحداث التي يقوم بها مواطنون، وتندرج عادة ضمن مستوى الجرائم العادية. كما يعرف الانفلات الأمني أيضا بأنه: أحد الظواهر (الضد - أمنية) التي تسود المجتمع أو الدولة متى انفرط عقدها أو فقدت قوتها وهيبتها وسلطانها وقدرتها على السيطرة والتحكم. ويحدث الانفلات الأمني نتيجة لمجموعة من العوامل المتداخلة أهمها:

- تدهور العلاقات بين السلطة الحاكمة وأفراد المجتمع وخاصة إذا كان النظام دكتاتورياً ولا يبالى تطلعات الجماهير الشعبية.

- ارتفاع نسبة الأمية والجهل وانعدام الوعي الأمني لدى أفراد المجتمع وجهلهم بالآثار المدمرة التي يحدثها الفراغ أو الانفلات الأمني.

- التخلف المادي والحضاري.

- شعور الأقليات العرقية والطوائف الدينية بالظلم والاضطهاد - رغبة الأقليات والطوائف في الانفصال وتفشى هذه الثقافة بين أفرادها.

- عدم اتباع سياسة متوازنة في العلاقات السياسية و

الاقتصادية و الاجتماعية والثقافية بين مكونات الدولة من الجماعات والأقليات الدينية والعرقية.

- ضبابية السياسة التي تتبعها السلطة الحاكمة وعدم وضوح الصورة لدى أفراد المجتمع.

- استثناء فرد أو مجموعة أو أقلية أو طائفة أو قبيلة أو حزب بحكم مستبد لا يخدم مصالح الجماهير.

- ضعف الأجهزة الأمنية وعدم قدرتها على السيطرة.

وإذا كانت هذه العوامل تعبر عن إسهامات المجتمعات المحلية في إحداث حالات الفوضى والانفلات الأمنى والقيمي بمجتمعاتها.. فثمة عوامل عامة وخارجية تسهم فى تشكيل حالات الانفلات فى المجتمعات المستهدفة.. ومن هذه العوامل:

١. الغزو أو الاجتياح المسلح " العسكرى ".

٢. احتدام شدة الصراع على السلطة بين الجماعات وبين الأحزاب والميليشيات وغيرها.

٣. الصراع المسلح بين الطوائف العرقية أو الدينية أو الأقليات.. إلخ.

٤. ظهور الحركات الانفصالية المسلحة " حركات التمرد ".

٥. ضعف الأجهزة والهيكل الأمنية فى الدولة وغياب التنسيق بينها.

٦. ارتفاع نسبة الجريمة المنظمة وظهور العصابات المسلحة والجماعات المعادية.

٧. انقراط العقد الاجتماعي، وهنا تبرز فكرة القائد في فلسفات القيادات الشعبية الاجتماعية وأهميتها الأمنية.

٨. ظهور الجماعات السرية كالجماعات الدينية المتطرفة.

٩. فقدان القوة الجامعة والشعور الوطني.

١٠. الضعف والتجزئة والتفكك وعدم القدرة على التوحد وبناء القوة.

١١. تفشي واستفحال بعض الظواهر غير المشروعة- التسليح غير المشروع للأقليات والجماعات والطوائف في المجتمع.

١٢. الكوارث الطبيعية الجسيمة قد تؤدي إلى حدوث الانفلات الأمني متى كان المجتمع أو الدولة غير قادرة على السيطرة وعلاج تلك الكوارث الجسيمة.

١٣. تفشي الأوبئة والأمراض بشكل واسع وحاد وفي ظل عدم وجود العلاجات وعدم القدرة على السيطرة على الوباء قد يؤدي ذلك أيضاً إلى حدوث الانفلات الأمني أي حدوث الظاهرة الضد أمنية.

١٤. الجماعات البشرية الكبرى قد تؤدي أيضاً إلى حدوث الانفلات الأمني.

تتعد العوامل المرتبطة بالانفلات الأمني والتي ربما تدفع دفعاً إلى ارتكاب الجرائم سواء في حق الأفراد أو الجماعات، ويمكننا رصد هذه العوامل فيما يلي:

التعصب؛ هو اتجاه سلبي يتبناه أعضاء جماعة معينة مستمد

من معاييرها القائمة، ويوجه نحو جماعة أخرى. وتعتبر الاتجاهات التعصبية بمثابة ميل انفعالي ربما يؤدي بصاحبه إلى أن يفكر ويدرك ويسلك طرقاً وأساليباً تتفق مع حكمه بالتفضيل، وفي الغالب بعدم التفضيل بشخص آخر أو جماعة خارجية، أو موضوع يتصل بجماعة أخرى، ويحدث هذا الحكم مسبقاً؛ لوجود دليل منطقي مناسب، أو دون أي دليل وهو غير قابل للتغير بسهولة بعد توافر الدلائل العارضة التي تشير إلى عدم صحته؛ لأنه ينطوي على نسق من القوالب النمطية، وإذا وصل التعصب إلى درجة معينة من الحدة يصبح عاملاً من عوامل الفوضى والانفلات وتقويض وحدة المجتمع ويهدد كيانه، كما تحدث الاتجاهات التعصبية نتيجة للانحراف عن كل من العقلانية Rationagity والعدالة Justice والمشاعر الإنسانية الرقيقة Human Heartedness، وهذه المعايير الثلاثة تتضمن نسق قيم الأفراد ويسهل الاحتكام إليها عند التعبير عن مختلف الجوانب السياسية والدينية والتربوية.

التطرف: ويشير التطرف إلى ارتفاع مستوى التوتر لدى الفرد أو الجماعة نتيجة للشعور بعدم الطمأنينة؛ مما يؤدي إلى التوتر وعدم حمل الغموض الذي يؤدي في النهاية إلى تطرف الاستجابة. (عبدالله، ١٩٨٧) ويعنى التطرف بمعناه العام "مجاوزه حد الاعتدال بالغلو والتشدد في أي شيء أو فكرة أو رأي أو معتقد". (العشماوي، ١٩٨٧م) وقد يكون التطرف نسيج فكر معين أو خليط معتقد معين أو اتجاه جماعة خاصة. فإذا بمعتنق الفكر مغالياً وصاحب المعتقد

متشددًا و عضو الجماعة متطرفًا. ولا يمكن أن يتخلى أحدهم عن مغالاته أو تشدده أو تطرفه إلا إذا نوقش بحرية، وتم مجادلة المعتقد بالتى هى أحسن. وقد يكون التطرف عملاً فردياً عفويًا، أو تطرفه عصبية عشوائية.. وربما يكون رد فعل بعض من الناس على بعض الأوضاع والظروف.

ويعتبر التطرف محاولة للهروب من الواقع غير المقنع للإنسان الذى يفقد التكيف مع المجتمع، وقد يكون العامل وراء ذلك هو اضطراب الشخصية، وقد يرجع ذلك إلى خلل فى تقبل المجتمع للفرد أو عدم إشباع احتياجاته، وإذا اعتبرنا التطرف نتاجاً فكرياً فإنه من المنطق أن يكون له أبعاداً سلبية وإيجابية، ويعد البعد السلبي للتطرف ظاهرة مرضية اجتماعية، وتعمل على تدمير المجتمعات، لما ينجم عنه من أثار تخريبية، أخطرها التطرف الدينى تجاه النظم السياسية، وتحقيق ظاهرة التطرف وجودها وتأثيرها إذا كانت القضية التى يناضل من أجلها المتطرف تعيش فى وجدان الأمة، وهى ظاهرة تشير إلى عدم الاستقرار الفردى أو الجماعى، وهى مقياس لمدى توتر الشخصية فى البيئة الاجتماعية، وتشير كذلك إلى وجود ثمة خلل قائم فى منظومة القيم التربوية فى المجتمع.

الجمود: ويشير إلى المقاومة الكلية للإنسان لتغيير معتقداته، كما يشير إلى مجموعة المظاهر السلوكية والمعرفية المتعلقة بالأفكار والمعتقدات المنتظمة فى نسق ذهنى مغلق نسبياً، ومن أهم خصائصه أنه طريقة منغلقة على التفكير ترتبط بأي أيديولوجية

بصرف النظر عن مضمونها، ونظرة تسلطية في الحياة، وعدم تحمل الأشخاص الذين يختلفون أو يعارضون المعتقدات الخاصة بأصحابها وتسامح الأشخاص الذين يعتقدون معتقدات متشابهة.

ويتسم الشخص الجامد بأنه متمسك وملتزم ومعتنق أو يدافع عن بعض الأنساق العامة أو الفرعية من المعتقدات في الدين أو السياسة العامة أو العلم. أي أن مرجع سلوكه هو النسق الكلي للأفكار أكثر منه فكرة واحدة، ويقال عنه أنه شخص جامد الذهن أو منغلق ذهنياً.

التصلب: ونعني بالتصلب العجز النسبي عن تغيير الشخص لسلوكه أو اتجاهه. وعندما تتطلب الظروف الموضوعية ذلك، والتمسك بطرائق غير ملائمة للسلوك والشعور ويمثل مقاومة اللجوء إلى أنواع جديدة من الاستجابات التكيفية، ويشير التصلب إلى مقاومة التغيير لمعتقد فردي أو مجموعة من المعتقدات أو العادات أو إلى وجود بعض الميول القهرية أو الوسواسية النوعية داخل الفرد. إجرام السلطات العمومية: وهو أكثر هذه الفئات تعقيداً وتنوعاً فهناك الارتباط الوثيق بين هذه السلطات وقوى الجريمة الاقتصادية، وللجماعات الإرهابية دائماً تحالفاتها المعروفة أو الخفية مع الأنظمة السياسية وأجهزة الاستخبارات، بل إن أنشطتها تخدم في حالات كثيرة الأجندة السياسية للأنظمة التي تدعي مواجهتها، فثمة أحياء المتواتر لأشكال قديمة من الفساد الناتج عن سوء استغلال السلطة وتحالفاتها مع المجرمين. وقبل هذا وذاك تأتي الجرائم الأكثر

لصوقاً بطبيعة السلطات العمومية، كالجرائم ضد الإنسانية التي ترتكبها الأجهزة السرية وقوى الأمن والجيش، ومنها أيضاً الحروب وجرائمها. وأخيراً تسخير أجهزة الدولة لخدمة الأغراض الإجرامية لجماعات ضغط ومراكز نفوذ خفية، في خريف صريح للوظائف الأصلية للدولة وانحراف واضح عن قوانينها. والذي يدعوا لمزيد من القلق أن هذه الأشكال الجديدة من الجريمة تتميز بكونها ذات طبيعة منظمة وأنها تمارس -أو تلقى الدعم والحماية- من طرف سلطات قوية وخفية تحتل مواقع النفوذ والتحكم.

ويعني ذلك حدوث تحول في الخلفية الاجتماعية للظاهرة الإجرامية. على الأقل في مستوياتها "العليا"، حيث لم تعد "الطبقات الخطيرة" هي تلك الأكثر فقراً وهامشية، وإنما "النخب" المتحكمة سياسياً واقتصادياً، وغدت الأولى خاضعة للثانية التي ترعى كل نزوع إجرامي وتستغله لحسابها، كما أن الصيغ الجديدة للجريمة أضحت تمثل عدواناً جدياً على مصالح أساسية فردية وجماعية لأن الأمر تحول من انحراف أفراد معزولين وعاجزين إلى إجرام واسع النفوذ يتمتع بمستوى غير مسبوق من الحصانة ضد العقوبة وقدرة فائقة على الابتزاز تتناسب مع تزايد قوة المنظمات الإجرامية وتوثق صلاتها بالسلطات العمومية.

وتمثل أزمة القانون الجنائي مظهراً ونتيجة لحلول ظرفية قاصرة عن مواجهة الأسباب البنيوية للجريمة ومقتصرة على تغذية -حتى لا نقول صناعة- المزاج القمعي والخاوف السائدة في المجتمعات

المعاصرة. وتتجلى أخطاء هذه السياسات ومخاطرها بوضوح في ما يتعلق بالمسألة الأمنية. التي يمكن رصد الانحرافات المتصلة بها على مستويين:

الأول منهما عناية السلطات العمومية عادة بترسيخ فكرة أن الجريمة التي تمثل خطراً على أمن المجتمع وسكيبته هي الجريمة الصغيرة الشائعة والمبتذلة.

وفحوى هذا الخطاب، المتناغم بوضوح مع مصالح الإجرام، أن الطبقات المهمشة كالفقراء والأقليات العرقية والمهاجرين هي مصدر الخطر وأن الاختلاف الاجتماعي والانحراف مترابطان بالضرورة. في محاولة لصرف انتباه الرأي العام عن جرائم السلطة والجريمة المنظمة وتصويب اهتمامه نحو الجريمة الهامشية دون غيرها.

أما الثاني منهما فهو أن هناك رسالة سياسية أخرى لا تقل خطورة، وتتعلق بتحريف مفهوم الأمن واختزال مدلوله عبر تجاهل المحتوى الواسع لمفهوم الأمن الاجتماعي. وحصر دلالاته في فكرة الأمن على النفس مختزلة. بدورها، في مهام حفظ النظام العام. تحاول هذه السياسات الربط بين الأمن وبين التدخل الجنائي كما لو كان يمثل حلاً سحرياً للمشكلة و الواقع أن مواجهتها لا تحتاج إجراءات جنائية بقدر ما تتطلب سياسات اجتماعية لأن حلها يمر عبر خطط الدمج لا من خلال استراتيجيات للإقصاء.

الفصل الأول

ثورة الفرعون الجائع

قراءة اجتماعية في برديات الحكيم "أيبوور"

النيل كان وسوف يظل مصدر سعادة المصريين
ومصدر شقاوتهم أيضاً. فمتى فاض النيل عمت
السعادة والرخاء على البلاد، ومتى هبطت
المجاعة. وإنه كان بالفعل رمانة الميزان بين
تقدم عصر من العصور وأقول آخر.

تمهيد:

شهد المجتمع المصري عبر حقبه المختلفة أحداثاً عديدة، كان بطلها
فى كل مرحلة هو النظام الحاكم . الذى ساهم بشكل كبير فى صنع
حضارة تُعد من أعظم حضارات الدنيا، امتدت لسبعة آلاف عام، ولا
يزال المصريون يعيشون على ثمارها إلى يومنا هذا. وبرغم ما حققته
نظم الحكم هذه من إنجازات جعلت من مصر على مر التاريخ بوابة
العالم بل أمماً للدنيا كلها . إلا أن هذا لم يكن هو الحال دائماً،
فالعصر الفرعوني - مثلاً- كان من أول العصور التي شهدت قيام
أول ثورة للجوع، ليس فى التاريخ المصري فحسب، بل ربما فى تاريخ
البشرية كلها. وجاء وصف هذه الثورة بشكل واضح فى برديات
أيبور ذلك الحكيم الفرعوني العظيم والتي ضمت توصيفاً كاملاً

ونصائح خالدة للملك "بببي الثاني"، الذي حكم البلاد لأكثر من ستة وتسعين عاماً؛ انتهت بثورة عظيمة، تمكن بها الشعب المصري من خلع حاكمه المستبد المغترب، وبرغم نجاح تلك الثورة في خلع الملك والقضاء على فكرة الحاكم "الإله"، إلا أن التضحيات كانت جسيمة. فيذكر المؤرخون أن الدولة المصرية ظلت في حالة أشبه بالفوضى لأكثر من مائة وثمانين سنةٍ إلى أن استقرت بعد ذلك. كما لم ينس التاريخ أن يُذكرنا بالاضراب الذي نظمه العاملون في عهد رمسيس الثالث الذي صار على نهج سلفه، رمسيس الثاني، حين ارتفعت الأسعار دون أن يتبع ذلك زيادة في رواتب العمال فنظموا أول اضرابٍ في تاريخ مصر وربما في التاريخ أيضاً، وما بين تلك الثورة وهذا الاضراب تدور أحداث هذا الفصل؛ والذي سنعرف من خلاله ظروف تلك الأحداث وتداعياتها، لنُجيب على السؤال المهم: متى ولماذا ثار الفراعنة على الإله الحاكم؟

أولاً: أنشودة الفرعون الجائع؛

نامي جِيعاً الشعبِ نامي

حَرَسْتُكَ آلِهَةُ الطَّعَامِ

نامي فإن لم تشبعي

من يقظةٍ، فمن المنامِ

نامي على زيفِ الوعودِ

يُذَاقُ فِي عَسَلِ الْكَلَامِ
نَامِي تَزْرِكُ عِرَائِسُ الْأَحْلَامِ
فِي جُنْحِ الظَّلَامِ
تَتَنَوَّرِي قِرْصَ الرِّغِيفِ
كَدَوْرَةِ الْبَدْرِ التَّمَامِ
وَتَرِي زَرَائِلَ الْفَسَاحِ
مَبْلُطَاتُ بِالرَّخَامِ
نَامِي جِيَاعُ الشَّعْبِ نَامِي

* * *

بهذه الأبيات الشعرية البسيطة لَخَصَ الحَكِيمُ الْمِصْرِي الْقَدِيمُ
أَيْبُوور فِي بَرْدِيَّتِهِ الشَّهِيرَةِ، وَالْمَعْرُوفَةِ بِـ "بَرْدِيَّة" أَوْ مَخْطُوطَةِ أَيْبُوور
أَحْدَاثَ الثَّوْرَةِ الْأُولَى لِلْجِيَاعِ فِي تَارِيخِ مِصْرٍ، وَالتِّي عَبَّرَ عَنْهَا "الْجَوْهَرِي"
فِي الْعَصْرِ الْحَدِيثِ، وَقَدْ كَانَ "أَيْبُوور"، الْحَكِيمُ الْمِصْرِي الْقَدِيمُ، هُوَ أَوَّلُ
مَنْ كَتَبَ عَنِ الثَّوَرَاتِ فِي التَّارِيخِ، فَفِي مَطْلَعِ الْقَرْنِ الثَّامِنِ عَشَرَ
الْمِيلَادِيِّ تَمَّ اكْتِشَافُ بَرْدِيَّةٍ قَدِيمَةٍ فِي مَنَاطِقَةِ مَنَفِيسَ قَرِبَ أَهْرَامَاتِ
سُقَارَةِ، وَالْحَقِيقَةُ أَنَّهُ لَا يُعْرَفُ بِدَقَّةٍ تَارِيخُ الْعَثُورِ عَلَيْهَا، وَكَانَ الْمُتَحَفُ
الْوَطَنِي فِي لِيدَن بِهَوْلَنْدَا قَدْ اشْتَرَى هَذِهِ الْبَرْدِيَّةَ فِي عَامِ ١٨٢٨ م،
وَهِيَ عِبَارَةٌ عَنْ مَخْطُوطَةٍ فِرْعَوْنِيَّةٍ مَكْتُوبَةٍ فِي سَبْعِ عَشْرَةِ صَفْحَةٍ
بِاللُّغَةِ الْهِيَمَوْغْلُوْفِيَّةِ الْقَدِيمَةِ تَعُودُ إِلَى عَصْرِ الْفِرَاعُونَةِ، بَعْضُ

العلماء قدر أنها ربما تعود إلى المملكة الوسطى ولكن ليس هناك دليلٌ مؤكد يحدد متى كُتبت، أو إلى أي أسرة فرعونية تعود، وقد أُطلق عليها فيما بعد بردية أيبوور وقد تُرجمت من اللغة الهيموغلوفية الفرعونية القديمة في عام ١٩٠٨م.

وقبل أن نتحدث عن ماجاء في نصوص تلك البردية، فإنه يحسن أن نشير إلى أن العصر الفرعوني ينقسم إلى عددٍ من الأسرات، تبدأ بعصر الدولة الفرعونية الأولى في عهد الملك مينا، المعروف والملقب بـ "مُؤِجد القطرين"، والتي تم خلاله توحيد الشمال مع الجنوب . وعادة ما تبدأ كل أسره حكمها بحكام أشداء، أقوياء، ثم سرعان ما يسري الضعف في أوصال البلاد فتقوم أسره ثانية بتولي مقاليد الحكم . وهكذا استمرت الأمور حتي نهاية عصر الأسرات.

اعتباراً من نهاية عصر الأسرة السادسة، والتي حكمها الفرعون، الملك "بيبي الثاني" زهاء ستة وتسعين عاماً، تبدلت خلالها أحوال البلاد وصارت في حالةٍ من الفوضى الشاملة سارت بها على طريق الضعف، فوصل حال الشعب المصري إلي الخضيض في أواخر عصر الأسرة السادسة، وأصبح الانفجار قادماً لا محاله، وهو ما سجله الحكيم أيبوور بدقة في برديته المحفوظة في متحف لاهاي بهولندا، وكذا برديه "نفرتي"، المحفوظة في متحف روسيا.

يقول الحكيم أيبوور:

* لقد انقلبت البلاد إلي عصابات، ولم يعد الناس يذهبون

للحقول، و امتنع الشعب عن دفع الضرائب، وتوقفت التجارة مع البلاد المحيطة.

* هجم الناس علي مخازن الحكومة فنهبوها وعلي مكاتب الدولة فأحرقوها، واعتدوا علي مقابر الموتى، حتى الأهرامات ومدافن الموتى لم تسلم أيضاً من السرقة والنهب.

* صب الناس انتقامهم علي الأغنياء، فنهبوا القصور و أحرقوها، وصار أصحاب القصور لا يجدون الطعام

ويتسولون قوت يومهم .. أصبح الشعب سعيداً. ثم يسخر أيبور ما كان يحدث فيستطرد قائلاً :

* إن الأصلح الذي لم يَكُن يستخدم الزيت أصبح يمتلك الأواني المليئة بخير أنواع العطور والفتاة التي كانت تذهب للنهر لرؤيه وجهها، أصبحت هي الأخرى تملك مرآة في المنزل .

هذا وقد تفاقم الأمر ولم يقف عند هذا الحد فاستطرد يقول :

* صب الشعب غضبه علي الأغنياء، فكانوا يقذفون بهم الجدران، وترك بعض الناس أطفالهم في الشوارع عسي أن يجدوا من يلتقطهم و يكون قادراً علي إطعامهم .

* وأصبح رجال الأمن في مقدمه الناهبين للقصور و المعابد، وانهارت الحكومة المركزيه و صار الأغنياء في كربٍ عظيم و الفقراء في فرحٍ شديد.

* وظهرت مقولات وتعبيرات جديدة مثل: لا سلطان لمن في السماء علي الأرض، و أن الأرض لمن يحراثها.

حتى لقد اضطر رجال الدين و ماتبقى من الأغنياء إلى هجرة البلاد .

لقد ثار الفلاح الصابر المطيع علي الظلم ولم يفرق بين معبد إله أو مكتب لحكومة، أو قصر لغني، وبالطبع لم يَكُنْ مُكِيناً أن تستمر هذه الحالة للأبد، فبعد امتلاء الأنهار بالجنث، و جفاف المزارع، عاد الفلاح إلى حقله ليزرع و ينتج ولكن بعد أن انتقم من حكامه الظالمين .

وكما رأينا في هذه البردية، تحدث "الحكيم" أيبوور عن الأسباب السياسية والاجتماعية التي أسقطت الدولة المصرية القديمة وأدت بها إلى حالة من الفوضى وانتشار الرعب في ربوع البلاد، وتغيّر أخلاق الناس وسلوكياتهم المعهودة، والتحول من فساد المناخ السياسي السابق للثورة، إلى فساد المناخ العام كله، فقد جَدَبَت الأرض عن إخراج زرعها و توقف العامل عن صناعته وفقد الناس الشعور بالأمن، وكان أيبوور كان يقرأ المستقبل في آلة الزمن، و يتنبأ بما سيحدث على نفس الأرض بعد أكثر من أربعة آلاف سنة.والحقيقة أن التاريخ ذاخر بثورات البحث عن العيش الكريم والكرامة الإنسانية والعدل الاجتماعي إنها الثورات التي عرّفها التاريخ ووصفها بـ " ثورات الجوع " . وقد سجل المصريون في مختلف الأزمان صفحات وصفحات من المجد، حين وقوفوا في وجه الطغاة والفاستدين منذ فجر التاريخ في مصر الفرعونية وبخاصة في تلك الفترة التي عُرِفَت بـ " الفترة الانتقالية الأولى"، والتي تُعد من أهم فترات التحول

في تاريخ المصريين، لما أدت إليه من تغيير في الأوضاع السياسية والاقتصادية في ذلك الوقت. ففي عصر الأسرة السادسة، جاء حُكام الأقاليم والكهنة " البطانة "، جاعوا بسلطاتهم الواسعة، ليجدوا من نفوذ الملك، ويقيموا نظاماً أشبه بالنُظم الإقطاعية في أوروبا - في عصورها الوسطى - فحادوا عن الحق كثيراً، وطمغوا بظلمهم، فهاج الشعب " الطيب، الصبور " قام بأول ثورة عرفها التاريخ، مُعلنًا رفضه وغضبه، ومُعبراً عن حقه ومطالبه.

والحقيقة أن ثورة طبقة " البروليتاريا " العاملة، ضد الطبقة الأرستقراطية "البرجوازية"، المالكة، قد قضت على كل مظاهر الظلم الاجتماعي في مجتمع تحول فيه الناس إلى سادة وعبيد، فكانت رداً عنيفاً وقوياً على الحاكم الظالم، لم يسلم منه هو أيضاً.

وقد اختلف المؤرخون في تحديد زمان " الثورة الاجتماعية الأولى " هذه، فمنهم من قال أنها كانت في عهد الملك " بيبي الثاني "، آخر ملوك الأسرة السادسة، إلا أن الثابت - والأهم من ذلك - أنها كانت ثورة قضت على كافة مظاهر الظلم التي كانت قد تفشت في المجتمع، وأن الحاكم - نفسه - لم يسلم من موجاتها وآثارها كما أسلفنا، والحقيقة أن بقائه في الحكم لتلك الفترة الطويلة - والتي لم تُتَحَ لمن سبقه، ولا حتى لمن خلفه، وكان قد بلغ خلالها من العمر مبلغاً ربما كانت دافعاً إضافياً لثورة الشعب ضده.

ستة وتسعون عاماً قضاها الملك " بيبي الثاني " في الحكم،

كانت كفيفة بإضعاف قبضته على مقاليد الأمور ومهدت الطريق لمن أحاطوا به من حكام الأقاليم ليستقلوا ويستحوذوا على كل السلطات في الدولة، فتحولوا إلى "آلهة"، يحكمون عبيداً. فصار العزيز ذليلاً، والوضيع عزيزاً، فعمّ الخراب، وساد الاضطراب، وحلت بالناس الخطوب، واشقتهم المحن، هكذا حكى "الحكيم" أيبوور في برديته. حين دخل على الملك العجوز واصفاً حال البلاد وبؤس العباد، ومتحدثاً عن أسباب الثورة و ما أدت إليه بقوله :

* إن أحوال البلاد قد تبدلت وتغيرت وخرج الجرذان من جحورهم لينطاولوا علي الأسود التي باتت ضعيفة .

مُرجعاً السبب الرئيسي في الثورة إلى طول طول بقاء الملك في الحكم، و الذي كان قد تولى العرش صبياً صغيراً وظل يحكم لأكثر من ستة وتسعين عاماً، تاركاً البلاد في أيدي معاونيه وقواده فعاثوا في الأرض فساداً، واستغلوا ضعفه طفلاً، إلى أن صار شيخاً طاعناً في السن. وهجرات البلاد المحيطة بمصر علي هيبة الدولة بعدما كانت تدين لها بالولاء والطاعة. وصارت بعثات التجارة إلى البلاد تُنهب، ويقتل أفرادها، وآلت البلاد في النهاية إلى ثورة عارمة، حتى الأهرامات ومقابر الملوك الفراعنة بما فيها من كنوز لم تسلم هي الأخرى من النهب والسلب. وانتشرت المجاعة وعزّ رغيف الخبز وتحول اللصوص وقطاع الطرق إلى أثرياء لكنهم صاروا لا يجدون ما يسرقونه، وعمت المجاعة فتغيرت أخلاق المصريين، وصار الأخ يشك في أخيه ويحتاط منه، وأغلقت البيوت أبوابها علي أصحابها حتى الشوارع خلت من

المارة. ولم تجد الأرض من يزرعها. فمن استفاد بهذا الوضع؟ بالطبع هم أتباع الإله "ست" إله الشر. فكان هذا هو عصرهم الذهبي لكي يدمروا الشرفاء!. ففي مصر القديمة كان واجب الفرعون "الملك" نحو شعبه أن يحكم بين الناس بالعدل والحق والنظام، أي أن يحكم وفق تقاليد الـ "ماعت"، رمز الحق وإله العدل والنظام. فكان وزير الدولة يتلقى تعليماته مباشرة من الملك الذي كان يحث فيها علي نشر مبادئ الحق والعدل والنظام بين الشعب.

ثانياً: من الذى قام بالثورة ؟

من الاسئلة الملحة التى جالت بخاطري - كاختصاصي بالاجتماع والتنمية وليس بالتاريخ -، هو كيف تقوم الثورات؟ وما هي آلياتها؟، ثم ما هي سمات من يقومون بها؟، وما هي الأدوات والوسائل التي يستخدمها الثوار للحشد والتعبئة وتوحيد الصف الشعبي وتنظيمه ليصبح أداة ضغط فاعلة؟. يضعف أمامها الحاكم بجبروته وألوهيته "الوهمية"، وسلطته الجبارة وجيوشه الجرارة. ورغم قلة النصوص التاريخية التي أجابت على هذه الأسئلة. إلا أننا وجدنا وصفاً مقتضباً للثورة وآلياتها في برديات "الحكيم" أيبوور أيضاً، الذى وصف ذلك قائلاً:

* لقد ارتفعت السنة الذهب وامتدت نيرانها، وستكون حرباً علي أعداء البلاد. فانطلق الحراس للنهب، وأبي الحمّالون أن يحملوا أحمالهم، وتسليح صيادو الطيور بأسلحتهم، وحدث شئ قذر في

عهد حورس، حيث هوجمت الإدارات العامة ونُهبت قوائمها، كما زبح الموظفون وسُلِبَت دفاترهم، ولم تعد لكبار الموظفين كلمة مسموعة، ثم يقول: كيف امتلأت البلاد بالغابات حتى أن الرجل صار يذهب إلى الحرث حاملاً درعاً بدلاً من فأسه، و صار اللصوص يختبئون بين الأشجار حتى إذا جاء المسافر ليلاً انقضوا عليه وسرقوا ما معه.. فيظل يُضرب بالعصا حتى تخمد أنفاسه ثم يُذبح ظلماً، إن الرجل ليُذبح بجوار أخيه فيتركه ويهرب .

و يتحدث "الحكيم" أيبوور أيضاً إلى الملك مُشيراً إلى الغوغائية والفوضى في طيات كلامه إلى إهدار مقدرات البلاد واصفاً تدهور الحال فيقول : كيف شارك في الثورة حتى أصحاب أهدأ الحرف كبائع الحلوى وصانعوا الجعة؟ لقد استمرت الثورة حتى جعلت الأرض تدور كعجلة صانع الفخار إن الدولة في طريقها إلى أن تصب الماء لغيرها، ومن أضاع الماء يكون قد شلّ الذراع الفتيّة وقيدها في الأغلال .

إن هذا الرصد البديع للثورة وما آلت إليه الدولة، وتبيان أن الظلم قد متّس كل شيء، فانتفض الكل ضد الطغاة، حتى مياة النيل قد أُهدِرت، فأشار إلى الماء وضياعه، ووصفه بتقييد السواعد في الأغلال، حقاً ما أجمل هذا الوصف البديع، وما أروع المثقفين عندما يكونون - بحق - ضمير الشعب، يسجلون التاريخ بموضوعية بعيداً عن المغالاة والنفاق، وحُلُوا من الزيف والمزایدات.

ولم يتوقف أيبوور "الحكيم" في وصفه لثورة "الفرعون الجائع" عند هذا الحد، وإنما أخذ يجيب على تساؤلاتنا الحالية أيضاً، هل حالات

الانفلات الأمني والأخلاقى التى تصاحب الثورات هي عرض زائل أم جذر متأصل في النفس البشرية؟ ثم يعود ليقول واصفاً حالة المجتمع المصري وقت الثورة قائلاً :

* لقد نبت الخراب في كل أرض، والدم صار في كل مكان وأصبحت لفائف دون أن يقترب منها إنسان، لقد نفدت الغلال في كل مكان، وفرد القوم من الملابس والزيوت والعطور وصار كل إنسان يقول لم يبق عندي شيء، وأصبح الناس يأكلون الحشائش ويبتلعونها بالماء وقد يأخذون الطعام من أفواه الخنازير إن نيران الثورة وآثار الخراب لم ترحم أحداً، فتأثر بها النبلاء قبل الفقراء والأذكياء قبل الدُهماء، فخراب الأوطان لا ينجو من ويلاته أحد. وهنا يستطرد أيبور في برديته قائلاً: كانت النبيلات يهرين بأطفالهن ويلقين بهم في النهر؛ خشية الموت، وأولاد الحكام يفترشون الطرقات ويتسولون في الأحياء، إن النبيلات يجمعن بقايا الحصاد، فمن كان لا يملك حقه من القمح، بات يملك مخازن الغلال، والذي لم يكن يملك ثوراً صار يملك قطعاً، فتأمل .

وفي عبارات حكيمة بليغة، يستطرد أيبور متحدثاً عن مغارم ثورة جياح الفراخ وكيف أنها قوّضت أركان الدولة، فيقول:

* أصبح الأجانب مصريين، وصار المصريون أغراباً، وطمع الأسبويون في مصر وسقطت أركان التجارة التي تُنعش الاقتصاد، وتخلي المصريون بعد الثورة عن كثير من مشاهد حياتهم، كالاهتمام

بالمدافن والجبانات، فانتشرت الحُفَر الأثرية، وتعاونت السلطة مع مجموعة من المتعصبين والمحرضين الشعبيين وقادة الأقاليم، ولم تُعرف المقابر الجماعية إلا في تلك الحقبة التاريخية البائسة، كما أن مهنة الخانوتية لم تظهر إلا في ذلك الوقت؛ لكثرة من ماتوا جوعاً.

وتشير المصادر التاريخية التي حكّت عن تلك الفترة، إلى إنهيار نظام الحكم المركزي، حيث عجزت الدولة عن حفظ الأمن، ونُهبت الأقاليم بقطاع الطرق وبدو الصحراء والصوص. ودُهست سجلات الدواوين والقوانين حتّ الأقدام، وقبل ذلك كله قهراً أهل الصناعات والفلاحين، واستُغلّ عرقهم وحاول البعض الوثوب علي كرسى الملك دون شرعية. إلى هذا الحد وصل الفساد والخراب والدمار في عصر المستبد "بيبي الثاني"؟.

كما أن بعض المصادر التاريخية الأخرى تشير إلى أن تلك الثورة ربما تكون قد قامت في عهد هذه الملكة "نيتوكريس"، ومنها بردية "تورين – Turin Papyrus"، التي ترجع إلى عصر الملك رمسيس الثاني، وقد كُتبت هذه البردية حوالي في العام ١١٦٠ ق.م على ورق بردي بالخط الهيراطيقي، وقسّمت البردية إلى مجموعات نسبت كل مجموعة منها إلى العاصمة التي استقرت فيها، وتعتبر هذه البردية من المصادر المباشرة والمهمة للبحث في تاريخ الحضارة المصرية، فقد اشارت إلى أكثر من ثلاث مئة من الملوك والفترات التي تولوا خلالها الحكم، وأهم أعمالهم، بداية من عصر ما قبل الأسرات حتى عصر الأسرة الثامنة، وهذه البردية معروضة بمتحف تورين بإيطاليا .

والملكة " نيتو كريس " هذه - كما يذكر المؤرخون - كانت الابنة الكبرى للملك "ببى الأول"، وقد تولت الحكم بعد وفاته، ويرى آخرون أنها كانت أخت آخر ملوك هذه الأسرة والذي مات مقتولاً، ويذكر "هيرودوت" أن رجال الدولة الذين اغتالوا شقيق هذه الملكة أجلسوها على عرش مصر على غير رغبتها، فقد كان قد ساءها اغتيال أخيها ولكنها قبلت الحكم على أمل أن تنتقم من ارتكبوا هذه الجريمة في حق أخيها، ولذلك، فقد أمرت بإنشاء قصرٍ عظيمٍ على أن يكون في أسفل بعض الحجرات المتصلة بسراديب مغلقة تنتهى بنهر النيل، ثم دعت رجال بلاطها الذين كانوا قد دبروا مؤامرة اغتيال شقيقها إلى مأدبة بالقصر احتفالاً بالانتهاء من بنائه، ولما اكتمل الجمع، أغلقت ابواب القصر وفتحت مياه النيل على حجراته فأغرقت المتآمرين جميعهم بحيث لم ينجُ منهم أحد، وقد وصف "هيرودوت" هذه الملكة بأنها من أنبل وأعظم حكام عصرها، كما وصفها المؤرخ المصري "ماينتون" بأنها كانت أجمل امرأة في زمانها.

والخلاصة، أنه ليس في الإمكان تحديد زمان هذا الحدث الفاعل على وجه الدقة، ولكن الحقيقة المؤكدة، هي أنه قد وقع، خصوصاً وأن ما ورد في بردية أيبور لا يشير إلى مكان ولا إلى زمان الثورة الشعبية، على أية حال، وبصرف النظر عن الزمان والمكان، فإن أهداف الثورات غالباً ما تكون متشابهة، ويظل الفقر والاحساس بالظلم وغياب العدل هي الدوافع الأساسية وراء كل تظاهرات أو تمرد، وسبباً رئيساً لكل غضبٍ أو ثورة.

ومن هنا تصبح أهداف الثورات الشعبية، مهما اختلف زمانها ومكانها - بشكل عام - هي القضاء علي الظلم، والفساد، وفساد الحكم، وإهدار مصالح الشعب. وقديماً قال الشاعر العباسي ابن زريق البغدادي (المتوفي سنة ٤٢٠هـ / ١٠٢٩ م) :

أَعْطَيْتُ مُلْكاً فَلَمْ أَحْسِنْ سِيَاسَتَهُ

وَكُلُّ مَنْ لَا يَسُوسُ الْمُلْكَ يَخْلَعُهُ

وصدق أيضاً أبو العلاء المعري، أحد أهم شعراء العصر العباسي أيضاً (المتوفي سنة ٤٤٩هـ / ١٠٥٧ م) حين وصف أمثال هؤلاء الحكام المتجبرين ببيت شعري يقول فيه:

وَأَرَى مُلُوكاً لَا تَحُومُ رَعِيَّةَ

عَلامَ تُوْخَذُ جَزِيَّةٌ وَمُكُوسٌ

وعموماً فإن بردية أيبوور لم تترك المشهد قائماً، وإنما ألقت ضوءاً يبعث على الأمل، فقد تنبأ أيبوور بقدوم ملكٍ يخلص مصر من أزماتها، ويقيلها من عثرتها، فقال: سيأتي من أهل الجنوب ملكٌ، مولودٌ لامرأة نوبية، اسمه "أميني" أو "مين"، سيكون له شأنٌ عظيم ومجدٌ كبير وسيلبس التاج الأحمر ويوحد القطرين.

إلا أن الحكيم أيبوور لم يكن الوحيد الذي بشر بذلك، فبحسب المصادر التاريخية، فإن بردية ثانية كان قد كتبها الكاهن " نفرتي "، في عهد الأسرة الثانية عشر بهدف الدعاية السياسية للملك "أمنمحات " الأول، أول ملوك هذه الأسرة، أرجع كاتبها الأحداث

إلى عهد الملك "سنفرو"، الذي كان قد طلب من الكاهن والحكيم "نفرتي" أن يتنبأ له ببعض الأحداث المستقبلية، فحدثه عن حالة من الذعر والفوضى ستسود البلاد، ثم بشّره بأن هذه الحالة لن تنتهى إلا على يد ملك يدعى "أميني" أو "أمنمحات الأول".

ثالثاً: لماذا ثار الفراعنة؟

ورغم أننا في السطور السابقة كنا قد أشرنا سريعاً للوثائق التي سجلت أحداث الثورة، إلا أن التساؤل عن أسباب الثورة لا يزال قائماً، ورغم أن المعطيات التاريخية قد تباينت واختلفت في وصفها لتلك الأسباب والمبررات لثورة الفراعنة، إلا أننا تمكنا من خلال دراسة أحاديث أيبوور "الحكيم" أن نستخلص الأسباب التي أدت إلي انتفاضة الجياع والتي نعرضها كما يلي:

(١) زواج السلطة والمال ونظرية الملك الإله .

يذكر التاريخ أن مصر إبان حكم الملك بيبى الثانى تحولت إلى قلة تملك كل شئ (رفاهية - سلطة) زواج المال والسلطة وأغلبية تكايد الفقر والجوع وحرَم من نتاج يدها وتعاني كل أنواع الاغتراب وسطوة الدين الذي يجعله الطغاة (أفيون الشعب) دائما نظرية الملك الإله، التي شكلها منذ البداية الملك الإله حور. ومن الحقائق المؤكدة التي لا تقبل الشك ولا الجدل أن مصر تعتمد علي النيل أي ذات طبيعة فيضية في القديم ولا تعتمد عل المطر. لذلك وجب على الحاكم في كل زمان التمكن من ضبط النهر وضبط الناس وإلا

سيطر علي الحقول قانون الغاب وتحول توزيع المياه إلي عملية دموية.
وهنا تأتي أهمية التنظيم الاجتماعي لأحوال البشر على أن
يصبح التنظيم الاجتماعي ذاته شرطاً أساسياً للتعايش، ولابد من
خضوع الجميع لسلطة أعلى حاكمة عادلة توزع المياه وتنشر العدل
بين الجميع ويصبح وسيطاً بين الإنسان والبيئة، وبهذا يصبح الفرعون
ضلعاً أساسياً في مثلث الإنتاج مضافاً إلي ضلعى النيل والشمس؛
ولهذا لم يكن مستغرباً أن يعبد المصريون الحاكم ويتألهوه .

انظر إلي أنشودة النيل مثلاً :

يا من خرجت من الأرض وأقبلت تغدو مصر
أن من يروي البراري هو الذي خلفه رع ليعزو الماشية جميعاً
هو الذي يسقي الصحاري إن بعدت عن المياه
إنه حبيب جب مدير آلهة الحصاد

إنه سيد الأسماك وصانع الشعير وخالق القمح
إذا هبطت كانت الأرض كلها في فزع وحزن الكبير والصغير
وإذا ارتفع كانت الأرض في احتفال وكل امرئ في سرور.

ونلاحظ من ذلك أن الشعب المصري عبد كل من قدم له غذائه
(الشمس - النيل - الملك الفرعون). وهذا يؤكد وجود الملك الإله
الذي له علاقة بالشعب والعلاقة الاقتصادية بين الملك والشعب

سبقت العلاقة الدينية .ومن أبرز الأدلة علي ذلك ثورة الشعب التي عرفت بالثورة الاجتماعية الأولى التي كان من أهم دوافعها أن المصري لم يجد طعامه وذلك لظروف عدة،من أهمها النيل الذي هبط ماؤه إلي الجفاف (أعطني أرضك وجهدك -أعطيك أنا مياهي) وربما بسبب سطوة حكام الأقاليم.

وبذلك نري أن العقد الاجتماعي المبرم بين الشعب والحكام تم نقضه من قبل الحاكم فثار الشعب عليه دون مراعاة لقدسية الحاكم الإله. وربما يكون هذا الرأي صحيح أو بجانب للصواب ولكن بما لا شك فيه أن الجانب الاقتصادي من أبرز أسباب الثورة علي الحكام لأنه مشعر بالعوز والمهانة وفقدان الأدمية.

(٢) ضعف الملكية وزيادة نفوذ حكام الأقاليم:

في أواخر عصر بيبى الثاني، استقل الحكام في الأقاليم بأقاليمهم وأصبحوا كالملوك ووقعت البلاد في انقسام سياسي وإضراب اجتماعي لهم تشهد البلاد منذ اتحادها،ولهم يكن يعرف (بيبي الثاني) من أمر البلاد إلا ما ينقل إليه من بطانة السوء من كذب وزور ونزل بالناس محن وخطوب وإفلاس وعز الذليل وذل العزي. وهذا يوضح أولا سيطرة الملوك علي مقدرات الدولة فغلبت قوتهم قوة حكام الأقاليم القائمين علي جمع الضرائب لصالح الخزانة العامة.

ويعد ضعف السلطة المركزية استقلال حكام الأقاليم عن الفرعون، وبلغ الاستقلال حدته في عهد الملك (بيبي الثاني) الذي

استمر علي العرش قرابة ٩٤ عاما. وهي أطول فترات الحكم لحاكم في تاريخ الدول، وأخذت الدولة نظام اللامركزية في الحكم. كما كان قبل الاتحاد (توحيد القطرين الشمال والجنوب على يد مينا) وقام المصريون بالتمرد ضد ملكهم ولم يعد الحاكم ذلك الإله الذي يرجو رعاياه رضاه.. ولا بالقادر الواهب للرحمة في الدنيا والآخرة....

ولذلك قبلت فكرة المساواة نظريا .. وأعتنق المصريون عقيدة تحالف العقيدة .. وأصبحت الأوزيرية هي التعبير عن التمرد والثورة الشعبية، ولسان حاله والناطق الرسمي لهذا التمرد، وضعف الحكام الفراعين. ولم يعد ممكنا إعادة قوتهم وملكهم. وما زاد الحكم الملكي ضعفا كثرة الهبات والعطايا الملكية على الحاشية وحكام الأقاليم.. وما أشبه الليلة بالبارحة ذكرتني هذه الواقعة بما حدث في عهد مبارك، حيث الأموال المنهوبة في كل بنوك العالم والعطايا الجائرة وإهدار المال العام.

وهنا نري أن الحاكم يقدم العطايا والهبات لحاكم الأقاليم بهدف شراء الولاء ومنحهم الأراضي للإنفاق علي المعابد الإلهية والخدمات الجنائزية. وقد حدث ذلك مع (وني) التي حدثتنا الوثائق التاريخية انه أهداه تابوتا من الحجر الجيري من طره وأهداه عظام التابوت والباب الوهمي ومائدة القرايين... ولا ننسى (زعو) أحد أمراء الصعيد الذي أهداه الملك تابوتا من الخشب وكثير من العطور ومائتي من أجود أنواع الكفاف؛ مما تسبب بشكل كبير في نفاذ خزانة الدولة .. الذي تجلى في جملة من المظاهر أهمها: شراء ولاء حكام الأقاليم .

و احتفاظ حكام الأقاليم بأموال الضرائب.والضرائب في زمن الدولة القديمة جني ما تنبت الأرض ومن الماشية والذهب.

ولكن من الواضح هنا أن طرق الجباية قد اختلفت، فغير القادرين يعملون لسدادها أوقاتاً محددة بغير أجر وأصحاب الضياع يؤدونها بما يملكون، وقدرت علي الأقاليم حسب المساحة ووفاء النيل؛ بما سهل الأمر على الحاكم، وظلت العلاقة قائمة على الأمر والطاعة بين سطوة الملكية والاحتفاظ بهيبة الألوهية.

وهنا كان لزاماً علينا أن نمنع النظر فيما ورد من نصوص، كانت تعبر ما كان يحدث، وما كان يعانيه الشعب إبان عصر (منقرع) حيث نشاهد الفلاح الفصيح يجابه الملك، ويصف حال الشعب فيقول:

"إن ابن مرو أعمي عما يري .. أصم عما يسمع .. يا مدينة بغير عمد .. وجماعة بغير رئيس .. ويا سفينة بغير ريان - وفريقا بغير قائد .. انظر: انك لص، حاكم بجهل الفلاحين .. ورئيس مقاطعة يجب عليه القضاء علي النهب .. ولكنك تشبههم .. إن لم تكن نموذجاً لهم...."

(٣) الهبات وتملك الأراضي الزراعية؛

كانت الهبات تمثل إحدى صور الفساد في عصر الملك بيبي الثاني.. فمن خلالها تمكن الملك من شراء ولاء وضم حكام الأقاليم وبعض الأراضي للإنفاق منها علي المعابد والخدمات الجنائزية.قطعتي

الأرض التي وهبها الكاهن (وسر كاف) إلى (نكا عنج) والتي كان قد وهبها الملك منقرع لكاهن (حتحور) (غنوكا) للإنفاق على عبادة حتحور وبعض الخدمات الجنائزية .

وكان الملوك يهبون القرى ليس من أجل الاستمتاع بحياتهم الدنيوية .. بقدر حرصهم على رعاية معابدهم وتفخيم قصورهم الآخروية، حتى صارت القرى إرثاً لأهل الميت.. وبناء على ما تقدم فإن مصر لم تعرف معنى الملكية ولا حدودها إلا في ذلك العصر بعد أن كانت مصر كلها ملكاً للملك أو الحاكم الإله .. وكان الفساد كان مقروناً بالتملك أو الملكية .. خاصة وأن الرغبة في التملك غريزة إنسانية كسائر الغرائز .. كرغبة الرجل أو الأنثى في تملك الآخر .. وإذا ما حُجِّمَت هذه الغريزة صار العالم الإنساني بمثابة غابة يأكل بعضه بعضاً.. من أجل اشباع رغبته في التملك .

ويذكر المؤرخون الأراضي التي منحها (بيبي الثاني) لـ (سابني) حاكم أسوان.. حيث منحة ثلاثين أوروّاً من الأرض في شمال مصر وجنوبها؛ مكافئة لولائه الملكي، والأوروري هو ما يعادل ثلثي فدان تقريباً. ولكم أرهقت المنح والهبات خزانة الدولة وأضعفتها، وساهمت في تضخم ثروات الأمراء بالميراث؛ مما تسبب في استقلال حكام الأقاليم عن السلطة المركزية للدولة . يقول الحكيم (ايبوور) . (حقاً لماذا لا تدفع جزيرة أسوان (اليفانتين) و(باقليم أبيدوس) الضرائب، إذا كانت الضياع في حاجة إلي الفاكهة والقمح وكل أنواع التجارة .. فما فائدة الخزانة دون دخل ..؟

ورغم حرص النظام الملكي على جمع الضرائب من العامة .. بيد أن هذه الضرائب كان من السهولة بمكان سرقتها والنسبوا عليها. على أيدي أي من موظفي الدولة أو القائمين على جبايتها دون رادع أو رقيب .. الأمر الذي أدى إلى إفلاس الدولة وإفراغ خزائنها ومحدودية وربما معدومية الخدمات التي تقدمها للشعب مقابل الضرائب التي تجمعها منه .. فلم يعد في قصر الملك من خدمات تستحق أن يجمع لها الضرائب من الشعب ..

لك الله يا مصر .. فلکم تباهي حکام الأقاليم بمنجزاتهم مثل (عنج تيفي) حاکم (نخن) البصيلية (وايتي) حاکم الجبلين .. اللذان تفاخر كل منهما بكرمه .. فعدد من أطعمهم وكساهم .. حتى أنه لم يكن في إقليمهما وقت المجاعة جائع ولا عار .. وأمام هذا الشكل السلطوي الجامح والنفوذ القوي لحکام الأقاليم مقابل ضعف الحاکم؛ الذي لم يكن أمامه سوى الانصياع لمطالبهم؛ ورث الأبناء إقليم الآباء، ووزعت ثروات البلاد بين الأسر القوية. وحاولوا كسب الكهنة فأسرفوا في بناء المعابد لهم، ووقف الأوقاف عليها وكلما تمددت كف الحاکم قوي نفوذهم .

(٤) سطوة رجال الدين وبناء المقابر الملكية؛

ومن دواعي التمرد وأسبابه أعباء البنايات التي هددت الاقتصاد القومي تحت وطأة السوط السلطوي الديني. والدين كان وما زال أكبر المؤثرات في حياة المصريين وهو موجه الفكر ومرشد طرق الإصلاح

لهم إذا لم يسء استخدامه لأنه كذلك (أفيونه الشعوب) لا يزال الهرم الأكبر يخلد ذكرى صاحبة ولنا أن نتصور حجم ما انفق عليه إذا عرفنا حجمه وطريقة بناءه. فقد بني (٤٢٠٠م) وكان ارتفاعه (٤٦م) أنقصها عوامل التعرية إلى (١٣٩م) وقيل إنه تم جلب قرابة مليون وثلاثمائة ألف كتلة حجرية وقد تراوح وزن الواحدة منها إلى ما بين (٢٥٠٠ كجم - ٣٠٠٠ كجم) وقطعت من محاجر هضبة الجيزة التي شيد الهرم فوقها، وكسء الهرم قطع من محاجر طره والذي أكلته عوامل التعرية إلا قليلاً.

ويدل ما سبق على حجم التكاليف وإهدار القوة البشرية وضياع الوقت حيث يقال أن بناء الهرم استغرق قرابة عشرين عاماً وأهدرت طاقات مائة ألف عامل كانوا يستبدلون كل ثلاثة أشهر. وليس ذلك فقط ولكن الطريق الذي شيد لتنقل عليه الأحجار استغرق عشر سنوات ولك أن تتخيل عزيزي القارئ حجم ما فيه من إهدار ومعاناة. كل ذلك في سبيل هرم واحد. فما بالك وهي الدولة القديمة. ولقد بلغ عدد ما بني في مصر أكثر من سبعين هرمًا. وما يجدر ذكره أن الملك (بيبي) رغم سوء الأحوال في فترة حكمه بني أربعة أهرامات له ولزوجاته (نيت - إيبوت - أوحنين). فأى عبء ألقي على خزانة الدولة وأي إهدار لطاقات البشر وتفويت فرصة العيش السعيد عليهم.

كما شكل الإنفاق على مقابر الملوط وأضرحتهم عبئاً إضافياً على خزانة الدولة.. إذا أن الهبات إلى خُصصت للإنفاق الدائم على قبور الملوك والملكات والنبلاء فإنها تعني إقصاء مساحات شاسعة من

الأراضي ارض وموارد الدولة السياسية عن حظيرة الاقتصاد المصرى.
ومن الأمثلة الدامغة على الإسراف فى موارد الدولة أنه تم وقف خراج
اثنى عشرة قرية علي قبر (منقارع) ابن (خفرع)
ويحضرني في هذا السياق ذكر العبارة التى كانت تكتب على
مقابر الملوك والنبلاء : (أيها الأحياء فوق الأرض.. يا من تمرون بهذا
الضريح ... هل تحبون أن يرضى عنكم الملك ..؟ وأن تكونوا من
المقربين عند الإله العظيم ... قدموا ألف رغيف وألف قدر من جعة
للمقرب) ولعل هذا الدعاء يوضح مدى ابتزاز اللقمة الباقية من فم
الأحياء.

(5) تدهور التجارة،

بما لا شك فيه أن الموارد التي جلبها التجارة الخارجية من أهم أسباب
انتعاش الاقتصاد . وكان لمصر علاقات تجارية بغرب أسيا وجزر البحر
الأبيض المتوسط والجزر الآسيوية وليبيا وبلاذ بونت؛ وتوقفت التجارة
نتيجة للضعف الذي أصاب مصر بداء الشيخوخة، نتيجة شيخوخة
(بيبي الثاني) وجرات بعض الحضارات علي الانفصال كالنوبة وجرات
البلاد علي تهديد حدود مصر مثل (العناصر المأمورية) وانفصال
الدلتا - كل ذلك أدى إلي تدهور التجارة الخارجية.

(6) تفشى المجاعات؛

أن من أهم الأسباب التي عجلت بقيام الثورة وزادت من الاحتقان
الشعبي واختناقه من المسالك الملكية في الحكم هو نقص مياه

النهر والانقسام السياسي وفتيت الكتلة الزراعية المعتمدة علي الري،بالإضافة إلى كون نقص مياه النيل أو عدم انتظام الري عاملاً أساسياً للمجاعة في الفترة الانتقالية الثانية.ويبادر حكام الأقاليم بالتباهي بحماية أقاليمهم،حتى الفلاح في بيته،والأمثلة علي ذلك كثير.يقول (عنج- تيفي-حاكم نخن البصيلية : "ماتت مصر العليا من المجاعة حتى لياكل الرجل بنيه.. ولم يميت أحد جوعاً بإقليمكم". وأما (ايتي)حاكم الجبلين يسجل في لوحاته فيقول: "قد كنت أجلب الطعام في سنوات الجذب .. وقد بلغ عدد الجياع ٤٠٠ رجل .. ولم اغتصب ابنه رجل .. ولم استول علي حقه .. وجعلت كل عشرة قطعان من الغنم تحت إدارة الرجل للقطيع ...وربيت قطيعين من البقر وقطيعاً من الحمير ... وأكثر من تربية البهائم الصغيرة من كل الأنواع.... وبنيت ثلاثين سفينة وأعقبتها بثلاثين أخرى ولما اكتفت (الجبلين) أرسلت القمح إلي المناطق المجاورة بحيث اتسع حجم المدد لدرجة أنه لم يعد هناك احد فوق أو تحت (الجبلين) بحاجة إلي مساعدة الأقاليم الأخرى".

وكذلك تفاخر حاكم أسيوط (خيتي الأول) فقال: " كان لدي حبوباً كثيرة؛ وعندما دعت الحاجة إليها وزعتها علي المدينة ...وسمحت لكل مواطن أن يحمل الحبوب لنفسه وزوجته .. وكذلك فعلت مع الأرملة وابنها .. وأكملت كل نقص لم يكن مستوفياً من عهد أبائي".

كذلك ما ورد في حديث الفلاحين لأسرته (حقا - نخت) حيث قال: "

مصر كلها في مجاعة وانتم لستم جياعا عندما رحلت للجنوب ربت لكم أمر المؤمن جيدا جاء الفيضان الآن (وتقع جدا) انظروا التموين يجذده حال الفيضان، اصبروا أيها الناس انظروا أنني حتى اليوم بعيد عن داري لأطعمكم" ثم يتابع فيقول: " نصف حياة خير من الموت، انظروا بدؤوها يأكلون البشر هنا، إن المؤمن التي أرسلت إليكم .. لا يحصل عليها غيركم .. فالتزموا السلوك الحسن وقووا قلوبكم واصبروا حتى النصر."

• أحداث الثورة ومراحل قيامها:

مرت ثورة الجياع في عصر الفراعنة بعدة مراحل .. أمكن رصدها فيما يلي:

الفترة الانتقالية الأولى :

أطلق المؤرخون على هذه الفترة عصر اللامركزية (عصر الفوضى الأولى) الذي امتد من ٢١٨١ إلى ٢٠٤٠ قبل الميلاد.. ومثلت الأسرة السابعة والثامنة أكثر عصور اللامركزية إظلام.. ولا يزال والمؤرخون مختلفين في تحديد زمنها، والراجح أن الأسرة السابعة قد استمرت ثماني سنوات، بينما استمرت الثامنة ثلاثة عشر عاما.. وأول ملوك الأسرة الثامنة (نفر كارع الثاني) وعلي أي حال لقد صورت برديتي (ايبور) و (نفرتي) حالة البلاد بعد انهيار الأسرة السادسة .

ولقد أصاب الخلط توائم أسماء الملوك بتاريخ (مانيوتي) ويصعب ذكر أسماء ملوك الأسر. وعلي الأرجح أن ملوك الأسرة السابعة هم (نثر-كاد-رع)، (من-كا-رع)، (نفر-كا-رع)، (نفر-كا-رع-ني)، (جد-كا-رع-شماي)، (نفر-كا-رع-حندو)، (مر-ن-صور)، (سنفر-كا) ويقال أنهم بلغوا سبعين ملكا وحكموا سبعين يوما وهذا نتاج خلط الأسر في هذه الفترة وأسماء الملوك.

ومن ملوك الأسرة الثامنة الذين تمسكوا بالتقاليد وحكموا لفترات صغيرة وضعفت قبضتهم علي البلاد. فعادت إعفاءات معابد الآلهة مثل معبد الإله (مين) في عهد (واج-كار-رع)، (نفر-رع-كاو-صور) وهبات حاكم (فقط) وفي نهاية عصر الأسرة الثامنة أنتج الضعف تقسيم البلاد إلي: الآسيويون في الشمال)، (والحكم في إهناسيا) (وحكام طيبة).

الأسرة التاسعة ونقل مركزية الحكم :

في ظل هذه الفوضى العارمة التي عمت البلاد تمكن الملك (خيتي) حاكم الإقليم العشرين في صعيد مصر من تأسيس الأسرة التاسعة.. بعد أن اتخذ من إهناسيا عاصمة له، ونقل مركز الحكم من منف؛ وبمأسا عده علي ذلك أن إهناسيا التي تقع علي بعد ٥٥ ميل من جنوب منف كانت عاصمة ملوك الوجه القبلي قبل توحيد البلاد، كما أنها من الأماكن المقدسة؛ حيث ارتبطت بآلهة (ناسرع اون) واتخذ (خيتي) لنفسه القاب مثل (حبيب ارض الأرضيين) و(حبيب قلب رع) .

ويقول عنه مانيتون (انه كان جبارا عنيفا يفعل الشر.. مخبولا قاسيا ذا فراسة.. في نهاية الأمر كان رمزه التمساح ح..وهو الشخصية الأبرز في تاريخ هذه الأسرة..ولم يكن يسيراً التعرف علي غيره لضعف قبضة أيديهم علي الحكم واختلاط أسمائهم.

الأسرة العشرة امتداد التاسعة:

أكدت بردية (نورين) أن ملوك اهناسيا كان يمثلون أسرة واحدة، تكونت من ١٨ ملكا ..وعلي الرغم من ذلك نجد في تاريخ (مانيتون) أنه انهي الأسرة التاسعة ليبدأ العاشرة التي من ملوكها (مري حنحور)،(نفر-كاو-رع)

حصار الثورة وثمار التمرد:

رغم ما جناه المصريون من مخاطر وتضحيات جراء ثورتهم الاجتماعية الخالدة، التي استهدفت أمن الإنسان المصري وحقه في العيش الكريم . فكما ذاق المصريون في عهد ملكيهم المتّيب "ببى الثاني" ويلات من سحل الكرامة وذل العبودية .. وتدنى لقمة العيش تحت وطأة حاكم غافل قد شاخ على كرسي الإلهوية الضالة، فجرع المصريون إبان الثورة كؤوساً من مرارة الإحساس بغيبة الأمن وأصبح حق الإنسان في البقاء على قيد الحياة محض وجهة نظر تقررهما المصلحة ويحكمها الأقوى والأكثر بلطجة.. إذ أصبح الكريم ذليلاً وصار الذليل سيداً وبين هذا وذاك تقوضت أركان الدولة وسقط نظام الحكم..

ورغم كل هذه المعاناة الإنسانية المريرة كان لثورة الكرامة حصادها الإيجابي، الذي ربما لم يشهده صانعو الثورة وضحاياها .. بل شهدتها جيل جديد نبت على دماء هؤلاء الفوارس الذي تجشّموا عناء التجربة وشربوا كؤوس المخاطرة.. جيل جديد نبت ليعيش فى مجتمع مغاير.. يقدس قيمة الفرد وليس الحاكم.. مجتمع يعظم المسؤولية الراعى والرعية .. مجتمع يحكمه المساواة المجردة أما المحاكم الإلهية.. مجتمع جديد تغيّرت فيه التشكيلة الطبقية للمجتمع الفرعونى.. فلم يعد المجتمع ينقسم إلى آلهة وعبيد .. وأسياد وأفنان .. ولم تعد العزة فقط للحاكم الإله.. بل صارت العزة للجميع ... وهنا أخرى بنا أن نلخص ما أفضت إليه تلك الثورة من نتائج فيما يلى:

(١) المساواة :

يعد تطبيق مبدأ المساواة فى الحقوق والواجبات أهم ما أسفرت عنه ثورة الجياع إبان ذلك العصر الملكى البائد .. إذ تمكن المصريون - نظرياً- أن يقفوا على قدم المساواة أمام المحاكم الإلهية، ليثبت كل فرد حقه فى الخلود، فزاد اعتزاز المصري بكرامته، وأصبح لديه وعى بحقوقه وواجباته .. وسقطت الهالة المقدسة للحكام .. وبات المجد مقصوراً على استقامة الفرد وتقواه ...

(٢) كسر هيمنة الطوطم الدينى :

لم تكن من ثورة الجياع التي قام بها المصريون خلال الأسيرة السادسة من العصر الفرعونى ثورة على حاكم فاسد يدعى "ببى الثانى" فحسب .. بل كانت ثورة على نظام حكم مستبد، امتد

فى المجتمع الفرعونى عبر حقه المتتابعة .. نظام حكم قام على تأليه الحاكم، وتنزيهه عن الخطيئة.. وإقصاءه عن المساءلة ؛ ومن ثم فقد نجحت هذه الثورة وتلكم الثوار البواسل إذ أنزلوا الملك من كرسي الربوبية إلى مقاعد البشر.. فصار الملك فى نظر رعاياه بشراً يخطئ ويصيب ويلقى عليه اللوم وتصح فيه المعاتبة.وقلد رأينا كاتب عاتب الحكيم "أيبور" الملك فى بردياته واتهمه بأنه المسئول الأول عن الفوضى التى تفشت فى البلاد... لو أنه قد أحاط نفسه ببطانة فاسدة كاذبة .. وتمنى له أن يتجرع من كؤوس البؤس الذى ذاقه الشعب على يديه.. وبيت القصيد فى ذلك، أن الثورة دفعت إلى التجرد على الطوطم الملكى الذى لم يكن يتجراً أحد على نقاشه ..وإلقاء اللوم عليه على مدار العصور الفائتة التى سبقت ذلك الحاكم المستبد.

(٢) تغيير التشكيلة الطبقية؛

وكما قلنا آنفاً .. أن هذه الثورة قد أحدثت تغييراً فجاً وربما جذرياً فى التركيبة أو التشكيلة الطبقية للمجتمع الفرعونى آنذاك .. إذ أوجدت الثورة طبقة جديدة لم تعهدها السوسولوجيا الفرعونية من قبل.. حيث ظهرت الطبقة الوسطى التى تمثل أفرادها بالطبقة العليا .. وأطلقوا على أنفسهم (أهل البلد) .. وتغيرت ملامح السوسولوجية فى المجتمع الفرعونى بعد ظهور طبقة العمال (البروليتاريا) .. ومن ثم فقد انقسم المجتمع الفرعونى إلى ثلاثة طبقات هم الطبقة الارستقراطية-الطبقة البرجوازية- وطبقة

العمال والفلاحين. وهذا التقسيم لم يكن موجوداً من قبل؛ مما أحدث حالة من التوازن الاجتماعي في ذلك العصر.

وسجل بعض المؤرخين هذه الثورة وكتبوا عنها واختلفوا على تصنيفها .. هل ثورة سياسية ..؟ أم ثورة اجتماعية ..؟ بيد أن (موريه) عرفها بأنها: (ثورة اجتماعية وسياسية استهدفت محاربة الأوضاع القائمة في عهد الأسرة السادسة) ... وقال (جون ويلسن): (أن هذه الثورة أنزلت الملك إلى منزلة البشر العاديين). وأن كنت أصر على تسميتها بالثورة الاجتماعية لما قمله من معان وأهداف اجتماعية بالطراز الأول أو لكون دوافعها اجتماعية خالصة .. وإن كانت بعض نتائجها كانت سياسية ...

• ثانياً: الثورة العمالية الأولى؛

في عهد رمسيس الثالث قام عمال الجباية الملكية في دير المدينة بأول إضراب في التاريخ تحت شعار (نحن جوعى)، وطالبوا بلقمة العيش والحق في الحياة الكريمة .. حيث ورث رمسيس الثالث عن أبيه (سن نخت) الهمّة والنشاط ويعتبره (مانيتون) المؤسس الحقيقي للأسرة العشرين . ويرى (مانيتون) أن رمسيس الثالث كان من أواخر الفراعين العظام أمثال (رمسيس الثاني) .. حيث أنه اتخذ (رمسيس الثالث) رمسيس الثاني مثلاً له .. ولقب بألقابه .. وتكهن بكنياته .. واستطاع أن يدفع عن مصر الأخطار الجسيمة لحماية حدودها .. وسجل انتصاراته على جدران معبده (هابو) حيث جاء في بردية (هاريس) نص ما سجله رمسيس على جدران معبده .. فكتب

يقول: (لقد زرعت كل أراضي مصر بالأشجار والخضرة وتركت الناس يستمتعون بظلها لقد جعلت أي امرأة تسافر بأمان وبدون خوف إلي أي مكان تريده...)

وعلي الرغم من عظمة هذا الفرعون إلا أن هناك إشارات لضعف قبضته علي الحكم ولا سيما في السنوات الأخيرة من حكمه نظراً لكثرة الحروب التي خاضها؛ والتي أثرت بشكل كبير على خزانة الدولة.. ففي عهده جاء غزاة على مصر قادمين من جزر البحر الأبيض المتوسط كل من الشيكل (صقلية) والشكلش دنان والمشواش وغيرهم من أصحاب الجزر ومعهم الفلسطينيون للاستيطان في مصر وسوريا وكسر رمسيس الثالث شوكتهم. وفي العام الحادي عشر من حكمه أراد الليبيون الثار لهزيمتهم ودخل رمسيس الثالث معهم في حرب مطولة أنهكت الاقتصاد المصري ..

ولم تكن الحروب وحدها هي من أنهكت الاقتصاد المصري وإفلاس خزانة الدولة.. بل اتسم عهد رمسيس الثالث بكثرة البناءات التي تمت في عهده .. فقد شهد عصر رمسيس الثالث نهضة معمارية كبيرة.. حيث أقام معبد (لإقامة شعائر أمون) علي غرار (الرمسيون) الذي بناه رمسيس الثاني وكذلك معبد الاحتفالات بأعياد أمون بجوار الكرنك ومعبد الإله (بتاح). بما أثر كثيرا على خزانة الدولة إلي جوار الانتقال إلي عصر الحديد .. وهو عصر اقتصادي جديد.. ولم تكن مصر تملك مصادرة ومن ثم كان عليها شراءه بما أرهق ماليات البلاد وأضعفها.

وأضيف إلي الحروب وكثرة البناءات المنح والهدايا التي كان ينفقها

الملك على الأمراء .. والتي كانت تمثل عبئاً إضافياً ثقيلاً على خزانة الدولة.. حيث أشارت بريدية (هاريس) أن مجموع ما امتلكه معبد أمون ١٠٪ من أراضي مصر وبه من الخدم (٨٦٤٨٦) خادماً ومن الماشية (٤٢١٣٦٢) رأساً وأرغفة تقدم في الأعياد (٢٨٤٤٣٥٧) رغيفاً ومن الطيور (١٢٦٢٥٠) ومن اسر الأجانب (٢٦٠٧) لأمون فما حال بقية المعابد ؛ وسارت الأحوال في مصر في عهد رمسيس الثالث عبارة عن كهنة يكسسون الأموال، وعمال جوعي .. ومخازن المعابد كانت مكدسة بالأموال .. ومنازل العمال باتت فارغة من الطعام .. وأعلن العمال جوعهم أمام كهنة المعابد .. وبخاصة معبد (مرمبتاح)، فأرسل لهم عمدة المدينة ما يسدوا به خلتهم .. فشكاة كبير كهنة أمون (أنه أخذ بدون وجه حق) من معبد رمسيس الثاني .. ووصف ما فعله العمدة بأنه (جريمة كبيرة).

ورغم ما تعرض له العمال من جور على الحقوق X بيد أنهم كانوا يؤمنون بأن العمل الفرض والأجر حق .. فلم يؤثر حرمانهم من الأجور على جودة الأعمال التي كلفوا بالقيام بها .. ففي (دير المدينة) مدينة العمال التي كان يسكنها الفنانون والنحاتون والحجارون الذين عملوا في الأسرة التاسعة عشرة والعشرين في خدمة الجبانة حيث القبور. نجد نموذجاً صارخاً للعمل المتقن .. فنجد في في الساحة السفلية للمقبرة تشاهد أقسى أنواع الصخور .. فهناك قرابة ٢٣٠ قدماً عن طريق ممرات وسراديب تغطي جدرانها وصور تمثل الملك في حضرة الآلهة والمناظر الدينية الأخرى.. ويلتصع سقف المقبرة بصور للإله (نون) وجنوم السماء.

وعلي الرغم من ظني أن العمل كانت تدفع إليه روح التبرك والتقرب إلى الإله..إلا انه كان عملاً شاقاً جداً ومهيناً للقوي، وأي عمل أكثر قسوة من ذلك ..وكانت أجورهم عبارة عن تلك الجرايات التي لا تكفى إلا لما يحمى فقط عيالهم من الجوع.

وعندما اشتدت وطأة العمل الشاق وقلت الجراية تمرد العمال.. واجهوا نحو المعابد الجنائزية الكبرى مثل (قتمس الثالث) (مرمبتاح) (رمسيس الثاني) (رمسيس الثالث)؛ احتجاجاً علي سوء أوضاعهم.. وحسب نص بردية الإضراب. ينقل "هاريس" شكوى العمال ومطالبهم فيقول: "ليس لدينا ملابس ولا زيت ولا سمك ولا خضر .. أرسلوا للفرعون سيدنا العظيم هذه الشكوى .. أرسلوها أيضاً إلي سيدنا الوزير..حتى يمدنا بما نعيش به ..إننا سنجلس هنا حتى جاب مطالبنا...."

فقد هدر صوت العمال الجوعى كالشلال.. وانهالوا علي سكرتير الأمير (ياسر) المهيمن علي مصلحة العمل في حكومة طيبة ولما خرج إليهم صرفوا... إنا مسوقون هنا بدافع الجوع والظماً..فليس لديهم الطعام ولا الملابس .. وكتبوا للفرعون يشرحون حالتهم ويبلغونه مطالبهم .. فلما وصل صوتهم واشتدت ضغوطهم وعدهم الأمير بخمسين كيساً من القمح يرسلها إلي عملهم.. وهكذا عبر العامل المصري عن غضبه وثار لكرامته وأصبح الإضراب سلاحاً يستخدمه العامل المصري للدفاع عن حقوقه وكرامته منذ ذلك اليوم.

الفصل الثاني

البطالة والرومان

الطريق إلى آلهة الطعام

الحاكم الضعيف مصدر قوي للفتنة، فكما
ضعفت شخصية الحاكم وقلت قدراته،
كلما كان ذلك مدعاة لقوة الحاشية وسبيلا
لانتشار الفساد الذي يفضي للمجاعة ويقود
إلى الفوضى.

تهيئة:

عاشت مصر في أواخر العصر الفرعوني فترة من الاضطراب وعدم
الاستقرار وتوالى عليها الغزاة من كل جانب طمعا في خيراتها وقد
ساعدتهم على ذلك ضعف سلطة الملوك الفراعنة وكثرة الخلافات
والصراعات الداخلية خاصة بين السلطة الدينية والسلطة الزمنية
فاستولى الأثيوبيون على مصر لكن الأثيوبيين لم يصمدوا طويلا
أمام هجمات الآشوريين، الذين تمكنوا من طردهم واجتلال مصر عام
170 ق م. مكث الآشوريون في مصر إلى أن تمكن أحد ملوك (ساييس)
من طردهم وتكوين أسرة فرعونية جديدة .

وفي أثناء هذه الصراعات الداخلية والخارجية التي جعلت البلاد
تضطرب وتموج كموج البحر كانت دولة الفرس قد بدأت تظهر في

الشرق بعد أن أخضعت آشور وبابل وآسيا الصغرى لحكمها ثم أرادت أن تتوج فتوحاتها باحتلال مصر وتم لها ذلك عام ٥٢٥ ق م. وبذلك انعقد لواء الزعامة في الشرق لدولة الفرس، إلى أن قضى عليها الإسكندر المقدوني في أواخر القرن الرابع قبل الميلاد. فطردهم من آسيا الصغرى، وتمكن من الاستيلاء على المدن الفينيقية واحدة تلو الأخرى. ومنذ ذلك الوقت بدأت الثقافة الإغريقية تتسرب إلى الشرق عامة، وإلى مصر خاصة .. بعد أن ضمها الإسكندر إلى إمبراطوريته عام ٣٣٢ ق.م.

ويرى بعض الباحثين أن الإسكندر الأكبر دخل مصر دون مقاومة من جانب المصريين بعد أن استغل بذكائه السياسى ذلك الصراع المرير الذى نشب بين الفرس والمصريين عندما حاول الفرس أن ينشروا ثقافتهم ومعتقداتهم الدينية على حساب الحضارة المصرية. ومن ثم فقد نظر المصريون إلى الإسكندر الأكبر باعتباره المنقذ لهم من فسوة وهمجية الفرس؛ فاستقبله المصريون استقبالا الأبطال، ومهد لهذا الاستقبال جماعات الإغريق التى كانت تقيم في مصر في ذلك الوقت والتى كانت متحالفة مع المصريين ضد الفرس .

ومن اللحظة الأولى عمل الإسكندر على استغلال معتقدات المصريين الدينية لتوطيد مركزه وحكمه في مصر فسارع إلى تقديم القرابين إلى الآلهة المصرية في منف، وتوج نفسه في معبد (بتاح) على غرار ما كان يفعل فراعنة مصر. وبعد أن أسس مدينة الإسكندرية، قام الاسكندر بزيارة (معبد آمون رع) في واحة سيوة،

وكان هدفه من تلك الزيارة أن يثبت نسبه إلى الآلهة المصرية، وأن يحصل على تأييد الإله آمون لطموحاته التوسعية التي كانت ترمى إلى بسط سيادته على العالم .

وبعد أن ضمن الإسكندر تأييد الشعب المصري له؛ انطلق بجيشه لكي يتابع حربه ضد الفرس وتمكن من هزيمة الجيش الفارسي هزيمة ساحقة في موقعة (أريلا) عام ٣٣١ ق م واستمر في فتوحاته الكبرى بغية نشر الثقافة والحضارة الإغريقية في العالم كله، ولكي يشبع في نفس الوقت عقدة العظمة اليونانية إلى رسخها في ذهنه أستاذه ومعلمه الفيلسوف " أرسطو " فاستمر في فتوحاته حتى إقليم " البنجاب " في الهند ثم عاد إلى بابل عام ٣٢٣ ق م .

وبعد وفاة الإسكندر الأكبر.. بدأ النزاع بين قواده في تقسيم الإمبراطورية المقدونية، وانتهى الأمر بعقد اتفاقية في بابل تم بمقتضاها تقسيم الإمبراطورية إلى ثلاثة أقسام : أحدها في أوربا حيث انتقلت مقدونيا إلى (أنتيجونوس) والثاني في آسيا حيث خضع معظم أجزاء الإمبراطورية الفارسية السابقة لحكم (سلبوقوس) والثالث في أفريقيا حيث تولى (بطليموس بن لاجوس) حكم مصر عام ٣٢٣ ق م . وفي عام ٣٠٥ ق م أعلن بطليموس نفسه ملكا على مصر وأسس بذلك أسرة ملكية توارثت عرش مصر على مدى ثلاثمائة عام، وكان آخر ملوك هذه الأسرة الملكة كليوباترا.

وعلى الرغم من عقدة العظمة اليونانية التي كانت تتمثل في الاعتقاد بسمو الثقافة والحضارة اليونانية، لم يحاول البطالمة فرض

حضارتهم ولا ثقافتهم على المصريين؛ لأن المصريين كانوا يعتزون بتقاليدهم الموروثة التي تنظم حياتهم العامة والخاصة. وكذلك لأن البطالة كانوا يرون أيضا من ناحية أخرى ضرورة كسب ولاء المصريين؛ ليضمنوا دوام سلطانهم ورسوخ سيادتهم .

ورغم حرص البطالة على التشبه بالأعراف والتقاليد المصرية في الحكم، إلا أن هناك من المؤرخين من يرى أن حكم البطالة كان مشربا بروح مختلفة عن حكم الفراعنة؛ إذ أن الفراعنة كانوا قبل كل شيء مصريين. فمهما كان نوع الحكم الذي اتبع في عهدهم فإن مصالح العائلة المالكة لم تختلف عن مصالح الشعب المنتمة إليه. وذلك بعكس ملوك البطالة فقد كانوا إغريق مقدونيين أي أجانب عن الشعب المصري. ولذلك قدموا مصالحهم على مصالح الشعب فأخذوا في استغلال خيرات البلاد لحسابهم، وعملوا على الحصول على أكبر قدر من الأموال من أهاليها .

ومن ثم فإن مصر ظلت تحت الحكم الفرعوني ما يقرب من ثلاثين قرنا من الزمان. أي منذ أن توحدت البلاد سياسيا وإداريا ودينيا على يد الملك مينا (مؤسس الأسرة الأولى) حوالي عام ٣٢٠٠ ق م إلى أن فقدت مصر استقلالها وخضعت لحكم الإسكندر المقدوني ٣٣٢ ق م وظلت تحت سيطرة الإغريق حتى عام ٣١ ق م حيث خضعت للحكم الروماني . ومن أهم الأجناس التي سكنت مصر في العصر البطلمي اليهود والفرس .. أما "اليهود" فالراجح من أقوال الباحثين أنهم وفدوا إلى مصر عام ١٦٥٠ ق م؛ بسبب ما حل بأرض كنعان من جدد وقحط. وكان

ذلك أثناء مهاجمة الهكسوس لمصر. وعاشنوا بها، ووصل بعضهم إلى مناصب كبرى في الدولة المصرية، كيوسف عليه السلام الذي تولى منصب رئيس الخزانة الذي يعادل وزير المالية حالياً.

وقد تمتع اليهود بعدد من الامتيازات والحقوق، التي لم يتمتع بها المصريون أصحاب البلاد الأصليين بما يجعلهم في المنزلة التالية للإغريق مباشرة. كما عملوا في الجيش البطلمي، واشتغلوا بالتجارة وبعض المهن، وانتشروا في كل ربوع مصر إلا أن أكثرهم كانوا بالإسكندرية.

وقد عامل البطالمة اليهود معاملة أفضل من المصريين، واعترفوا لهم بحق تكوين جاليات مثل الجاليات الإغريقية، التي تمتعت بقدر كبير من الاستقلال الذاتي، ويديرها مجلس مكون من شيوخها، واعترفوا لهم بحرية العقيدة وحرية ممارسة التجارة، وتملك الأراضي ملكية فردية تامة. كما كان لهم حق تطبيق شريعتهم والتفاضي أمام المحاكم الخاصة بهم .

أما "الفرس" فقد دخلوا البلاد عندما احتل الفرس مصر عام ٥٢٥ ق م. بعد أن هزم الجيش الفارسي الآشوريين وطردوهم منها. إلا أن الإسكندر الأكبر المقدوني استطاع عام ٣٣٢ ق م أن يهزم الفرس ويضم مصر إلى الإمبراطورية الإغريقية، لكن بعض الفرس بقوا بمصر ولم يخرجوا منها حتى بعد احتلال الإغريق لها، وجندوا بالجيش البطلمي وتمتعوا بامتيازات طبقة الجنود .

أولاً- طبيعة الحكم والمسمار الأول فى "النعش" :

بالرغم من وجود عديد من الأدبيات التى تكشف عن تقارب أنظمة الحكم البطلمى من الحكم الفرعونى، وأن الأولى حاولت قدر المستطاع السير على قدم الثانية، بيد أن هناك أدبيات أخرى، تبين أن ثمة فوارق كبيرة فى طبيعة الحكم بين النظامين. ومحاولة البطالة تكريس ثقافة سياسية جديدة، تضمن لهم البقاء الأبدى فى الحكم.. غير أن هذه الطبيعة نفسها كانت المسمار الأول فى نعش الحكم البطلمى.

١. الأساس الدينى للسلطة :

ولما كان البطالة قد حرصوا على التشبه بالثقافة الفرعونية، فقد وصل بهم هذا الحرص إلى درجة التشبع؛ حتى أنهم تصوروا أنفسهم الورثة الشرعيين لعرش الفراعنة؛ لذلك كان كل ملك بطلمى يتولى العرش يعتبر نفسه "فرعونا" وبصفته ابناً للإله "رع". ويتخذ الألقاب والأسماء التقليدية التى كان يحملها ملوك مصر السابقين.

ورغم أن نظام الحكم البطلمى لمصر كان يقوم على نفس الفلسفة التى قام عليها نظام الحكم فى العصر الفرعونى وهى نظرية "الحق الإلهي" المطلق. بيد أن اختلاف المقاصد والأهداف؛ أدى إلى اختلاف الوسائل. فلما كان الفراعنة من أبناء شعب مصر كان هدفهم الرئيسى تحقيق رفعة البلاد ورفاهية الشعب، وكانوا - رغم استبدادهم- يتقيدون بضوابط العرف والتقاليد والدين وبعض

القواعد القانونية. لكننا نجد على الجانب الآخر.. أنه لما كان الحاكم البطلامي ليس من أبناء شعب مصر وهو غريب عنهم؛ فقد كان نظام الحكم لديهم نظاما استبداديا بحتا. بإرادة الملك كانت مطلقة وغير مقيدة. لا من حيث الغايات ولا من حيث الوسائل، وكان الهدف من أتباعهم لفلسفة "الحكم المطلق" المؤسس على فكرة الحق الإلهي المطلق هو تحقيق مصالحهم الذاتية. ووضع أيديهم على جميع ثروات البلاد وخيراتها. وكذلك استخدام هذه الفكرة لتبرير نظام وراثة العرش، وحصر السلطة داخل أفراد الأسرة الملكية.

وفى هذا السياق تشير الأدبيات التاريخية إلى أنه قد جرت العادة بأن يحمل كل الملوك البطالمة عند توليهم عرش مصر "اسما إلهيا". وأن تقام لهم المراسم اللازمة لإضفاء الطابع الإلهي عليهم؛ وبذلك يرتفعون إلى رتبة الآلهة، وتقام لهم العبادة شأنهم فى ذلك شأن أسلافهم الفراعنة .

٢- وراثة العرش :

إن أسوأ ما أخذه البطالمة عن أسلافهم الفراعنة هو وراثة العرش. فكان يرث العرش أكبر الأبناء من الذكور الذين فإذا لم يكن للملك وريث شرعي من الذكور فإن السلطة تؤول إلى الأميرات، بشرط أن يتزوجن من أقرب أقاربهن . والواقع أنه ليس البطالمة وحدهم من أخذوا هذه العادة الاستبدادية السخيفة.. وإنما تناقلتها كافة الأنظمة الاستعمارية التى غزت مصر.. حتى العصر الحديث.. وربما كانت هذه العادة سببا كافيا لثورة الشعب المصري على مدار عصور مختلفة .

٣- سلطات الملك :

حظي الملك في العصر البطلمي بسلطات واسعة قد خولها لنفسه، وربما تجاوزت السلطات التي خولها الشعب المصري لألهته في العصر الفرعوني. فقد كان الملك في العصر البطلمي هو رئيس الدولة الذي يمثلها في علاقاتها بالدول الأخرى، ويملك سلطة إعلان الحرب وعقد المعاهدات ويستقبل وفود الدول الأجنبية وسفرائها . ويملك السلطة التشريعية، وهو الوحيد الذي يستطيع إصدار قوانين يخضع لها سكان البلاد جميعا، وكان الملك يمارس السلطة التشريعية عن طريق ما يصدره من قوانين وقرارات ومراسيم، وأوامر عامة وخاصة لتنظيم الشؤون المالية والاقتصادية والإدارية والقضائية، وغير ذلك من المسائل التي تدخل في إطار القانون العام .

وهو وحده صاحب السلطة التنفيذية، ويأمر بأمره جميع موظفي الدولة، ويتولى تعيينهم وترقيتهم ومساءلتهم وتأديبهم وعزلهم، ولم يكن الملك في كل ذلك يخضع لأي قيد من القيود بل كان يتصرف وفقا لإرادته الحرة، ودون تدخل أو فرض من أي فرد أو جهة. وكذلك فقد كان الملك هو وحده مصدر العدالة في البلاد، وصاحب السلطة القضائية، وكان له بهذه الصفة النظر في التظلمات التي ترفع إليه من الجهاز الإداري في الدولة، بل كان أحد أبواب القصر الملكي بالإسكندرية يسمى "باب الأحكام" وهو مخصص لتلقى هذه التظلمات .

كما كان الملك أيضا يملك سلطة تنظيم الشؤون الدينية. إذ كان له - باعتباره إلهاً- عبادة خاصة. يشترك في أداء شعائرها المصريون

والأجانب على السواء. كما كان للملك سلطة على الكهنة والمعابد باعتباره الرئيس الديني للعبادة العامة. كما كان الملك يعتبر الوظائف الدينية ملكا له. يبيع منها ما يشاء ويوزع منها ما يشاء على من يريد، مع تقرير رواتب لشاغليها.

وهكذا نرى أن الملوك البطالمة قد أحكموا قبضتهم على البلاد. عن طريق تركيز جميع السلطات في أيديهم؛ فبالرغم من الأساس الديني الذي اتخذ منه نظام الحكم البطلمي سندا لوجوده وبقائه؛ فإن البطالمة لم يتركوا الأمر لرجال الدين والكهنة، بل أخضعوهم لسلطانهم، وجعلوهم مجرد تابعين للسلطة الملكية. يتصرفون وفق ما يصدر إليهم من أوامر وتعليمات. وبذلك قضى البطالمة على أي احتمال لتمتع رجال الدين بنفوذ يصل إلى ما كان عليه الحال في العصر الفرعوني .

وفي بداية حكم الإغريق لمصر.. نجد أن إلهية الملوك البطالمة لم يكن معترفا بها إلا لدى المصريين .. أما بالنسبة للرعايا الإغريق، فقد ظل البطالمة مجرد ملوك عاديين، أي من طبيعة بشرية. غير أن هذه الازدواجية في الطبيعة "أي كون الملك إلهاً في نظر المصريين، ومجرد زعيم بشري في نظر الإغريق" لم تكن لترضى البطالمة، حيث أخذهم الغرور إلى إجبار أبناء جلدتهم للاعتراف بهم كآلهة؛ لذا فقد سعوا إلى كسب صفة الألوهية في نظر الإغريق أيضاً، مستعينين في سبيل تحقيق ذلك بالأعراف الإغريقية القديمة، التي كانت تدعو لعبادة "مؤسس المدينة" بعد وفاته. واستغل "بطليموس الأول"

ذكرى وفاة الإسكندر الأكبر واستعداد الإغريق أن يسبغوا عليه بعد وفاته صفات إلهية، وجعل من عبادته - أي الإسكندر- دينا إغريقيا رسميا في مصر يتولى الإشراف عليه أحد الكهنة من الإغريق . وعندما تولى "بطليموس الثاني" حكم مصر بعد وفاة أبيه.. سار على نفس الطريقة، ورفع أباه إلى مرتبة الآلهة. ولم يكن من الصعب على الإغريق تقبل فكرة تأليه بطليموس الأول؛ حيث أن البطالمة كانوا يعرفون في ثقافتهم فكرة تأليه موتاهم، الذين أسسوا "مدينة حرة" وبطليموس الأول لم يؤسس مدينة حرة فقط .. بل أسس ملكة عظيمة في الشرق.

ثم جرت العادة بعد ذلك بأن يحمل كل الملوك البطالمة عند توليهم عرش مصر اسماً إلهياً.. وأن تقام المراسم اللازمة لإضفاء الطابع الإلهي عليهم .. وبذلك يرتفع الحكم البطالمة إلى مصاف الآلهة، وتقام لهم العبادة شأنهم في ذلك شأن أسلافهم . إلا أن هذه الأسماء والألقاب المصرية التي كان يحملها الملوك البطالمة لم تكن تظهر إلا في الوثائق الصادرة عن الكهنة المصريين. أما الوثائق الإغريقية التي تم اكتشافها فإنها لا تتضمن إلا الأسماء والألقاب الإغريقية . وعمل البطالمة منذ بداية عهدهم على تشجيع الإغريق على الهجرة إلى مصر والإقامة بها للاستعانة بهم في إدارة البلاد والدفاع عنها، واستغلالها من الناحية الاقتصادية لكن الأمر لم يتوقف على الإغريق فقط إنما وجد بجانبهم أعداد كبيرة من الفرس و اليهود والسوريين والفلسطينيين ومن سكان شمال إفريقيا .

ولم يتبع البطالة سياسة واحدة فى التعامل مع كل هذه العناصر المختلفة من سكان مصر بل اتبعوا سياسة التمييز العنصري . وفى ذلك تمييز صارخ قامت عليه الحضارة الإغريقية؛ إذ تخلت عن فلسفتها المثالية التى أسس لها سقراط وأرسطو وأفلاطون فور غزوهم لبلدان أخرى .. وهذا ما جعلنا نقر بأن شعوبنا العربية لم تقرأ التاريخ جيداً .. وأن أبنائنا الثأريين على أنظمتهم الوطنية، ويسعون حرقاً وتدميراً فى بنياتهم الوطنية .. كان عليهم قبل أن يثوروا.. أن يقرأ التاريخ جيداً؛ ليتعلموا.. ويضعوا حدوداً واضحة لثورة؛ تصمن لهم سرعة الاستقرار وحميهم من طمع الطامعين.. وكان من حق المصريين فى العصر البطلمي التقاضى أمام المحاكم المصرية، التى تكون من قضاة مصريين وتختص بالمسائل المدنية والجنائية وتطبيق القانون المصري بعد أن تم تقنينه بعد عهد بوكخوريوس، وكذلك إبرام التصرفات القانونية طبقاً للقانون المصري وتوثيقها أمام موثقين مصريين .

ثانياً- النظام الإدارى البطلمي و"مسمار جديد"؛

استبقى البطالة معظم النظم المصرية القديمة الخاصة بالإدارة.. ولكنهم أدخلوا عليها بعض التعديلات الجزئية، التى تساعدهم فى إحكام قبضتهم على البلاد وعلى ثرواتها، وتضمن لهم تدفق الأموال على الخزانة البطلمية؛ لتخصيص هذه الأموال فى تمويل الجيوش والحملات التى تحمى الحكم البطلمي، وتمكنه من تحقيق أحلامه التوسعية وسيادة العالم .

كما احتفظ البطالة بالتقسيم الفرعوني لمصر إلى قسمين هما: مصر العليا ومصر السفلى. لكنهم عدلوا في حدودهما . بحيث أصبحت مصر السفلى .. تمتد من البحر المتوسط شمالاً حتى الفيوم جنوباً. أما مصر العليا .. فقد أصبحت تمتد من ممفيس شمالاً حتى الفيلة جنوباً .

وقد اعتمد البطالة على الإغريق وحدهم في إدارة البلاد، وجعلوا الوظائف المدنية المهمة ووظائف الجيش وقفا عليهم. أما المصريون فكانوا يتولون فقط الوظائف الصغرى والكتابية، واضطروا إلى تعلم اللغة الإغريقية؛ ليستطيعوا التعامل مع رؤسائهم من الإغريق . كما عرف التنظيم الإداري في مصر في العصر البطلمي شكلين من أشكال الإدارة في وقت واحد هما: الإدارة المركزية والإدارة المحلية .

ففي المجتمع البطلمي تركزت جميع مظاهر السلطة من تشريع وقضاء وسلطة تنفيذية وسلطة تنظيم للشئون الدينية في شخص الملك البطلمي ب؛ اعتبره إلهاً .. وكان كذلك الرئيس الأعلى لكافة الإدارات الحكومية. واستعان الملك بعدد من الموظفين في تسجيل أوامره وقراراته ومراسلاته السياسية والإدارية، بالإضافة إلى مساعديه الرئيسيين في تنفيذ أوامره.. والقيام بما تتطلبه إدارة شئون البلاد .

كما كان الملك يختار أغلب مساعديه من رجال البلاط الملكي .. وكان من أعراف البطالة وعاداتهم تربية عدد من أبناء الموظفين والأسر الكبيرة مع أبناء الأسرة الملكية؛ ليختاروا بعد منهم كبار الموظفين؛

بما أدى إلى إيجاد طبقة شبه أرستقراطية فى المجتمع . وكذلك وضع الملك على رأس كل إدارة من الإدارات الرئيسية موظفا كبيرا يمثله ويكون مسئولا عنها . ومن الواضح أن المصريين المستعمرين - رغم استكانتهم- بيد أنهم لم يتمكنوا من كسب ثقة البطالة .. وكانوا طول الوقت من المغضوب عليهم.. فقد كانوا أول من يعمل، وآخر من يأخذ فى الحصاد..

وكانت إدارة المالية أهم الإدارات الرئيسية فى عصر البطالة .. وكان من يتولى رئاستها يتمتع بمكانة كبيرة فى البلاط الملكى وفى حياة مصر العامة. حيث كان يشرف على تنفيذ الخطة الاقتصادية، بما تتضمنه من إشراف على استغلال الأراضي الزراعية والنشاط الصناعى، وتحصيل الضرائب والإشراف على كافة إيرادات خزنة الملك (الخزنة العامة) .

وفى العصر البطلمى كان يوجد موظف كبير تتشابه اختصاصاته مع اختصاصات وزير العدل فى العصر الحالى يختص بشئون العدالة وتعيين القضاة، وكان يرأس المحكمة العليا بالإسكندرية . كما كان يوجد ما يسمى وزير الأشغال مهمته الإشراف على الإنشاءات العامة وشق الترع وبناء الجسور وصيانتها و الإشراف على إنشاء القصور والمعابد والمباني الحكومية . وكذلك وجد فى العصر البطلمى ما يشبه وزارة الحربية الآن؛ وكانت مهمتها الإشراف على إعداد الجيوش وتدريب الجنود ودفع مرتباتهم .

قولنا فيما سبق أن البطالة قد احتفظوا بالتقسيم الفرعوني

لمصر إلى قسمين كبيرين هما: مصر العليا ومصر السفلى، لكنهم
غيروا في حدودهما. حيث أصبحت مصر السفلى .. تمتد من البحر
الأبيض شمالاً حتى مدينة الفيوم جنوباً وقيل حتى مدينة هرمو
بوليس "بالقرب من مدينة بني مزار حالياً". وكذلك استبقى
البطالة أيضاً التقسيم الفرعوني القديم، الذي بمقتضاه قسم كل
من قطري البلاد إلى أقاليم، ثم قسمت الأقاليم إلى مراكز .. ثم
قسمت المراكز إلى قرى . وقد عين البطالة على رأس كل إقليم
حاكم أطلق عليه " لقب نومارك " وعلى رأس كل مركز رئيساً
يسمى " توبارك " ولقب رئيس القرية بلقب " كومارك ".

وفي بداية العصر البطلمي كانت جميع هذه الوظائف يشغلها
مصريون .. لكن البطالة كانوا يشعرون أن هذا الأمر يتناقض مع
طموحاتهم وأهدافهم ومصالحهم في مصر؛ فعملوا على تغييره .
ومن ثم فقد عمل البطالة على جعل الوظائف العليا والعسكرية
وقفاً على البطالة دون المصريين. ولذلك ففي عهد "بطليموس
الأول" تم تعيين رئيس عسكري يطلق عليه القائد لكل إقليم. كانت
اختصاصاته في بادئ الأمر "عسكرية"، ثم توسعت سلطاته هو
ومساعديه من الكتاب الملكيين، حتى لم يعد للحاكم المدني أي
اختصاصات أو سلطات، واختفوا تماماً قبل نهاية العصر البطلمي .
وقد جرت العادة على إسناد الوظائف المهمة للإغريق .. أما
المصريون فكانوا يتولون "الوظائف الكتابية" . وكان رجال الإدارة
في الأقاليم والمدن والقرى وكلاء عن الملك ويستمدون سلطاتهم

منه مباشرة. وكان هذا النظام يسرى على جميع أقاليم المملكة المصرية كلها. ماعدا المدن الإغريقية الحرة وهى "نقراطيس وبطلمية والإسكندرية" فهذه المدن كانت تخضع لنظام إداري خاص، وتتمتع بنوع من الاستقلال الذاتي . وانقسم الإغريق الذين أقاموا فى مصر فى عصر البطالة إلى قسمين هما :

" الإغريق سكان المدن الحرة" : فى العصر البطلمي تمتعت المدن الحرة " كالإسكندرية" التى بناها الإسكندر الأكبر و "بطلمية" التى بناها بطليموس الأول فى مصر العليا " تقع الآن فى مدينة جرجا " ومدينة نقراطيس "بالقرب من مدينة دمنهور الحالية" بنوع من الاستقلال الذاتي، وكان لكل مدينة قانونها الخاص، ومحاكمها ومجلسها الشعبي ومجلس الشيوخ، لكنها مع ذلك ما تزال خاضعة لسلطة البطالة. وهيمنة الملك مع قدر من الاستقلال النسبي .

وحظي سكان المدن الحرة بعدد من "الامتيازات" أهمها - التمتع بالحقوق السياسية، لأن نظام المدن الحرة يقوم على "الديمقراطية المباشرة". وكان كل شخص بلغ ١٤ سنة يكتسب صفة المواطن، ويكون له الحق فى مباشرة الحقوق السياسية الخاصة بالمدينة الحرة، عن طريق المجلس الشعبي الذى يتكون من مجموع الذكور البالغين، ويختص هذا المجلس بكل شئون المدينة السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وله كافة السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية . كما امتازوا بالتمتع ببعض الحقوق المدنية، التى لا يتمتع بها غيرهم مثل الزواج من الإغريق فى المدن الحرة الأخرى أو الإغريق من الجاليات، وكذلك تملك الأراضي الزراعية ملكية فردية تامة .

"الجاليات الإغريقية" : وهم الإغريق الذين كانوا يقيمون خارج المدن الحرة الثلاث، وينتظمون في جماعات، وكانت الأوامر الملكية تقضى بأن يقيد كل فرد منهم اسمه واسم المدينة التي كان ينتمي إليها قبل هجرته إلى مصر في سجلات رسمية . وتمتع الإغريق أعضاء الجاليات بنفس الحقوق التي تمتع بها الإغريق سكان المدن الحرة، ما عدا حق تملك الأراضي ملكية فردية تامة، وكان القانون يجيز لهم الزواج من المصريين . ولقد كان للإغريق سواء أكانوا - من سكان المدن الحرة أو أعضاء الجاليات- بعض "الامتيازات" أهمها - الإعفاء من بعض الضرائب مثل ضريبة الرعوس أو الجزية وكذلك الإعفاء من أعمال السخرة . بالإضافة إلى - قصر الوظائف الهامة والعسكرية والمناصب الرئيسية في المملكة عليهم والاعتماد عليهم في إدارة شئون البلاد مما أدى إلى تكوين طبقة من الموظفين المدنيين والعسكريين تتمتع بدرجة كبيرة من السلطة والنفوذ والثروة . كما كان للإغريق الحق في إقامة معاهد علمية تسمى جمنازيا وكانت لهذه المعاهد امتيازات كبيرة كحق امتلاك الأراضي والتمتع بنوع من الاستقلال الذاتي في إدارة شئونها .

ثالثاً- النظام الضريبي و"المسار الثالث" :

لم يغب عن وعى البطالمة أنهم غريباء أجانب مفتصبون لخيرات هذه البلاد محتلون لأرضها، وأن الاحتلال مصيره دائماً إلى زوال .. لذلك فقد سعوا إلى استغلال فترة حكمهم في استنزاف أكبر قدر

من خيرات هذه البلاد قبل رحيلهم عنها، واستعانوا فى سبيل تحقيق هذا الهدف بوسيلتين: هما النظام الضريبي و نظام الاقتصاد الموجه والاحتكارات العامة .

فمن حيث الضرائب: فقد عكف البطالة على فرض عديد من الضرائب على المصريين، منها ما هو "عيني" ومنها ما هو "نقدي" . وتمثلت "الضرائب العينية" فى جزء أو نسبة من ناتج الأرض الزراعية كان يتحملها المزارع، بالإضافة إلى الإيجار الذي يجب أن يدفعه الفلاحون للحكومة البطلمية، ويحصل منهم عينا كذلك. ومن الضرائب العينية كذلك ضريبة الفاكهة و الكروم، ولم تكن الضرائب العينية ثابتة المقدار بل كانت تختلف حسب الإقليم والمنطقة وخصوبة التربة واحتياجات الخزانة البطلمية .

أما "الضرائب النقدية" فهي تلك التى تدفع نقداً . وكانت تفرض على الملكية الخاصة للأفراد، كالمباني والعبيد والمهن والحرف المختلفة، وضريبة التداول على انتقال ملكية العقارات والعبيد، وكذلك الرسوم على توثيق العقود، وضرائب خاصة بصيانة البترع والجسور وحفظ الأمن والرسوم الجمركية على عمليات الاستيراد والتصدير وغير ذلك. وهذا النوع من الضرائب استحدثه البطالة، ولم يكن له وجود فى مصر الفرعونية؛ لعدم شيوع التعامل بالنقود فى عصرهم . وانقسمت الضرائب النقدية إلى نوعين هما :

"الضرائب المباشرة": وهى التى تفرض على ثروة الشخص وتشمل الضرائب التى كانت تفرض على المباني ذاتها أو على

عائد إيجارها . وكذلك - الضرائب التى كانت تفرض على العبيد باعتبارهم أحد عناصر ثروة السيد. أضف إليهما - الضرائب التى كانت تفرض على المهن والحرف المختلفة. و ضريبة الرؤوس أو الجزية حيث يرى بعض الباحثين أنها فرضت على الذكور من المصريين فى العصر البطلمي ولم يكن يعفى منها سوى رجال الدين .

"الضرائب غير المباشرة" : وهى التى كانت تحصل بسبب تداول الأموال من شخص إلى آخر وتشمل ضريبة التداول التى كانت تفرض عند نقل ملكية العقارات والرقيق. و - ضريبة تسجيل وتوثيق العقود. أضف إليهما أيضا ضريبة الرسوم الجمركية التى كانت تفرض على عمليات الاستيراد والتصدير وكان الغرض منها تحقيق دخل للخزانة البطلمية بالإضافة إلى حماية السلع التى تنتجها الحكومة البطلمية. والضرائب الخاصة بإقامة وصيانة الترع والجسور وحفظ الأمن .

وكانت "الضرائب العينية" فصل عن طريق موظفي الدولة، بالذهاب للحقول وأخذها مع الإيجار من المحصول ووضعها فى المخازن الملكية . أما "الضرائب النقدية" فاتبع فى جبايتها نظام الالتزام. حيث تطرح ضرائب منطقة أو إقليم معين فى مزاد، ومن يرسو عليه المزداد يلتزم بسداد هذه الضرائب للدولة، ثم يتولى هو تحصيلها من الأفراد بمعاونة رجال الدولة . وكان نظام الالتزام فى جمع الضرائب .. نظاما سيئا وضارا بالمصريين؛ حيث أن الملتزم كان يجور على الناس ويظلمهم، ويحصل من الأفراد مبلغ وقيم أعلى من التى حددتها الدولة .

رابعاً- النظام الاقتصادي و"المسمار الرابع"؛

وفق النظام السياسي والاقتصادي الذي اتبعه البطالة فى حكم مصر لم يكن الملك هو رئيس للبلاد بقدر ما كان صاحبها؛ وعليه .. يصبح للملك الحق الأصيل فى توجيه مجهودات الأفراد والمواطنين الوجهة التى تحقق مصالح الملك ودولة البطالة.. ولذلك افقد احتكر الملك "الأراضي الزراعية"، واعتبرها ملكا له، وتؤجر للمصريين مقابل جزء كبير من المحصول، وتزرع وفقا للتعليمات التى تصدرها حكومة البطالة، والتي كان يتعرض من يخالفها من الفلاحين للعقوبة.

كما احتكر البطالة "السلع المهمة " مثل المنسوجات والجلود والروائح العطرية والورق، واستخراج المعادن وصيد الطيور. واحتكروا كذلك الأعمال المصرفية؛ بغرض الإشراف على المبادلات النقدية. وكان احتكار صناعة الزيت احتكارا تاما، ابتداء من إنتاج المواد الأولية حتى تصل السلعة إلى أيدي المستهلكين. أي كان البطالة يحتكرون الدورة الإنتاجية بأكملها .

وفى نفس السياق .. لجأ البطالة إلى حظر ومنع استيراد السلع التى تحتكر الحكومة البطلمية صناعتها لحمايتها من منافسة السلع الأجنبية. بعد أن أدت سياسة الاحتكار إلى ارتفاع أسعار السلع الاحتكارية فى الأسواق الداخلية عنها فى الأسواق الخارجية، مما دفع الدولة إلى تحديد أسعار السلع الأخرى غير الاحتكارية، وتحكمت فى إنتاجها وتوزيعها وأخضعتها لرقابة دقيقة؛ مما أدى إلى الحد من ربح المنتجين والتجار. ومن هذه السلع الماشية والدواجن والأسماك والنقل النهري

خامساً- الأوضاع الاجتماعية وأزمة الهوية: "المسمار الخامس"

لقد كانت "الهوية" ولا تزال الخط الأحمر الذي لا يسمح المصريون بالاقتراب منه أو المساس، وحت أي ظرف، ولو دفعوا أرواحهم ثمناً للحفاظ عليها. فلما كان المصريون يشكلون الغالبية العظمى من السكان في مصر في العصر البطلمي، فقد أدرك البطالمة أنه لا سبيل لهم ولا قدرة لديهم على حكم مصر ولا السيطرة على المصريين إلا باحترام تقاليدهم الدينية؛ ولذلك أحرصوا على إظهار احترامهم للديانة المصرية، واعترفوا بها ديناً رسمياً للبلاد، بل وصل الأمر إلى أن الإغريق أنفسهم عبدوا الآلهة المصرية . وبالرغم من ذلك إلا أن البطالمة لم يفرضوا على الإغريق المقيمين بمصر معتقدات المصريين، بل تركوهم يحتفظون بمعتقداتهم الديني. وظلوا يعبدون آلهتهم الخاصة، وأقاموا لها المعابد في المدن التي يكثرون فيها .

ورغبة من البطالمة في استرضاء رعاياهم الإغريق بمصر، أظهر الملوك الولاء للآلهة الإغريقية بجانب الولاء للآلهة المصرية. فأقاموا لها المعابد في مصر وقدموا لها القرابين وشاركوا في احتفالاتهم الدينية. واستمر الوضع هكذا إلى أن أدرك البطالمة أن هذه الازدواجية في العقيدة قد تفسد العلاقة بين أفراد الشعب، وتهدد تماسك البنيان الاجتماعي في البلاد كما أنها تزيد من النفقات على إنشاء المعابد وإقامة الشعائر ولذلك سعى البطالمة إلى مزج الديانات المصرية بالديانات الإغريقية، فأوجدوا ديانة جديدة تقوم على ثلوث

مكون من "سيرابيس" وزوجته "ايزيس" وابنتهما "هاربوكراتس".
وأقاموا للديانة الجديدة معابد ضخمة في الإسكندرية ومنف. ويرى
البعض أن هذا الإله تمتع بنفس النفوذ الذي تمتع به من قبل الإله (
آمون رع) في عصر الفراعنة.

ولم يكن لدى البطالة قبول بوجود طبقة تتمتع بنفوذ وتنظيم
وانتشار داخل المجتمع المصري، لما بشكله ذلك الوضع من خطر
على الحكم الإغريقي للبلاد؛ لذلك عملوا على الحد من امتيازات
الكهنة"، وأسندوا أراضى المعابد للحكومة، وعينوا مراقب لكل
معبد.. وأرغموا رجال لدين على إظهار ولائهم للأسرة الملكية بشتى
الطرق . أما طبقة "الأشراف" المدنية التي كانت موجودة في عهد
الفراعنة فقد تلاشت؛ بسبب سلبهم جميع مناصبهم الإدارية
وأموالهم .

إلا أن طبقة "الجنود والموظفين" تلك التي كانت مكانة كبيرة،
تلت مباشرة طبقة الأشراف المدنية والدينية في عهد الفراعنة، فقد
فقدت هذه الطبقة مكانتها في عصر البطالة؛ نظراً لاعتماد البطالة
على الإغريق في الجيش والمناصب المدنية المهمة، وإسناد الوظائف
الصغيرة و الكتابية فقط للمصريين . الطبقة العاملة والتي
اشتملت الزراعة والتجار والصناع، فقد عانت هذه الطبقة كثيراً في
عصر البطالة، وكلفت بالأعمال الإجبارية "السخرة" وكان يستعان
بها في إقامة الجسور وشق الترع وإعداد وتمهيد الأرض للزراعة والعمل
بالمناجم والمحاجر والمصانع، مع فرض الضرائب المتعددة عليهم. كما

عانت هذه الطبقة أيضا من القيود الكثيرة التي فرضتها عليهم الدولة البطلمية بسبب إتباع سياسة الاقتصاد الموجه .

وحيث أن البطالة لم يعترفوا للمصريين بحقوق سياسية مثل الحقوق التي اعترفوا بها للإغريق داخل المدن الإغريقية في مصر؛ فقد أدى إلى حرمان المصريين من حقوقهم السياسية، في ظل الحكم البطلمي . إذ كانت حقوق الفرد وواجباته تختلف تبعا للجنس الذي ينتمي إليه.. فحقوق الإغريق مثلا كانت أكثر من الحقوق التي يتمتع بها غيرهم، بل أكثر من حقوق المصريين أصحاب البلاد. وكذلك واجبات الإغريق أقل من واجبات غيرهم ولو كانوا من المصريين . وقد برر البطالة ذلك بأن المصريين لم يتمتعوا بأي حق من الحقوق السياسية بطريق مباشر أو غير مباشر في عهد ملوكهم الفرعونية.. وأن المصريين غير مهينين لممارسة الديمقراطية..!!

كما لم يعط البطالة للمصريين حق تملك الأراضي الزراعية، بل كان المصريون فقط يقومون بزراعتها لحساب الملك البطلمي، أو ملاك الأرض من الإغريق سكان المدن الحرة " الإسكندرية وبطلمية ونقراطيس". ناهيك عن أعمال "أعمال السخرة". فالأعمال الإجبارية التي فرضها البطالة على المصريين القادرين على العمل كانت لا تفرض بنفس القدر على النساء والأطفال والمرضى وكبار السن. وكذلك يعفى من السخرة رجال الدين وأصحاب بعض المهن والجنود الذين يخدمون في صفوف الإغريق . وكانت أعمال السخرة تنحصر في إنشاء وصيانة الطرق والجسور والترع وإعداد الأرض للزراعة . فقد

كان الشخص يكلف بالسخرة لعدة أيام كل عام، ولا يعفى منها الشخص إلا بدفع بدل مالي .. وثمة رأى يرجحه فريق من الباحثين يذهب إلى أن السخرة كانت تفرض على المصريين دون الإغريق.. وهو يتفق مع سياسة التمييز العنصري التي اتبعها الإغريق في حكم مصر .

وفى عهد بطليموس " الرابع " هاجم ملك السلوقيين " بوكخوريوس الثالث " ملكة البطالمة، وكاد أن ينتزع الجزء الجنوبي من سوريا من أيديهم، إلا أن بطليموس الرابع أعد جيشا استعان فيه بعدد كبير من المصريين بعد تدريبهم على فنون القتال و الحروب، وكان للمصريين الدور الحاسم فى انتزاع النصر الذى عز على جنود البطالمة تحقيقه وذلك فى معركة رفح عام ٢١٧ ق م.

وكان للدور الذى قام به المصريون فى معركة رفح أثر ايجابي فى تحسين مركزهم الاجتماعى والسياسى؛ فقد عاد لطبقة الأشراف الدينية كثير من امتيازاتها، كالحق فى استغلال الأراضي الموقوفة على المعابد، وتم إعفاؤهم من السخرة. وفتح الباب أمام المصريين لتولى المناصب والوظائف المهمة فى الدولة. وكذلك سمح للمصريين بأداء الخدمة العسكرية بعد أن حرموا من ذلك فترة من الزمن وخفف البطالمة من القيود التى فرضوها على ممارسة بعض الأنشطة الاقتصادية . وقد أحدث ذلك تقاربا بين المصريين والإغريق، وتعلم كل منهم لغة الآخر.. وتم الزواج بين مصريين وإغريق، وكونوا طبقة متوسطة فى المجتمع .

ثورة "الجياع الأولى" :

دارت أحداث هذه الثورة في عهد " بطليموس الثالث " أثناء حربه في سوريا، تلك الحرب التي أدت إلى الانهيار الاقتصادي للبلاد، نتيجة الإنفاق عليها؛ وتسببت في مضاعفة الضرائب على أهل مصر وإكراه المصريين على العمل في الخدمة البحرية قسراً، وبلغ الحال حد المجاعة غير أن بطليموس الثالث أحمدها ليس بالقوة المسلحة فقط، ولكن بسياسات اقتصادية واجتماعية ناجحة أيضاً .. فقد جلب القمح من فينيقيا وقبرص وسوريا .. وتنازل هو والملكة والكهنة عن جانب كبير من دخلهم لإنقاذ الشعب والكهنة .. ذلك التصرف الاجتماعي الديني الإنساني الذي قام به الملك وزوجته مسجل حتى الآن في الوثيقة الحجرية الموجودة في المتحف المصري.

ووقعت هذه الثورة نتيجة لشعور المصريين بقسوة وظلم الاحتلال؛ فلجئوا إلى مقاومة الاضطهاد مقاومة سلبية؛ فأضربوا عن العمل .. وشارك في الإضراب الفلاحون وعمال المصانع والمناجم والمهاجر.. وقوبلت هذه الإضرابات في البداية بالقمع والاضطهاد من قبل الدولة . وتكررت هذه الإضرابات في عهد بطليموس الثاني، وزيد عليها تهريب السلع وبيعها دون تصريح .. وقمعت أيضاً . وفي عهد بطليموس الثالث " انفرط العقد من يد الدولة؛ فخرج المصريون مطالبين برحيل الملك، وجاءت أسبابهم كما يلي:

١- عدم احترام البطالة للاستقرار الداخلي .. الذي وضع أساسه و ثبت دعائمه الإسكندر الأكبر بحرصه على استرضاء

المصريين واحترام عقائدهم وعاداتهم وثقاليدهم وأعرافهم وعدم النيل من امتيازاتهم ومكتسباتهم في العصر الفرعوني. لكن البطالة لم يستمرروا على نهج الإسكندر الأكبر مع المصريين طويلا، ومنحوا اليهود من الامتيازات والحقوق ما يجعلهم في مكانة أفضل من المصريين أصحاب البلاد الأصليين مما أدى إلى سخط وكراهية المصريين للحكم البطلمي .

٢- العرقية والتمييز العنصري التي لم يتنازل عنها البطالة في فكرهم اليوناني، حتى في طريقة حياتهم فقد كانت حقوق الفرد وواجباته تختلف تبعا للجنس الذي ينتمي إليه، فحقوق الإغريق مثلا كانت أكثر من الحقوق التي يتمتع بها غيرهم، بل أكثر من حقوق المصريين أصحاب البلاد، وكذلك واجبات الإغريق أقل من واجبات غيرهم ولو كانوا من المصريين؛ مما ساعد على اتساع الفجوة بينهم وبين الشعب المصري

٣- كراهية الشعب المصري ورفضه لمحتل دخيل غريب مغتصب لأرضهم ناهب لخيرات بلادهم، تغفل في كل مفاصل الدولة .. واستأثر لنفسه بكل سلطات الدولة ووظائفها وأقصى المصريين أصحاب البلاد وأبعدهم عن المشاركة في حكم بلادهم واستغلال مواردها لصالحهم .

٤- الاستبداد وفرض الضرائب الباهظة واحتكار كل موارد البلاد فامتلات قلوب المصريين غيظا وازداد لهيبها قيظا من قلة المغنم وقسوة المظالم .

وإذا كان هناك من المؤرخين من يرى أن البطالة قد أحكموا قبضتهم على البلاد عن طريق تركيز جميع السلطات في أيديهم، وعدم ترك المجال مفتوحاً أمام أية فئة أو هيئة أخرى للوصول للسلطة. فإن هناك فريق آخرى ذهب إلى أن الهدف من إتباع البطالة لهذه الفلسفة في الحكم هو الحرص على بقاء مصر كجزء من الإمبراطورية الإغريقية، والقضاء على أي تمرد يهدف إلى استقلالها عنها؛ وذلك لاستغلال ثروات مصر الوافرة في تمويل وإعداد الجيوش التي تدافع عن الإمبراطورية الإغريقية.

ومن أهم ما أسفرت عنه هذه الثورة.. أنها غيرت من سلوك البطالة تجاه الشعب المصري، وأحدثت تحسناً ملحوظاً في الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والقانونية للمصريين، خاصة بعد معركة رفح، حينما تعرضت البلاد في عهد بطليموس الرابع للاعتداء من جانب "أنطيوخوس" الثالث ملك "السلوقيين" .. لكن البطالة بقيادة بطليموس الرابع أعادوا تنظيم الجيش وأدمجوا فيه عدداً كبيراً من المصريين بعد تدريبهم وتسليحهم، فكان للفرق المصرية الفضل الأكبر فيما حققه بطليموس الرابع من انتصار على جيوش السلوقيين في معركة رفح عام ٢١٧ ق م . وهناك من يرى أن هذا النصر قد أدى إلى ازدياد ثقة المصريين بأنفسهم، وأرغم البطالة على تقديرهم واحترامهم بعد أن انتزعوا نصراً عز على جنود الإغريق تحقيقه . ومن ثم فنه يمكننا القول أن هذه الثورة نجحت في استرداد المصريين لحقوقهم المنهوبة وكرامتهم المسلوبة..

"ثورة الجياع الثانية" ،

وقعت أحداث هذه الثورة فى عهد " فيلو باتور " بطليموس الرابع - الذى واصل إرث الحرب مع السوريين .. ونظرا لأن جنود الإغريقين مرتزقة، وقد استنزفت قواهم وقلت أعدادهم بسبب حروب خلفاء الإسكندر؛ الأمر الذى دفع "باتور" مضطراً إلى أن يعتمد على المصريين فى حربه ضد السوريين، فأغدى الهبات والعطايا على الآلهة والمعابد، ولقب بألقاب الفراعنة. كما أصدر مجلس الكهنة قراراً بأن الآلهة باركت بطليموس الرابع، وعقدت له لواء القصر؛ فأغدى ثانية على المعابد، وجند نحو عشرين ألف مقاتل مصري. مما اضطره هو ووزيره "سوسبيوس" إلى إدخال تعديلات على النظم المالية والإدارية لمواجهة هذه المصروفات؛ ولذلك ارتفعت الضرائب والإيجارات . وكذلك تعلم المصريون فنون القتال، وكانوا سبباً فى انتصار بطليموس الرابع على "انتيوخوس"، ويقول "هارولديل" من ذلك الحين أخذت الثورات المصرية تنشب من وقت لآخر وتقع غالباً فى إقليم طيبة

وكانت "طيبة" هي معقل الثورة الرئيسية.. فبزعامه "أرماخيس" ثم "انخماخيس" وبمعاونة النوبة قاومت طيبة " فيلو باتور" ثم ابنه (ابيفانس) ويتضح من الوثائق أن طيبة انفصلت تحت إمارة الزعيمين قرابة عشرين عاماً. وحدثنا إحدى نقوش معبد "ادفو" أن أعمال البناء أوقفت لاندلاع لهيب الثورة، واحتتمت إحدى فرق الثوار داخل المعبد، واحتدم الصراع فى الجنوب، وظلت الثورة إلى أن هزم "إنخماخيس"

في العام التاسع عشر في عد ابيفانس عام ١٨٦١ ق.م. ولم تختلف هذه الثورة كثيراً عن سابقتها، ولكن خطورتها كانت تكمن في أنه كان من بين من اشتركوا فيها المصريون الذين مهروا في القتال وألفوا مبادئه في موقعة رفح . وكان من أهم نتائجها إصابة سياسة مصر الخارجية بالشلل في عهد بطليموس الرابع ولعل الثورة المصرية كان لها نصيب في ذلك . وكذلك انتفاض اليد العاملة وتعطيل الزراعة والتجارة وقد أسفر هذا الوضع عن دمار اقتصادي فادح . فضلاً عن فقدان دور مصر التجاري الرائد في بحرايجه . و رفع القيمة الاسمية للعملة . وتم اتخاذ البرونز قاعدة أساسية للنقد البطلمي...

سادساً- ثورة الجياع في "العصر الروماني" :

ليس غريباً أن يحتفظ الرومان بنظريات سياسية فرعونية؛ ولا سيما إذا كانت هذه النظريات تؤسس نظام الحكم على فكرة الحق الإلهي المطلق في السلطة، وبمقتضاها يصبح الإمبراطور هو الحاكم والوريث الشرعي لعرش الفراعنة والبطالمة . وكان الإمبراطور الروماني يمارس مهام الحكم من خلال والي أو حاكم يقيم في الإسكندرية، غالباً ما يتم اختياره من طبقة الفرسان؛ للتأكد من قدرته على مواجهة أي تمرد يقوم به المصريون .

وكان "الحاكم الروماني" على مصر يتمتع بولاية عامة من الدرجة العليا، تخول له جميع السلطات، وعلى جميع من يوجد في مصر من

قوات رومانية. كما تخول له، بالإضافة إلى ذلك سلطة النظر في المسائل الجنائية والمدنية. وهى سلطات تعادل السلطات التى كانت لملوك البطالمة من قبل. والفارق الوحيد فقط هو أن الوالى الرومانى لا يتمتع بالاستقلال الذاتى، وإنما يخضع لرقابة الإمبراطور الرومانى. وفى إطار هذا الخضوع كان لهذا الوالى حق إصدار منشور يبين فيه للناس المبادئ العامة التى سيسير عليها أثناء حكمه، سواء من الناحية الإدارية أو القضائية، وكان لجميع ما يقرره قوة القانون .

ويعد الوالى هو الرئيس الأعلى للإدارة المركزية بمصر وله سلطة تعيين كبار الموظفين الذين يستعين بهم فى إدارة شئون البلاد، وكذلك له سلطة تعيين الذين يكلفون بالأعمال الإجبارية، وهى الخدمات التى يؤديها الأفراد للدولة .. وفقا لشروط معينة يحددها القانون. بل استحدث الرومان نظام الخدمات الإجبارية المالية التى تقتضى إنفاق الأموال من قبل المكلف بها . وكان للمحاكم ديوان يضم عددا من الموظفين، موزعين على عدة أقلام أهمها، قلمي السكرتارية والسجلات .

ومن الناحية الاقتصادية اعتبر الرومان مصر مصدرا للقمح والنقود؛ لتمويل الإمبراطورية الرومانية؛ ومن ثم فقد كانت الإدارة المالية هي من أهم الإدارات فى العصر الرومانى. وكان الوالى يقوم بعمل تعداد للسكان كل أربع عشرة سنة؛ ليتم على أساسه تقدير الضرائب والأعمال الإجبارية. كما كان الوالى يشرف على إحصاء الأموال وتسجيل الملكية العقارية فى دور المحفوظات العقارية

وحرص النظام اليوناني على وضع السلطة الدينية كلها في يد الوالي، ومنحه سلطة الإشراف على الموظفين الدينيين، وعلى إيرادات المعابد والكهنة .. وكان الوالي هو القائد الأعلى للجيش الروماني في مصر. الذي كانت فرقته وسراياه ووحداته تنتشر في سائر أنحاء مصر . ثم أصبحت الإسكندرية مقراً للجالية العسكرية الرومانية .

كما قام الرومان بتقسيم مصر إلى ثلاثة مناطق هي الدلتا ومصر الوسطى والصعيد وجعلوا على كل منها رئيس يسمى القائد العام أو الرئيس الإداري اقتصرت سلطته على الأمور المدنية فقط ولم يكن له اختصاص عسكري كما كان في عهد البطالمة . وكانت مهمة القائد العام للمنطقة هي تبليغ أوامر الوالي إلى السلطات المحلية في الأقاليم. وتقديم تقارير عن أعمال الإدارة في هذه الأقاليم، وكذلك الإشراف على تحصيل الضرائب وغير ذلك من الأمور التي تتطلبها إدارة شئون الإقليم. وقد اختفى منصب القائد العام في عهد الإمبراطور "دقلديانوس" الذي قسم مصر إلى ثلاث ولايات، على رأس كل ولاية حاكم مستقل .

بعد أن استقر التقسيم الإداري لمصر في العصر الروماني إلى ثلاث مناطق على رأس كل منطقة قائد عام، تم تقسيم كل منطقة إلى أقاليم ومراكز و قرى. وعلى رأس كل إقليم حاكم يمثل الوالي، و يعاونه في تنفيذ مهامه عدد من الموظفين الخاضعين لإشرافه :

"حاكم الإقليم" يعين من بين الإغريق أو المصريين المواليين للرومان أو من الرومان لمدة ثلاث سنوات ويتولى الإشراف على الجهاز الإداري

في الإقليم وبصفة خاصة الإدارة المالية وكان له بعض الاختصاصات القضائية بمقتضى تفويض دائم أما القضايا ذات الخطورة فكان يتعين عليه أن يحيلها إلى محكمة الوالي . ولم يكن لحاكم الإقليم أية اختصاصات عسكرية وإن كان قد مارس ذلك بصفة استثنائية كما حدث ذلك عندما وقعت الاضطرابات الداخلية من اليهود في عهد الإمبراطور "تراجان" والإمبراطور "هادريان" .

" الكاتب الملكي " كان يزود حاكم الإقليم بكل الإحصاءات والتقديرات والتقارير التي يحتاج إليها، كما كان يحتفظ بجميع الأوراق والحسابات الخاصة للإقليم مثل التقارير والإحصاءات التي يدونها كتبة القرى والمشرفون على مخازن الحبوب وإقرارات ممولي الضرائب .

" النومارك " وهو حاكم الإقليم وكان يعاونه موظف يسمى القائد الذي انتقلت معظم اختصاصات حاكم الإقليم إليه، وأصبح هو الحاكم الفعلي للإقليم .. واقتصر نشاط "النومارك" على المسائل المالية وبصفة خاصة الرقابة على تحصيل الضرائب .

" التوبارك و الكومارك " جعل الرومان على رأس كل مركز موظفا يسمى حاكم المركز أو "التوبارك" يعاونه كاتب المركز "التوبوجرامات " كما جعلوا على رأس كل قرية موظفا يسمى حاكم القرية أو "الكومارك" يعاونه كاتب القرية أو الكوموجرامات . وقد اختفت وظيفة حاكم القرية بعد القرن الثالث للميلاد، وذلك أنه قد حل محله مجلس شيوخ القرية، الذي تولى بالتعاون مع كاتب القرية الحفاظ على النظام فيها و تحصيل إيرادات الدولة .

ولم يكن نظام الإدارة المحلية السابق بيانه مطبقا داخل المدن الإغريقية الحرة لأن هذه المدن كانت تتمتع بقدر من الاستقلال الذاتي في إدارة شئونها . ولم تعد الوظيفة العامة بمثابة علاقة تعاقدية بين الموظف والدولة، يجوز للفرد قبولها أو رفضها .. لكنها أصبحت تكليفا من الدولة للشخص لا يجوز له رفضه أو الامتناع عن أدائه، ولو كان العمل بدون أجر؛ وذلك بعد أن عمم الرومان نظام الخدمات الإجبارية في مصر ووضع له الفقهاء الرومان نظرية كاملة. ولم يجد هذا النظام قبولا لدى الأفراد، حيث كان العمل في الوظيفة العامة يشكل إهدارا لأوقاتهم دون مقابل، وكذلك يمنع هؤلاء الأفراد من ممارسة أعمالهم الخاصة التي يشبعون بها حاجاتهم المعيشية، كل ذلك دفع الكثيرين إلى التهرب من تولى الوظائف العامة.

سابعاً- التمييز العنصري وازدراء الجنسية المصرية؛

وقد اتبع الرومان سياسة التمييز العنصري التي اتهجها البطالمة من قبل .. حتى عصر الإمبراطور "كراكلا" الذي أصدر دستورا في عام ٢١٢ م منح بموجبه الجنسية الرومانية لكل سكان الإمبراطورية.. ورغم ذلك حرص على أفضلية الجنس الروماني ؛ إلا أن عددهم كان قليلا جدا حتى قدره البعض بأنه لا يتجاوز عشرين ألفا وكانوا عدة طوائف أهمها :

" طائفة المواطنين الرومان " وهم الذين ينتمون إلى أصل روماني. ووفدوا إلى مصر مع الاحتلال الروماني وأقاموا بها، وكان

عددهم قليلا جدا؛ نظرا لكون الرومان لا يشجعون الهجرة إلى مصر
مثلما كان يحدث إبان الحكم البطلمي.

" طائفة المتجانسين بالجنسية الرومانية". واشتملت هذه
الطائفة على الإغريق وبعض المصريين الذين حصلوا على الجنسية
الرومانية. وكانت الجنسية الرومانية آنذاك تمنح للشخص إذا كان
منتميا إلى إحدى المدن الإغريقية الحرة، أو كان مقيما في إحدى
عواصم أو حواضر الأقاليم الكبرى، أو سمح له بالالتحاق بالجيش
الروماني.

" طائفة عتقاء الرومان واللاتينيين " وتمثلت في الذين كانوا
أرقاء لدى الرومان أو اللاتينيين، ثم تم عتقهم بطريقة من طرق
العتق المعروفة لديهم آنذاك.

وتكريسا لثقافة العنصرية التي اتسم بها الحكم الروماني
في مصر؛ فقد أبقى الرومان على معظم الامتيازات إلى من كان يتمتع
بها الإغريق من قبل، كما أبقوا على التفرقة التي كانت موجودة
من قبل بين إغريق المدن الحرة وإغريق الجاليات، وتضمن طائفة "
المدن الحرة" كافة مواطني المدن الحرة الثلاث التي أنشأت في عهد
البطالة وكذلك سكان مدينتي باريتونيون " مرسى مطروح الحالية
" ومدينة أنتينوبوليس " بجوار مدينة ملوي حاليا " وقد تمتعت هذه
المدن بقدر كبير من الاستقلال والحكم الذاتي والتنظيمات الإدارية
الخاصة والامتيازات المتعددة . أما " إغريق الجاليات " أو من هم خارج
المدن الحرة من الإغريق .. فيرى بعض المؤرخين يرى بعض الباحثين أن

الرومان قاموا بتجميع الإغريق المتفرقين في أنحاء البلاد في عواصم المديرية وحواضرها الكبرى. ولم يبق منهم في الريف إلا جماعات قليلة. وظل هؤلاء الإغريق يتمتعون بأغلب الامتيازات التي كانوا يتمتعون بها من قبل. خاصة بعد أن أُنشِئ نظام الإدارة المحلية الذي وضعه الإمبراطور "سبتيموس سيفيروس" عام ٢٠٢ م. والذي منحت بمقتضاه المدن الكبرى نوعاً من الحكم الذاتي .

وكان القانون الروماني يفرق بين نوعين من الأجانب هما : "الأجانب العاديون" وقصد بهم سكان المدن الأجنبية، الذين كانوا يتمتعون بصفة المواطنين في مدنها الأصلية قبل خضوعهم للدولة الرومانية، مثل سكان المدن الحرة الإغريقية . و"الأجانب المستسلمون" وهم الذين حاربوا الرومان ثم غلبوا وهُزموا. وكذلك الأجانب الذين لا يتمتعون بصفة المواطنين، لعدم انتمائهم إلى مدينة من المدن الحرة قبل خضوعهم للرومان .

ثامناً- الأوضاع الاجتماعية والقتيل الثوري؛

لم يختلف الرومان كثيراً عن من سبقهم من مستعمرين أو محتلين للوطن المصري المنكوب بمطامع الغزاة. بل أنهم كانوا أكثر شراسة في تطبيق مبادئ الاستعمار المحتلة لخرابات سكان مستعمراتها. فلم تشهد أحوال المصريين تحسناً ملموساً في أحوال معيشتهم. ففي عصر الحكم الرومان احتفظ المصريون بمكانتهم في قاعدة الهرم الاجتماعي .. إذ اعتبرهم الرومان من الطبقات

الدنيا، وكانوا يسخرونهم في زراعة الأرض، ولا يشغلون من الوظائف الحكومية، إلا أقلها شأنًا، وتفرض عليهم الضرائب الباهظة. ولم تحظى القرى التى يسكنها المصريون بأي اهتمام من الرومان، وظلت تلك القرى تعاني الفقر وسوء الخدمات والمرافق .

وكان الرومان دائما يعتبرون المصريين من الأجانب المستسلمين، ولم يسمحوا لهم بممارسة أي حق من الحقوق السياسية .. كما لم يعطوهم الحق في تطبيق نظمهم وعاداتهم المحلية إلا بموافقة الوالي الروماني. وحرصوا على منعهم من التعامل طبقا للقانون المدني الروماني .. لأكما حرصوا على حظر الزواج بين الرومان والمصريين، وحرّموا كذلك الزواج بين المصريين ومواطني المدن الإغريقية الحرة بمصر ما عدا سكان مدينة "أنتينوبوليس" في صعيد مصر التي أنشأها الإمبراطور "هادريان" حيث سُمح لهم بالزواج من المصريين . وبالرغم كل هذه القيود التي كبل بها لرومانيون حرية المصريين، بيد أنهم سمحوا للمصريين بحرية العبادة وممارسة الطقوس الدينية، وكذلك سمح للمصريين بتطبيق أحكام القانون المصري على معاملاتهم . وجعلت الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية المتدنية للمصريين في ثلاثة صور أساسية، أمكن رصدها فيما يلي:

- "جباية الضرائب" : حيث فرض الرومان الضرائب على الأفراد والأراضي والمهن والخدمات والمبيعات والتمويلات، وكذلك على حركة البضائع والناس والملكية العقارية والشخصية. وأظهر الرومان درجة عالية في التعسف، ومارسوا شتى أنواع الظلم على الشعب المصري.

ولا سيما في أساليب جباية الضرائب، والتي وصل حجمها ما يزيد عن الحصّة المقررة، فلکم أرسلوا إلى روما ما زاد عن حصتها. فقال "تيبيريوس" في رسالة وجهها إلى حاكم مصر قال فيها: "أريد أن يجز صوف شياهي ... إلى أن تسليخ جلودها أحياء".

وسجلت الوثائق التاريخية أن الرومان بلغوا في تعاملاتهم مع المصريين لحد في الغلظة، لدرجة أنهم كانوا ينزلون العقاب بأقارب وجيران من فر لعجزه عن دفع الضرائب .. بل قد يقتلونهم. وكان من أسباب جباية الضرائب بصفة عامة وبشكل مستمر، رغبة الرومان في تعويض عجز الميزانية الحربية، وبخاصة في فترة حكم "ماركوس" و"أوريليوس" نظراً للمواجهات العسكرية المتلاحقة؛ الأمر الذي أدى إلى عجز من كانوا قادرين من قبل عن دفع الضرائب، وكذلك حكام الأقاليم ومن أمثلة ذلك "أستراتيجوس" حاكم إقليم البوسيطي الذي بلغت حجم ضرائبه "٨٧١ درخمة و١,٥ أبول" وقد دفع منها "٤٨٢ درخمة و٤ أبولات" وتبقى عليه مقدار النصف أو ما يقاربه من الضرائب المستحقة.

وبرغم القسوة الرومانية في قهر المصريين، لم يكن بالإمكان الحصول على المحصول العادي من الأرض في السنة.. وما وزاد الأزمة حدة أن النهر تعرض للانخفاض وقد سجلت تقلبات النهر في وثائق (هادريان) ١١٧ - ١٣٨ م ولدينا طلبات لتخفيض ضرائب الأراضي عن الشهور التي تلت توليه العرش، ونظراً لانخفاض منسوب المياه في النيل فقد اضطر هادريان إلى خفض الضرائب كما هو مثبت في وثائقه في ٢٨ ديسمبر ١١٧ م، وكذلك في وثيقة ٣ مايو ١٣٦ م.

- "السخرة والخدمات الإلزامية" : منذ أن فتح أوكتافينوس مصر وهي تعاني نير الخسف والقهر الذي أثقل كاهلها، وزاد أهلها نصبا هذه السخرة التي أقرها "أوكتافيانوس" في موسم الجفاف (انخفاض منسوب مياه النهر) بإعادة بناء الجسور وتطهير الترع والقنوات.. وذلك بتسخير المصريين في العمل جبرا وبدون أجر بتكليف الذكر البالغ العاقل وعبيده للعمل في ذلك لمدة ٥ أيام بدون أجر قابلة للزيادة إذا اقتدى الأمر وتتضح لنا القواعد التي كان يتقرر بها العمل ويدار عن طريق سلسلة من الأوامر التي تصدر من مقر الحكومة بالإسكندرية، مثل خطاب "ابريل" عام ٢٧٨م الذي وصل من مقر الحكومة في الإسكندرية (لقد وصلنا الآن إلى موسم إصلاح الجسور وتنظيف القنوات لذلك فقد ارتأيت أنه من الأفضل أن اذكر بخطابي كل فلاح من منطقكم إلى قوله وأي شخص يجزؤ على القيام بأي محاولة لإهمال هذه الأوامر؛ عليه أن يدرك أنه بهذه المغامرة لا يعرض أملاكه فقط للخطر.. بل يعرض حياته أيضا".

وقد اكتمل نظام الخدمات الإلزامية وبلغ غايته في التعسف في عهد "تراخان" عندما حول كثير من الضرائب إلى مائة خدمة إلزامية، يكلف بها الشخص تحت رقابة وإشراف رجال الشرطة والموظفون وجباة الضرائب وناقلوا الحبوب ومفتشوا الفيضان ومراقبوا الأعمال العامة ورجال البنوك .

ومن يكلف بخدمة إلزامية تحت رعاية هؤلاء توضع أمواله وأملاكه تحت الحجز حتى ينتهي .. وقد دون على شرائح البردي، وربما "

الأوستراكا " ما يقرب من ٤٠٠ إيصال مخالصة . وفي السنة الثانية عشر من حكم الإمبراطور " تيريوس كلوديوس " قيصر أغسطس "جرمانيكوس" عام ٥٢ م أتم (بسينا مونيسهار باجاثوس) من قرية سكنوبا يونيسي) العمل في قناة (بوسيري الملاحية) لمدة الأيام الخمسة المنصوص عليها .. فأجّز بناء الجسر في السنة المذكورة، ولقد قمت أنا " كوراكوس " بالتوقيع و" أناسخاس " موظف المكتب الملكي بالإقليم بالتوقيع معه " . والواضح أن الخدمات الإلزامية كانت من أهم أسباب الانهيار الاقتصادي في ذلك الحين حيث تنازل كثير من الناس عما يمتلكونه رشوة للقائمين على الخدمات الإلزامية .

- " فرار القرويين " : سجل التاريخ قناعة الفلاح المصري ورضاه بالقليل، في مقابل أن يحيا في أرضه الآمنة التي ارتبط بها وجدانه، والتي بادلها المحبة بعزة وكرامة، ولكنه تعرض للظلم على مر العصور. ففي عهد " أنطونوس بيوس " والى عهد " ماركوس أدريليوس " زاد حجم الضرائب وازدادت بشاعة الجباية إلى الحد الذي لا يطيقه الفلاح المصري وبخاصة ضريبة الرأس وغيرها من الخدمات الإلزامية مما اضطر بعض سكان القرى إلى هجرها لعدم قدرتهم على دفع الضرائب إلى الحد الذي جعل أعدادهم تتناقص في بعض القرى حسب بعض التقارير إلى ١٤ رجلا في القرية ولعدم قدرة الذين بقوا ولم يهجروا قراهم على الالتزام بسداد دين القرية الذي أصبح على عاتقهم بعد فرار البعض لجئوا هم أيضا للفرار تاركين منازلهم .

وأمثلة لهذه التقارير أنه أورد الأستاذ فوزي مكاوي أن قرية " نيميو "

كان عدد دافعي الضرائب ١١ رجلاً فقط وفي ٤ قرى تابعة لمركز " خياستيتيس " التي كانت أهلة بالسكان تناقصوا إلى أن وصل عددهم إلى ١٤ رجلاً وقت كتابة التقرير ١٦٦-١٦٧م وفر منهم ١٠ رجال ولم يبق سوى ٤ رجال .. وذلك يدل على مدى القهر والقمع وتضييق الأرزاق على هذا الشعب العاشق لوطنه الذي لا يهجره إلا تحت الإكراه والقمع والظلم .

ومن خلال ما تقدم .. نتحدد الأسباب الحقيقية لهجرة أو فرار الفلاحين من القرى الخاضعة للبطش الروماني في ثقل وطأة الضرائب وتدهور خصوبة الأرض . وكذلك عدم القدرة على سداد الضرائب المستحقة وإجحاف الجباه في جمع الجبايات . أضف إلى ذلك أيضاً عدم إسقاط الضرائب عن الفارين ولكنهم ألزموا بها الباقين بغير فرار . واستحالة التعايش في ظل ظروف عدم تخفيض الضرائب مما اضطر الناس للفرار وترك قراهم .

وعلى أية حال.. فإن الأدبيات المتخصصة في تشير إلى أن فرار أهل القرى كان إلى المدن الكبيرة ،للانصهار في بوتقتها، و حتى لا يعرفون فيها، ولجأ بعضهم إلى الصحراء وتحولوا إلى قطاع طرق (وقد أثقل ذلك كاهل المدن لزيادة عدد لإسكان) ومن أهم الأماكن التي قصدتها القرويون في هجرتهم كانت الإسكندرية وكبرى المدن في صعيد مصر

ولم تكن هذه الأسباب المتقدمة وحده المسئولة عن مجاعة المصريين، إذ يعد التصحر عاملاً مهماً في التعجيل بكارثة المجاعة

والإسراع بها؛ حيث شهدت مصر انخفاضاً ملحوظاً لمنسوب مياه النيل، وإهمال متعمد لقنوات الري والجسور فضلاً عن انقطاع وصول مادة (الغرين الخصبة) أو ما أطلق عليه الفلاحون "طمي النيل" وطفو الرمال على الأرض، وتصحرها وعدم ملائمتها للزراعة .

حيث يعتبر النيل شريان الحياة في مصر على مر العصور .. ومصدراً أساسياً للمياه في ذلك الجزء الشمالي الشرقي من قارة أفريقيا .. كما ارتبطت أفراح الحياة وأحزانها ارتباطاً وثيقاً بمنسوب النيل وقد أورد العالم (بليني) في تاريخه الطبيعي أن منسوب النيل ١٢ ذراعاً يؤدي إلى مجاعة ١٣ ذراعاً تبقى المجاعة، ١٤ ذراعاً يجلب التفاؤل والسعادة، ١٥ ذراعاً يبعد القلق، ١٦ ذراعاً يجلب البهجة والسرور. وأدنى معدل لانخفاض منسوب النيل سجل عام ٤٨ م وسجل أعلى منسوب له عام ٤٥ م بلغ ١٨ ذراعاً ومن أشهر المجاعات التي سببها انخفاض منسوب النيل ما حدث في عهد تيبريوس حيث يذكر لنا التاريخ أنه أثناء زيارة جرماطيوكوس إلى مصر فتح صوامع الغلال وخفض أسعار القمح وقد كشفت إحدى البرديات عن كارثة عام ٩٩ م التي حدثت نتيجة انخفاض منسوب المياه مما أدى إلى إصدار الإمبراطور تراجان أوامره إلى السفن التي كانت تحمل قمحه بالعودة إلى مصر بحمولتها كما هي .

الفصل الثالث

المسلمون والمجاعة

سنوات من الخوف والجوع

ليس للدين حسابات تذكر عندما تجوع
الشعوب. فليس بالدين وحده تخنع الشعوب
.. وإن العلاقة الاقتصادية بين الحاكم
والشعب أهم وأسبق بكثير من العلاقة
الدينية. وعندما تفرغ البطون لا تملؤها
كتب السماء ..

تمهيد:

ارتبط تاريخ الحياة على أرض مصر منذ بدء الخليقة بأحد أهم
مواردها وهو النيل، كما ارتبطت حياتهم بوفائه وجفافه وعُلوّه
وانخفاضه، وارتبطت سعادتهم وحزنهم بالنيل واهب الحياة لأرض
مصر وسبب الرخاء ورغد العيش والمجاعات و الذي قد يكون أحياناً
سبباً في الجذب والقحط والجوع لأهل مصر ويذكرنا المقام بقوله
تعالى على لسان يوسف عليه السلام في سورة يوسف : ﴿ ثُمَّ يَأْتِي
مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعَ شِدَادٍ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا خَصْتُمْ ،
ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾ (يوسف
٤٨،٤٩) .

فقد كان هذا خبراً من يوسف - عليه السلام - عما لم يكن في رؤيا الملك، ولكنه من علم الغيب الذي أتاه الله . وهو خبرٌ بمعنى الأمر. أي " ازرعوا سبع سنين على عادتكم في الزراعة " . فقد مرت مصر بأزمة اقتصادية شديدة الوطأة كانت تستلزم خطة رشيدة لمواجهةها، هذه الخطة كانت السبب في إنقاذ مصر من المجاعة وعبور هذه الأزمة، بل إن البلاد المجاورة كانت تشتري الحبوب والطعام من مصر أثناء تلك الأزمة، وهو ما جعل المسلمين منذ الفتح يهتمون بأمر النيل لدرجة أن بعض الباحثين العرب كان قد أجرى دراسة لفيضانات النيل وضعوا نسباً استدلوها منها على ما يكفي لأنماط الزراعة المختلفة فوجدوا أن :

- ١- ستة عشر ذراعاً تكفي لزراعة بعض المحاصيل
 - ٢- سبعة عشر ذراعاً تكفي لزراعة معظم الأرض
 - ٣- ثمانية عشر ذراعاً حد الوفاء الذي يكفي لزراعة كل الأرض..
- (* الذراع من وحدات الطول المختلفة التي تعتمد على الساعد من المرفق إلى طرف إصبع الوسطى وعادة ما يساوي ١٨ بوصة تقريباً أي ما يساوي ٤٦ سم تقريباً) .

و بوجه عام، فإن الشخصية الفرعونية .. القبطية .. الإسلامية، كانت ولا تزال شخصية مؤثرة تأثيراً إيجابياً ليس فقط في الحضارة الإسلامية، بل وفي الحضارات الإنسانية كلها . وقد أعز الله مصر بالإسلام وأعز الإسلام بمصر فجادت في سبيله وسبيل أمتها بكل غالٍ ونفيس. بل إن كل جرح في الأمة العربية إنما هو في جسد مصر ونزف من دمها.

لقد اتصلت مصر بالحضارة الإسلامية وأخذت منها ما أخذت وردت ما ردت، صحيح أن المصريين على مدى العصور المختلفة قد قاموا بثورات عديدة، وصحيح أيضاً أن بعضاً من هذه الثورات كان بسبب المجاعات و الأزمات الاقتصادية الطاحنة، إلا أن أي مُنصف لا يمكنه أن يحيد عن حقيقة أنها كانت في مُجملها، ثوراتٌ نبعت من ذواتهم الأبيّة المدافعة عن الكرامة والحق في حياةٍ كريمة ومستقبلٍ زاهرٍ .

أولاً المجاعات: مقدمات واحدة لنهايات متشابهة

لعل أولى الأزمات التي مرت بها مصر بسبب الأزمات الاقتصادية والمعيشية الطاحنة، كان في عصر الدولة الأموية، فقد خرج المصريون في العهد الأموي في ثورة عارمة، اجتاحت أرجاء الفسطاط، في عهد بني أمية، للمطالبة بعزل الوالي، ولجحت ثورة الجياع في خلع الحاكم. ولم يجد وقتها الأمير "عبد الله بن عبد الملك" مفرّاً سوى الهروب من قبضة الشعب، والنجاة بنفسه، بعدما نهب خيرات البلاد، نتيجة الرشوة والمحسوبية، وفرض الضرائب على الشعب، لتصل في النهاية إلى ثورة للجياع أكلت الأخضر واليابس.

ويذكر "أبو العباس أحمد بن علي تقي الدين المقرئ الشافعي" شيخ المؤرخين المصريين، في كتابه "إغاثة الأمة وكشف الغمة": أن أول مجاعة يخرج الناس فيها، مطالبين بعزل الوالي، كانت هي تلك التي حدثت في مصر حينما كانت تحت إمارة الدولة الإسلامية، في عهد الدولة الأموية، عندما تولى عبد الله بن عبد الملك، إمارة مصر.

ويقول: " عندما دخل عبد الله مصر تشاءم الناس منه، وكرهوا إمارته، وامتدت هذه المجاعة إلى غلاء الأسعار وكثرة تغيير الولاة، حتى أن عددهم قد بلغ في عشر سنوات، نحو خمسة ولاة، وظل هذا الأمر حتى بداية عهد الدولة العباسية.

وبالعودة للتاريخ، نجد أن ثورة الجياع في عهد عبد الله عبد الملك بن مروان قد قامت عندما جاء إلى مصر في سنة ٨٦هـ. ورفض أهالي الفسطاط استقباله، وكانت مصر في ذلك الوقت، قد غار نيلها، فلم يبقَ منه شيء، تزامن قصور الفيضان مع قدوم عبد الله، لذا وصفوه بأنه " نذير شؤم "، فبدأ إصلاحه بفرض الضرائب، فارتفعت أسعار الغلال، بجانب وانتعش الفساد.

ونقل داود الأنطاكي، الملقب بالرئيس الضريح- وكان كسيحاً مريضاً، ثم شُفي من مرضه - أن المجاعة حدثت في عهد عبد الله بن عبد الملك بن مروان، عندما تولى أمر مصر على مكرهٍ من أهلها، وجاء النيل في هذا العام على غير موعده بفيضان، ثم تلاه قحطٌ وندرة في المياه، حتى أن الناس والبهائم كانت تخوض في النيل من قلة المياه وضحالتها.

كذلك انقطعت الأعمال المرتبطة بالمياه، وتوقفت المراكب، مما أسفر عن غلاء الأسعار في المدن الكبرى، كالفسطاط، التي كانت تعتمد في ميزانيتها الداخلية على ما يأتيها من ضرائب وأموال تجارة من الأقاليم، فضلاً عن نشاط التجارة الداخلية، وتعطلت في الوقت نفسه تجارة الغلال، وتعثر دخولها إلى الأقاليم في مصر.

كما أدى كان غياب فيضان النيل في ذلك الوقت، سبباً في نفوق الماشية، وقلة رقعة الأرض المزروعة، فكان طبيعياً أن تنتشر الأوبئة، وتكثر الأمراض.

يقول ابن المقفع المصري، في كتابه " تاريخ البطارقة " : " إن هذه الأزمة والشدة، أدت إلى ارتفاع الأسعار بشكل لم تشهده مصر منذ زمن الفراعنة، وأجبرت أهل الصعيد على الهجرة إلى الريف، لطلب الغلال، وكان يموت كل يوم عدد كبير من الناس، وأيضاً ظهر أول طاعون في عهد مصر بالدولة الإسلامية، ثم زاد النيل جفافاً، وفرض عبد الله بن عبد الملك بن مروان، والى مصر مزيداً من الضرائب، فزادت الأسعار وعم الغلاء كل أرجاء مصر حتى أن قيمة الدينار والدرهم كانت تُقاس بالآلاف " .

ويتابع " ابن المقفع " المصري سارداً الأحداث فيقول: " في ذلك الوقت، أسرف عبد الله بن عبد الملك في الأموال المتبقية ببيت المال، على إنشاء المكتبات والدواوين، وتجديد مسجد عمرو بن العاص، ثم نفدت الأموال، وزادت المجاعة، حتى عمت الفوضى أرجاء مصر وظهر النهب والسرقه، وقام جنود عبد الله، باعتقال وضرب الناس في الطرقات.

وعانت مصر فوضى عارمة، وظل هذا الوضع حتى نهاية عام ٨٩ هـ عندما ثار الشعب رافضاً غلاء الأسعار وزيادة الضرائب، و مطالباً بخلع الوالي عبد الله بن عبد الملك، وهجم المواطنون على قصره في حلوان، فقرر أن يفر تاركاً مصر وسافر إلى أخيه الوليد بن عبد الملك بن مروان، خارج مصر وأخذ معه ما جمعه من أموال، وحلّى

وذهب، إلا أن بعض قطاع الطرق هاجموه بينما كان في طريقه للأردن، واستولوا على كل ما كان معه، وقيل كذلك إنه حاول رشوة واليها ليسمح له بالعبور إلى دمشق، مقر الخلافة الأموية، وبعدها تعرض للمحاكمة، وقضى بقية حياته في السجن".

وفي سنة ١٠٥ هـ تولى محمد بن عبد الملك، أمور الحكم في مصر فوقع وباءً شديداً، هرب منه الوالي الجديد إلى الصعيد، ثم عاد بعد بضعة أيام إلى الفسطاط، ليخرج من مصر نهائياً، وفي سنة ١٠٨ هـ تولى حفص بن الوليد بن عبد الملك بن مروان حكم مصر وكالعادة حدثت موجة فقر أخرى، فما كان من حفص إلا أن طلب من الناس أن يخرجوا طلباً للاستسقاء، وكانت هذه هي أول " صلاة استسقاء " يقيمها المصريون، فأغاثهم الله وأتم فضله عليهم ..

بعض المؤرخين المحدثين ومنهم الدكتور عبد المقصود أبو باشا- أستاذ التاريخ الإسلامي بجامعة الأزهر- يصف ما حدث في ذلك العصر بقوله : " إن المجاعة التي ظهرت في هذا العصر الذي سُمي بعصر الولاة، وصفها المؤرخون بأشد المجاعات التي تعرض لها المصريون، خاصة أنها أطاحت بالحاكم "

و يُضيف الدكتور أبو باشا: " إن ثورة الجياع اندلعت نتيجة ما يسمى بـ " ثورات الخوارج "، التي كانت تظهر في الأمصار الواقعة تحت حكم بني أمية، حيث كانت تندلع وتبدأ من الأمصار القريبة من مركز حكم الأمويين بدمشق، وكان آخرها ثورة عبد الله بن قيس، و التي تسببت في إلحاق خسائر كبيرة لبني أمية، إلا أن الوليد بن عبد الملك، عقد اتفاقية مع الخوارج، وجعل لهم نصيباً في الحكم "

وهنا يشير الدكتور أبو باشا، إلى أنه على الرغم من أن الأوضاع قد هدأت، إلا أنها أورثت تردياً اقتصادياً كبيراً، تسبب في حدوث مجاعة بالأندلس و مصر وهما أكبر دولتين واقعتين تحت حكم بني أمية وقتها، لعب النيل دوراً كبيراً في زيادة آثار المجاعة، وتسبب في تفاقهما بشكل كبير بعدما تأخر الفيضان في ذلك الوقت .

وتواكبت نُدرة الفيضان مع مجيء الوالي الجديد، عبد الله بن عبد الملك، لدرجة أن الناس انشغلوا في المجاعة ولم يذهبوا لاستقباله كما كان العُرف سائداً في ذلك الحين .

ويستطرد أبو باشا قائلاً: " إن المصريين أرسلوا إلى الخليفة الوليد يريدون أخاه هشام، فرفض وأرسل لهم أخاه عبد الله، فعَمَّ الفقر أرجاء مصر لذا لقبوه بـ " المكيس " (أي جامع المكُوس، وهي الضرائب)، واعتبروه نذيرَ شؤم على مصر بعدما عَمَّ الفساد وزادت الضرائب، وأُعْلِنَ إفلاس بيت المال، نتيجة إنفاق الأموال على الدواوين والمكتبات وتجديد مسجد عمرو بن العاص، فحدث ما كان المصريون يخشونه من الأمير الجديد، وعَمَّت الفوضى أرجاء البلاد، وفي نهاية عهده، هاجموا قصره، فقرر عبد الله بن عبد الملك بن مروان الخروج والتوجه إلى قصر أخيه الوالي، وتم القبض عليه في الأردن، و قيل وقتها إنه حاول رشوة واليها ليسمح له بالعبور إلى دمشق، مقر الخلافة الأموية.

والحقيقة أن العامل الاقتصادي، كان هو ما دعا المصريين إلى ثوراتٍ متعددة، كان منها رفضهم أن يُولي آخر الخلفاء الأمويين مروان بن

محمد والياً اسمه "حسان بن عتاهية" على مصر سنة ١٢٧ هـ بدلاً من الخليفة حفص بن الوليد (١٠٨ هـ)، حيث توجهوا إلى المسجد ودعوا إلى خلع الخليفة مروان بن محمد وحاصروا حسان بن عتاهية في داره ثم أخرجوه من مصر واتصلوا ببعض الثائرين في فلسطين لتوحيد كلمتهم، فما كان من الخليفة إلا أن نزل على رغبة المصريين ورتب وألغى آخر اسمه "حنظلة بن صفوان"، لكن المصريين رفضوه أيضاً وحاربوه فهُزم، فسكت الخليفة عن ذلك، ولكن، على مضض . وكان حسان بن عتاهية قد أسقط زيادات الرواتب للجند التي كان قد أمر بها سلفه، فانتهت ولايته بعد ستة عشر يوماً فقط.

وفي ولاية "يزيد بن حاتم" عام ١٤٧ هـ اجتاحت مصر موجة غلاء غير مسبوقة، أرجعها المؤرخون إلى نقص شديد في مياه النيل وتزايد ملحوظ في سكان العاصمة "الفسطاط". وفي عام ١٦٧ هـ ضاعف "موسى بن مصعب" خراج مصر وتشدد في جمعه؛ ضارياً بظروف الناس المعيشية ومجاعتهم عرض الحائط ولم يهدأ المصريون إلى أن ثاروا عليه وقتلوه في شوال عام ١٦٨ هـ. ولم تنهى حوادث العزل واغتيال قيادات الجماعات عند هذا الحد في التاريخ المصري، ففي عام ١٧٣ هـ تشدد أيضاً "عمرو بن غيلان" في جمع خراج مصر، وتعسف في تأخير رواتب الجند، فثاروا عليه جميعاً في العام ذاته وعزلوه. وكذلك يذكر المؤرخون أن "اسحق بن سليمان" الذي حكم مصر قرابة عشرة أعوام كاملة (١٧٧ هـ - ١٨٨ هـ) قد أجحف على الناس في زيادة الخراج وأنه لم يتعلم الدرس جيداً مما سبقه من حكام فشلوا

فى التعامل مع ثورة المصريين، فخرج عليه الفلاحون لقتاله، وانتهت وقائع تلك الأحداث الدامية بين الشعب والدولة بمجاعة شديدة : أسفرت عن ثورة عدها المؤرخون عظمة فى عهد " الليث بن فضل" الذى تولى مصر عام ١٩٠هـ .. وكان حول ولايته اختلافا كثيرا، فرغم كارثة الجوع التى وقعت فى عهده .. فقد اعتبره البعض ضحية، وامتدحه أبو نواس قائلاً:

أنت الخصيب وهذه مصر .. فتدفق فكلاكما بحر

هبات الجوع: العصر الطولوني والإخشيدي نموذجاً

تمتع العصر الطولوني باستقرار نسبى فى أحوال النيل زيادة ونقصانا، فلم ينخفض النيل يوما عن حد الوفاء سوى فى الأعوام "٢٧٤هـ ٢٨٢هـ ٢٩٠هـ" . ولعل ذلك هو ما دفع بعض المؤرخين إلى وصف العصر الطولوني بأنه كان من أزهى العصور التى لم تشهد أزمات اقتصادية ليس فى التاريخ الإسلامى فحسب . بل وفى التاريخ المصرى برمته. إذ عاشت مصر إبان ذلك العصر استقراراً سياسياً غير مسبوق؛ نتج عنه استقلال اقتصادى ملحوظ؛ وقد أرجع المؤرخون ذلك إلى جملة الإصلاحات التى قام بها "أحمد بن طولون" فى مصر والتى كان من أهمها إصلاح نظام الجباية، فضلاً عن وإسهاماته فى كف المظالم والنهوض بالزراعة والتجارة والصناعة؛ للدرجة التى امتلكت فيها مصر آنذاك رصيذا لا يقارن من الذهب.

وفى هذا السياق أشار المؤرخون أن الدولة الطولونية عامة لم

تخطى بنفس القدر من النهضة التي شهدتها مصر إبان حكم أحمد بن طولون، الذي لم يذكر أن شهدت مصر أي مجاعات ولم تواجه أي قلاقل اقتصادية سوى في مرضه الأخير حيث استشعر المصريون خطر الفوضى والتفكك؛ نظراً لصغر سن ولي العهد وكونه غير مؤهل لإدارة شئون البلاد بنفس حنكة والده..

وفي عام ٢٧٣ هـ شهدت مصر زلزالاً عظيماً؛ ارتجفت له مصر رجفة الموت المحتوم.. ويصف "ابن البطريك" تلك الكارثة قائلاً: "مات الناس من الجهد والجوع حتى كادوا يأكلون بذر الكتان .. وامتلات الأسواق بالموتى، فكان المصريون يحملون كل ثمانية من الموتى على جمل وتحفر لهم حفرة عظيمة ويلقون فيها. ومن هنا فإن المصريون قد عرفوا المقابر الجماعية منذ نهاية ذلك العصر الطولوني كم عرفوا مهنة الخانوتية في مجاعة الملك "بيبي الثاني" إبان الحكم الفرعوني .. كما ذكر "البطريك" أن النيل الذي كان في بداية العصر الطولوني وفيه مخلصاً لمصر كأحد أبنائها؛ فلم ينخفض منسوبه مرة واحدة في هذه الفترة، فقدت شهدت مصر انخفاضا سريعا ومفاجئا في منسوب النيل؛ خرج الناس على أثره للاستسقاء .. ولم تنته تلك الأزمات بسقوط الدولة الطولونية عام ٢٩٠ هـ بل امتدت قرابة سنتين بعد سقوط الدولة.

ويذكر المؤرخون أن مصر قد شهدت انخفاضا سريعا في عهد "هلال بن بدر" الذي تولى حكم مصر في الفترة من (٣٠٩ هـ - ٣١١ هـ). حيث تغرقت البلاد لأزمة اقتصادية كبيرة، كما يذكرون أنها

تعرضت عام ٣١٧ هـ إلى حملات من الجراد تسبب في أكل أخضرها ويابسها، ومنع الشمس من الوصول إلى الأرض آنذاك .

ومع بداية العصر الإخشيدى عام ٣٢٣ هـ شهدت مصر انحسارا ملحوظاً لأزماتها الاقتصادية، فلم يذكر المؤرخون أزمة واحدة وقعت في مصر طيلة الحكم الإخشيدى الذى استمر قرابة ٢١ عاماً. إلا أن " يحيى بن سعيد الأنطاكى " قد ذكر لنا أنه فى عام ٣٢٩ هـ حدث بمصر غلاء شديد؛ عانى الناس بسببه من شدة ووباء. وارجع المؤرخون سبب الغلاء إلى جشع التجار والسماسرة وتلاعبهم بالأسعار حيث لم تشهد مصر إبان العصر الإخشيدى نقصاً فى مياه النيل، الذى كان معياراً أساسياً للغلاء ومصدراً مهما للمجاعة. وفى عهد " أبى القاسم الإخشيدى " الذى تولى حكم مصر عام ٣٢٨ هـ تهورت أحوال العباد، وثارَت الرعية ومنعته من صلاة العشاء المعروفة آنذاك " بصلاة العنمة " فى الجامع العتيق، وإذا كان الغلاء قد أرتبط فى عمومية أسبابه بعدم وفاء النيل، فإن لم يكن فبجشع التجار واحتكار السلع أوفى حالة الكوارث و البلاء والنكبات أو عندما يحل على الظالمين عقاب رب العالمين كالجراد والفئران .

وفى عام ٣٤١ هـ أتلُفت الفئران المحاصيل وأستمر الغلاء وثار الناس ثورة عظيمة على الغلاء، وفى عام ٣٤٧ هـ عادت ثانية حملات من الجراد الكثيف؛ لتحدث أزمة عدها المؤرخون صغيرة؛ حيث أتى الجراد على كل أخضر وحجب عن البلاد ضوء الشمس. وفى ولاية "على بن الإخشيد" عام ٣٤٩ هـ

شهدت مصر غلاء لأسباب مختلفة مغايرة ن فلم تكن بسبب
عد وفاء النيل ولا بسبب جشع التجار وإنما بسبب هجرة المغاربة إلى
مصر وتزايد أعداد السكان بالعواصم، وعدم حدوث زيادة مقابلة
لها في الموارد، ولعل هذه الظروف والحوادث والأسباب تتشابه مع ما
يحدث الآن من نزوح أهل العراق والشام (سوريا) بما يقدر بأكثر من
سنة ملايين نازح لظروف الحرب والدمار؛ مما يمثل تحدياً يواجه الاقتصاد
المصري؛ ويشكل ضغطاً كبيراً على الموارد. فقد كانت مصر - ولا
تزال - هي الأم الحنون لكل العرب وعلى مر العصور.

ولم تكن هذه العوامل والأحداث سبباً كافياً لوقوع ثورة للجباة،
وإنما كانت بمثابة مقدمات لأزمة اقتصادية طاحنة وقعت في البلاد
عام ٣٥٢هـ. وعدها المؤرخون أطول وأخطر أزمة خلال الحكم الإخشيدى
على إطلاقه؛ نظراً لانخفاض منسوب مياه النيل عن حد الوفاء، والذي
استمر لتسع سنوات متتالية. ويؤكد "المقريزى" في كتابه "إغاثة
الأمّة يكشف الغمة" على وقوع تلك الأزمة قائلاً: "وقع الغلاء في
الدولة الإخشيدية أيضاً واستمر تسع سنين متتابعة.." وظل ماء
النيل يتناقص حتى بلغ أعلى مدى لتناقصه وهو ذراع عصر "كافور
الإخشيدى"، الذى كثرت فيه الفتن، ونهبت الضياع، وماج الناس
بمصر، وبموته اضطربت أمور البلاد، ومات أناس كثيرون بسبب فتن
الأمراء وحروبهم وغلت الأسعار حتى بيع القمح كل "ويبة" بدينار.

الشدائد الفاطمية:

بعد الحكم الإخشيدى لم تتحسن الأحوال في مصر سريعاً، فقد

ظلت الأوضاع المعيشية للمصريين تنحدر من سيئ إلى أسوء؛ فلا زالت البلاد بعد سقوط الإخشيد تعاني من القحط والبلاء حتى جاء "جواهر الصقلي" إلى مصر عام ٣٥٨ هـ لتستمر المجاعة ثلاث أعوام من حكمه وتبدأ عصرا جديدا من النهضة عام ٣٦١ هـ شهدت مصر إبانها انخفاضا ملموسا في الأسعار .. وعم الرخاء أرجاء البلاد.. بيد أن النعيم لم يدم طويلاً.. فقد عادت المجاعات تهدد المصريين مع تولى "الحاكم بأمر الله" عرش مصر عام ٣٨٦ هـ، وهو في الحادية عشر من عمره.. وفي بيئة سياسية مضطربة؛ حيث تربع القوى الطامعة في الحكم بالبلاد من كل جانب.. ناهيك عن المنازعات التي نشأت بين البربر والأتراك (حرب الجار كوة) و الأيونية والمجاعات والاحتكار. واختفي القمح وخطفت النساء من الطرقات.

وفي عام ٣٩٥ هـ انتشر وباء الماشية الذي ربما يسمى الآن "بالحمى القلاعية" وأنخفض منسوب النيل عام ٣٩٧ هـ وشهدت البلاد مجاعة خطيرة أسبابها مضطربة. وشدد (الحاكم) الرقابة على الأسواق، وصى الناس صلاة الاستسقاء، وتضرعوا إلى الله حتى وضعت المجاعة أوزارها، وفي عام ٤٠٣ هـ لم يف النيل ولم تزرع الأراضي غير أن (الحاكم) وزع الأموال على الفقراء. وفي عام ٤٠٦ هـ حدث العكس، حيث شهدت مصر مجاعة لم يسببها جفاف النيل كالعادة بل فيضانه؛ إذ امتلأت الشوارع بالمياه، وقطعت الطرق، وأفسدت نباتات البساتين.. وأغرقت الضياع وكانت تلك هي آخر المجاعات التي حدثت أثناء حكم (الحاكم بأمر الله) سنة ٤١٠ هـ.

ولم يمكث " الحاكم بالله " طويلاً مكبل الأيدي مشاهداً لتلك
المجاعات التي تحصد أرواح العباد، لكنه حاول إيجاد حلول للمجاعات
والقضاء عليها، فأرسل في أول الأمر "بطريك النصارى" ليسافر إلى
الحبشة وقد أجله ملك الحبشة وأكرمه وفتح سدّ في النهر؛ حتى
وفي النيل. كما أنه أرسل " للحسن بن الهيثم " الذي أعلن قدرته
على معالجة فيضان النيل ونقصانه. ولكنه فشل وأعتذر لطبيعة؛
نظراً لأسوان. مما دفع "الحاكم بأمر الله" إلى تفعيل قوة الدولة المركزية
المهملة الآن في مصر لمراقبة الأسعار. ووقعت أولى المجاعات قبل عام
من تولى " الحاكم بأمر الله " حكم البلاد سنة ٣٨٧هـ .

وفي عهد (الظاهر لإعزاز دين الله بن الحاكم) الذي تولى الحكم
سنة ٤١١هـ خلفاً لأبيه " الحاكم بأمر الله " واستمر سنة ٤٢٧هـ
وشهدت البلاد عامي " ٤١٤هـ و ٤١٥هـ " مجاعة مخيفة؛ أرجعها
المؤرخون إلى ضعف الخليفة وتراخيه عن الإصلاح، ونقص منسوب
النيل. وسطر (المقريزي) لمجاعة ٤١٧هـ وأنفرد بها وأرجعها إلى زيادة
الفيضان، وفي عام ٤٢٤هـ تكررت مجاعة جديدة، نظراً لتأخر
وفاء النيل أربعة أشهر كاملة؛ كادت أن تعصف بالبلاد؛ لولا مراقبة
الأسواق إلى أن جاءت زيادة النيل .

الشدة المستنصرية؛

لم تكن الأحوال المعيشية بمصر في عصر "المستنصر بالله
الفاطمي" أفضل حالاً مما كانت عليه أيام " الحاكم بالله " فقد ظل

النحس يطارد الفاطميين في كل عصر. وكما قال الشاعر:

تحكموا فاستطالوا في حكومتهم وبعد حين كأن الحكم لم يكن
لو أنصفوا أنصفوا لكن بغوا فأتى عليهم الدهر بالآفات والمحن
فأصبحوا ولسان الحال ينشدهم هذا بذاك ولا عتب على الزمن

فبعد مجاعة الفئران التي وقعت في مصر عام ٤٢٦ هـ في نهاية ولاية "الحاكم بأمر الله الفاطمي". وفي مستهل النصف الثاني من القرن الخامس الهجري من تاريخ الدولة الفاطمية في مصر وتحديدًا في عصر الخليفة "المستنصر بالله الفاطمي" الذي كان من أطول الخلفاء حكمًا لمصر ١٠٣٦-١٠٩٤ م / ٤٢٧-٤٨٧ هجرية أي "ستين" عامًا متواصلة. شهدت الفترة الأولى من حكمه ازدهار الدولة في جميع المجالات، والذي كان يعتبر من العصور الذهبية في مصر ولكن سبحانه الذي يبدل الأحوال ولا يتبدل انقلبت الأحوال في العام الثلاثين من حكم المستنصر؛ لتدخل مصر مرحلة رهيبة جدا لم يتخيلها أي إنسان. وقد أسهب المؤرخون في ذكرها.. حيث حدثت "الشدة المستنصرية" أو ما يعرف "بالشدة العظمية" وهو مصطلح يطلق على المجاعة والخراب الذي حل بمصر نتيجة غياب مياه النيل بمصر لسبع سنين متواصلة عرفت "بالعجاف"

ووقعت "الشدة المستنصرية" في عام ٤٥٧ هجرية وكان المستنصر يحتفل بالعام الثلاثين لبلوغه عرش الدولة العلية ذات القوة البهية مابين الأمم.. وكانت الدولة الفاطمية آنذاك تضم مصر والشام

والحجاز وجزء من اليمن إلى جانب النوبة " شمال السودان " وبرقة " شرق ليبيا ". ولكن في هذا العام حدث شيء لم يكن في الحسبان. حيث انخفض منسوب مياه النيل بشدة وقسوة لم تعرفها مصر من قبل حتى وصل ٢ ذراع. وكان مياه النيل قد استعصت على الجريان وأقسمت ألا تأتي لمدة ٧ سنوات. وهو نفس عدد السنوات العجاف التي حدثت في زمن رمسيس الثاني الذي طالت مدة حكمه للبلاد. و ضربت مصر بالنزائل، وعرفت سنوات الشدة في مصر بالسنين العجاف تم ذكرها في "عشر آيات بالتوراة .. وتسع آيات بالقرآن الكريم" والتي أنقذها النبي يوسف الصديق من براثن المجاعة والمهانة.. وخرجت مصر بفضل من الله ثم سياسة النبي يوسف الحكيمة اقتصاديا من الأزمة..

وحول ماجرى في مصر من جراء تلك الكارثة؛ روى المؤرخون حوادث عديدة يشيب لها الولدان؛ إذ تصحرت الأرض وهلك الحرث والنسل وخطف الخبز من على رؤوس الخبازين، وأكل الناس القطط والكلاب حتى أن بغلة وزير الخليفة الذي ذهب للتحقيق في حادثة أكلوها، وعندما علم الوزير بسرقة بغلته غضب غضبا شديدا، وتمكن من القبض على اللصوص وقام بشنقهم علي شجرة. وعندما استيقظ في الصباح وجد عظام اللصوص فقط، وعلم أن الناس من شدة جوعهم قد قاموا بأكل لحوم اللصوص. ويحكى أن الخليفة المستنصر نفسه قد جاع، لدرجة أنه افترش الحصير في قصره، وباع ما على مقابر آبائه من رخام ليقتات به، وقبل الصدقة من ابنة أحد علماء زمانه..

ونظراً لتعذر وجود الأقوات وغلاء الأسعار حيث بلغ سعر رغيف الخبز إلى ١٥ دينار دفعة واحدة؛ مما اضطر الناس إلى الهجرة من مصر وكانت وجهتهم إلى الشام والعراق والحجاز من وطأة هذه الأزمة.. ويذكر أن أم الخليفة هاجرت هي وبنات الخليفة إلى الشام تاركة ابنها الخليفة إلى مصيره .. واضطر بعض أعيان الدولة أن يخدموا الناس لقاء كسرة من الخبز.. وبيعت حارة بأكملها، مكونة من عشرين داراً بطبق من الطعام؛ حتى سميت "بحارة الطباق" .. كما اضطر بعض الناس إلى أكل لحوم القطط والكلاب الميتة والبحث عن شرائها، وكان يباع الكلب بـ "٥ دنانير" والقطعة بـ "٣ دنانير" .. وبارت بالطبع الأراضي الزراعية الخصبة وتوقفت الصناعة ومن ثم التجارة؛ وانتشرت البطالة ومن ثم تفشت الجرائم بمختلف أنماطها من سرقات وعمليات السطو المسلح وتشكيل العصابات؛ وأدى ذلك إلى انفلات الأمن الذي شمل جميع قطاعات الدولة بما فيها الجيش.. وذكر "ابن إلياس" أن الناس أكلت الميتة وأخذوا في أكل الأحياء وصنعت الخطاطيف والكلاليب لاصطياد المارة بالشوارع من فوق الأسطح .. وتراجع سكان مصر لأقل معدل في تاريخها..

ويروى "المقريزي" أن سيدة غنية من نساء القاهرة آلتها صباح أطفالها الصغار و هم يبكون من الجوع؛ فلجأت إلى شكومية حليبها و أخذت تلب ما فيها من مجوهرات واختارت عقداً ثمينا من اللؤلؤ تزيد قيمته على ألف دينار وخرجت تطوف أسواق القاهرة و الفسطاط فلا تجد من يشتريه. وأخيراً استطاعت أن تمنع أحد

التجار بشرائه مقابل كيس من الدقيق، و استأجرت بعض الحمالين لنقل الكيس إلى بيتها، ولكن لم تكد تخطو بضع خطوات حتى هاجمته جحافل الجوع، فأغتصبوا الدقيق، وعندئذ لم تجد مفرا من أن تراحمهم حتى اختطفوا لنفسها حفنة من الدقيق؛ وحزنت لم يحدث من الجماهير الجائعة، وتساءلت في نفسها ربما أصنع اليوم رغيفا ولكن كيف لي أن أتى برغيف مثله وقد بعد أثمن ما أملك، فغن أطعمتهم اليوم؛ كيف لي أن أطعمهم غداً، وعلى الفور عكفت المرأة على عجن حفنة الدقيق و صنعت منها قرصا صغيرة وخبزتها، ثم أخفتها في طيات ثوبها.. و انطلقت إلى الشارع صائحة : الجوع الجوع... الخبز الخبز... والتف حولها الرجال و النساء و الأطفال و سارت معهم إلى قصر الخليفة المستنصر ووقفت على مصطبة ثم أخرجت قرصا من طيات ثوبها، و لوحته به و هي تصبح : أيها الناس.. فلتعلموا أن هذه القرصة كلفتني ألف دينار... فادعوا معي لموالي السلطان... يا أهل القاهرة يا أهل القاهرة.. أدعو لمولانا " المستنصر " الذي أسعد الله الناس بأيامه وأعاد عليهم بركات حسن نظره؛ حتى تقوم هذه القرصة بألف دينار... يا أهل القاهرة....)، وظلمت حتى سمع (المستنصر) فأحضر الوالي وأقسم بالله جلت قدرته إن لم يظهر الخبز في الأسواق وينحل السعر؛ ضرب رقبتة وانتهب ماله.

ويذكر المؤرخون أن "الحسن بن الهيثم" في زيارته لمصر إبان الدولة الفاطمية، قد أشار عليهم ببناء " سد عالي " على النيل. بيد أن مشروعه قد قوبل بالرفض من الخلافة؛ فكانت النتيجة ما حدث

من شدة. وظلت الفكرة حتى كتب لها التنفيذ في ستينات القرن العشرين ببناء السد العالي الذي وقى الله به مصر خطر السنين العجاف التي غالبا ما كانت تستمر بالسبع سنين. ويذكر أن محمد علي بعد خروج الحملة الفرنسية كانت مصر أمامه ليحكمها منذ ١٨٠٣م إلا أنه وبذكاء رفض الولاية ومنسوب الفيضان منخفض، ولم يقبل إلا بعد انتهاء الأزمة التي حسبت على خورشيد باشا الوالي العثماني.

ولما كان " القائد الضعيف فتنة " وأن أمور الحكم لا تستقيم تحت ولاية حكام ضعفاء.. فقد ذكر المؤرخون أن المستنصر كان واليا ضعيفا؛ ينساق سريعا لشكايات العامة، ويعطى أذنه لكل من هب ودب لدرجة أن من بين وزراءه من لم يستمر في الولاية سوى يوماً واحداً.. وأنه خلال تسع سنوات فقط تعاقب على ولاية المستنصر أكثر من أربعين وزيراً. فقد المرخون ذلك مؤشراً على كثرة المشاحنات واختلاف السياسات ومذاهب الوزراء.

ولم تختلف الأوضاع هنا كثيرا عن ما شهدته مصر إبان ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١م مما عُرف تاريخيا بـ " الفوضى الخلاقة " والتي أسفرت عن اضطرابات سياسية عديدة كان لها بالغ الأثر على الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية في البلاد. ومن حكومة إلى حكومة وصل عدد الوزراء والمحافظين خلال عامين من الثورة قرابة ١٧٠ وير ومحافظ، لم تزد فترة بقائهم في السلطة عن أربعة أشهر في المتوسط وهو ما حمل خزانة الدولة أعباءً مالية إضافية ذهبت في

صورة معاشات لوزراء سابقين.. لدرجة أن هناك وزارة واحدة مثل التربية والتعليم تعاقب على ولاياتها خمسة وزراء خلال عامين .. بينما لم يزد عدد الوزراء الذين تقلدوا نفس الوزارة خلال ثلاثين سنة هي حكم مبارك عن ٥ وزراء.

ووصف المؤرخون تلك الفترة من حكم المستنصر بـ " الفوضى غير الخلاقة ". تلك الفوضى التي تسببت بشكل كبيره فى إعادة فرض على العسكر على المشهد السياسى المرتبك آنذاك. حيث ساهمت تلك أوضاع المتردية فى تزايد نفوذهم، باعتبار العسكر أو الجيش هو القوة الوحيدة المنظمة فى تلك الفترة والتي يحكمها بشكل كبير مبدأ " السمع والطاعة ". وكذلك فقد كانت أيضاً الجهة الوحيدة التى بوسعها تقرير مصير ليس الحكم الفاطمي فحسب ولكن تقرير مصير البلاد برمتها. وكذلك بإمكانها وحدها إحداث التغيير المنشود. ليس فقط بما تملكه من قوة ونفوذ ولكن لرغبة العسكر ذوى الطوائف المختلفة فى الحصول على مزيد من الثروة والنفوذ.. والفارق الوحيد بين ما شهدته مصر فى ١٥ يناير وتلك الفترة هو الدور الخفي الذى لعبته المؤسسات القضائية فى المشهد السياسى وخرجت من اللعبة وهى الرابع الوحيد من الفوضى الخلاقة التى شهدتها البلاد . أما عن التداعيات السياسية فكان لها أكبر الأثر فى تفاقم الأزمة حيث انقسم الجيش الفاطمي إلى جنود مغاربة وأتراك وسودانيين و أرمن وشوام . حيث انشق عن الجيش آنذاك " ناصر الدولة ابن حمدان " الذى هرب إلى الدلتا والإسكندرية، وأعلن سقوط الخلافة واسقط

الدعاء للخليفة علي منابر هذه المناطق، وحارب الجند السودانيين حتي أخرجهم إلي الصعيد... وقام ابن حمدان الذي كان زعيما للجند الأتراك بمحاصرة القاهرة؛ تهييدا لإنهاء الدولة الفاطمية، والدعاء لنفسه خليفة .. وبالفعل دخلها وقبض علي أم الخليفة السودانية، ونهب أموالها ثم تركها بعد دفع فدية، ولم يتوقف عند هذا الحد بل انتقل لنهب الخليفة نفسه، ويذكر المؤرخون أن بن حمدان لم يجد في قصر الخليفة سوى الحصير الذي ينام عليه، إذ أنه باع كل شيء في قصره من ثياب وسلاح وذخائر وخف وأساس لياكل، وكان يفرش الحصير...!!

و عندما تمكن أحد قادة الأتراك ويسمى " الدكرز " بقتل ابن حمدان، فاستقر الوضع مع الفاطميين وقام الخليفة بالاتصال سرا ببدر الجمالي، الذي كان وقتها واليا لعكا تحت قيادة الخليفة المستنصر كما كان يعرف بإخلاصه الشديد للمستنصر الأمر الذي دفع المصر إلى استدعائه وطلب مساعدته في القضاء علي الفتنة التي دبت في الجيش.. وعلى الفور استجاب " بدر الجمالي " لدعوة الخليفة وتمكن من قتل " الدكرز " وتولي وزارة مصر، وتمكن بدر بالفعل من إخضاع جميع الأتراك في الجيش، وقتل عدد كبير منهم، ثم استولي علي الدلتا والإسكندرية، التي عرفت حينذاك بكرهها الشديد للحكم الفاطمي " ذو المذهب الشيعي. لدرجة أنهم خالفوا مع ابن حمدان وساعدوه ضد الخلفية حتى تمكن ابن حمدان من إخضاع الصعيد له. ورغم تعاسة الفاطميين في إدارتهم للبلاد، إلا أنه يبدو أن " بدر الجمالي " كان الأوفر حظا منهم؛ إذ تزامن ظهوره بالمشهد السياسي

وتوليه لمنصب رئاسة الوزراء جريان النيل وانفراج الأزمة، حيث تمكن "الجمالي" من تحصين القاهرة وإعداد أسوارها، والتي لا يزال الباقي منها حتى الآن شاهداً على هذه الأحداث، في الأبواب الشهيرة لها، كما تمكن بدر الجمالي من تحسين أحوال المصريين، وقام بإلغاء الضرائب على أصحاب الأراضي والمصانع والتجارة لمدة سنتين لتخفيف الأزمة . ومن ثم تعود الدولة ولو شكلاً إلى الحياة . واستمر الوضع هكذا إلى أن سقطت الدولة الفاطمية علي يد صلاح الدين الأيوبي في ٥٦٧ هجرية.. أي بعد سنوات طويلة من الشدة المستنصرية.

الفصل الرابع

ثورتا القرن

والصراع بين الجوع والكرامة

ثمة علاقة وطيدة بين إطالة فترة الحكم
وتعرض الشعوب للمجاعة. فكلما طالت فترة
حكم الرئيس كلما تمكنت حاشيته من فرض
سياج حديدي بينه وبين شعبه، حتى يتمكنوا
من إتمام أعمال النهب والسرقة لوارد البلاد
التي هي بالأساس قوت للشعب وملك له.

تمهيد:

إن يوم الجمعة الموافق ١١ من فبراير لعام ٢٠١١م كان يومًا فارقًا
في حياة المصريين جميعًا، ففي الوقت الذي كاد الشعب المصري فيه
أن يستسلم لفكرة توريث حكم مصر من مبارك الأب إلى مبارك
الابن، ويعتبر مشروع تسليم مفاتيح القصر الجمهوري إلى جمال
مبارك قدرًا ومكتوبًا على الجبين، ثم فوجئ العالم بهذا الشعب يجبر
الرئيس الفرعون الذي ظل داخل قصر الرئاسة نحو ثلاثين عامًا على
رفع الراية البيضاء ويعلن تنحيه عن السلطة وتسليم مهام منصبه
للمجلس الأعلى للقوات المسلحة.

ولقد كتب التاريخ المصري هذه الواقعة بمداد من ذهب من خلال

الوثيقة التي وقع عليها الرئيس المخلوع والتي تم نشرها في الجريدة الرسمية (جريدة الوقائع المصرية) في ١٢ فبراير ٢٠١١م وبتوقيع نائب رئيس الجمهورية عمر محمود سليمان.

فمنذ حوالي ٤٥ قرنًا من الزمان وتحديدًا في أواخر الأسرة السادسة شهدت مصر ما يشير إليه الكثير من المؤرخين أول ثورة في التاريخ المعلوم المكتوب للبشرية إنه فرعون مصر وكان اسمه (كارع بيبي الثاني) تولى العرش وعمره ٦ سنوات وحكم حتى بلغ من العمر مائة عام (٩٤عام) يحكم فيها دولة من أقدم الدول في التاريخ بدأ حكمه وأمه وصية عليه وأنهى حكمه وهو يضع نهاية لحكم الأسرة السادسة في الدولة المصرية القديمة ولعبر سنه أصبح غير قادر على كسب طاعة أمراء الأقاليم واستبدوا بالشعب فثار الشعب على هذا الملك لقد كشفت عنها بردية غاية في الأهمية أكتشف في مطلع القرن الثامن عشر وهي ١٦ صفحة في منطقة "منفيس" قرب أهرامات سقارة بالجيزة وهي حالياً في المتحف الوطني في الليديد بهولندا وتمت ترجمتها وأطلق عليها اسم بردية "بيور" وهو حكيم مصري الذي سجل أحداث أول ثورة في التاريخ.

أولاً: لماذا قامت الثورة :

ما أروع الحرية.... وما أقبح الاستبداد والطغيان... وما أجمل الإبداع الذي يتفجر من وجدان مؤمن بمعان نبيلة صادقة تدافع عن حرية الإنسان وترسى مبادئ العدل والمساواة ، تلك التي دعت إليها

كافة أديان السماء وأكدها كل فلاسفة الأخلاق فى العالم كأساس للحكم فى كل زمان ومكان. لقد جاءت ثورة ٢٥ يناير بعد انتظار طويل وسنوات من الفساد والضياع، تلك التى عاشها المجتمع المصرى بكل طوائفه وأطيافه لسنوات تجاوزت الثلاثين عاماً، أخرج خلالها المفكرون والمبدعون أفكاراً وإبداعات متنوعة وبجودة تكشف بحق عمق الفساد وبشاعة الجرائم التى ترتكب يومياً فى حق الشعب، فحت مرأى ومسمع من الجهات الرقابية والأمنية والمنظمات الحقوقية، كما خرجت المقالات الصحفية واللقاءات الإعلامية لتبين - عن قرب - لصانع القرار بالصوت والصورة كافة الأوجاع الاجتماعية والصحية وفداحة المشكلات الاقتصادية وبشاعة المعاناة الإنسانية التى يتكبدها المواطن المصرى كلما احتك بأفراد النظام أو بمؤسساته، وفى كل إبداع يخرج أو لقاء يتم كانت الحكومة " وذن من طين وأخرى من عجين) متخذة من "ثقافة التطنيش" منهاجاً لها فى كل شيء. لقد تبلد حس النظام وشاخت رموزه، وتسلسل حلم الخلاص إلى نفوس العامة، وتخيلنا .. وكان كلنا أمل فى أن يقوم النظام بإصلاح ذاته وتقويم عيوبه؛ حرصاً على استقراره واستمراره، ولكن يبدو ذلك فقط هو عقل العامة الطامحة، فلم يخطر ببالنا أنه نظام هش جبان، لم يملك من مقومات البقاء سوى صوت أجش يهدد كل من يرفع صوته بقانون الطوارئ، ذلك القانون الذى أعده النظام خصيصاً لحماية مفاسده.

وكلما حدث فوران شعبى فى أى مكان كان، كالذى حدث فى

تونس مثلاً يخرج إلينا رموز النظام الموقرين للتهديد والتصريح بأن مصر ليست تونس ، بمعنى أن الشعب المصرى أجبن فى نظرهم وأقل وطنية من الشعب التونسى، وتناسوا جميعاً وعن جهل أن المصريين أقوى وأجبر وأعتق من أى شعب كان ، فنحن شعب له حضارة وتاريخ، فالمصريون هم أول من نظم الثورات وقادها فى تاريخ الحضارات الإنسانية، ولم ينسى التاريخ ثورة الجياع التى قادها الفراعنة المصريون للإطاحة بنظام الملك بيبي فى الأسرة السادسة، الذى حكم مصر لأكثر من ٩٠ عام، كما لم يغفل التاريخ ثورة الجياع التى قادتها امرأة ضد المستنصر بالله الفاطمى، وغيّرت نظامه بالكامل وكادت أن تقضى عليه لولا أن استجاب لكل مطالبها. لقد خسر المصريون فى عهد مبارك مكتسبات اجتماعية واقتصادية عديدة، تأثرت فيها روح الانتماء، وانخفضت الخصائص السكانية لأبناء الوطن، فانهار التعليم بجميع مكوناته، ولم تحصل الجامعات المصرية على ترتيب ضمن ٥٠٠ جامعة عالمية، وأمية متفشية حتى بين حملة المؤهلات المتوسطة، ضرائب مفروضة على كل شيء حتى المشي على الطريق، نظام يقوم على العطاء لمن لا يستحق، ساءت العلاقات بين المصريين أنفسهم، ضاعت كرامة المصرى وحقوقه فى أى بلد يعمل بها، تفتشت الجريمة بشتى أنواعها، وعاش المصرى غريب فى بلده، وكاد الشباب أن يكون على حافة الهاوية، فأصبحت تجارة المخدرات وتسويقها أمراً مباحاً ، وأصبح رجال الشرطة وبعض من رجال القضاء ورموز النظام عناصر فاعلة فى الاتجار بالمخدرات

والسلاح وتهريب الآثار. كما تم وئد الموهبين وتقييد أفكار المبدعين وأساتذة الجامعات والعلماء، الذين راح بعضهم يبحث له عن عمل اضافى حتى يتمكن من تلبية مطالب العيش بشكل كريم، ووضعت أفكارهم وأبحاثهم - التى ظلوا يحلمون بإخراجها لخدمة الوطن - جميعها على أرفف المكتبات الحكومية، وظل هذا الاستهتار بالعلم والعلماء، حتى تفشت البطالة بين حملة الدكتوراه فى كثير من التخصصات، ولم يدرك النظام أن دولة تتجاهل العلم، وتضع العلماء فى مؤخرة اهتماماتها ليس لها مستقبل سوى الفقر والتخلف والحرمان والجهل والمرض.

ويمكن النظام من خديعة نفسه، فراح يواجه الفقر بإنشاء بعض الأجهزة التى يخدع بها المواطنين، مثل المجلس القومي للطفولة والأمومة، وصندوق مكافحة الإدمان، وصندوق تطوير العشوائيات ، والصندوق الاجتماعى للتنمية، وأخذ يضح المعونات الأجنبية لهذه الأجهزة التى جعل تبعيتها لمجلس الوزراء مباشرة، مليارات من المعونات الأجنبية خصصت لهذه الأجهزة ، وأسفرت كل هذه الجهود ومليارات الدولارات عن :

أسفرت جهود المجلس القومى للطفولة والأمومة عن أن مصر من أكثر دول العلم من حيث عمالة الأطفال، وختان الإناث، والاتجار بالبشر وتجارة الأعضاء، وراحت معظم المنح لجيوب العاملين فى هذه الأجهزة، الذين كان يتقاضون رواتبهم بالدولار وأحياناً باليورو، وانتهى الأمر بتحويل هذا الجهاز إلى وزارة بين يوم وليلة، وزارة لم يتجاوز عدد العاملين فيها ١٠٠ فرد .

كما أدت المعونات الموجهة لصندوق الإدمان إلى انتشار البنجو بين تلاميذ المدارس الإعدادية ومدرجات الجامعة، وعلى ناصية الطرقات، وكان هذه المعونات خصصت لانتشار التعاطي وليس منعه، فكيف تمنع الحكومة تداول المخدر وتغض الطرف عن زراعته والاتجار فيه.

أما صندوق تطوير العشوائيات، فوفقاً للإحصائيات والتقارير المحلية والدولية تتضاعف العشوائيات عام بعد الآخر نظراً لتزايد معدلات الفقر وغياب سياسة واضحة للمناهضة، فمثلاً كانت المحليات تغض الطرف عن البناء في الأراضي الزراعية ، أثناء انتخابات مجلسي الشعب والشورى، حتى يضمنوا ولاء المخالفين وكسب أصواتهم لصالح مرشحي الحزب الوطني الحاكم، ومن ثم فكلما ساهم الصندوق في تطوير منطقة عشوائية أو إخلائها، ظهرت مناطق أخرى أشد عشوائية وضراوة.

أما الصندوق الاجتماعي للتنمية، فقد كان الخدعة الكبرى التي خدع بها النظام شعبه، مؤكداً أن هذا الصندوق جاء لمحاربة الفقر والحد من البطالة ، وتم ضخ مليارات الدولارات فيه من القروض للمشروعات الصغيرة إلى المنح التي تقدم في صورة خدمات للمواطنين، وكشفت كل الدراسات والتقارير أن هذا الجهاز استشري فيه الفساد للركب ، حيث تضاعفت نسب الفقراء في مصر حتي أن ١٥ مليون مواطن مصري يعيشون تحت خط الفقر وأكثر من ٨٠٪ من الشعب يحصلوا بجداره علي لقب فقير فضلاً عن انتشار البطالة بين كافة الفئات والمؤهلات ، وذلك لأن الصندوق تحول إلي القيام بوظيفة

بنك مصرفى بإجراءات مخففة، كان يحصل على القرض من الدول الأجنبية بـ (٠,٥ ٪) ويقرضه للجمعيات الأهلية (١٠,٥ ٪) وتقوم الجمعيات بإقراضه للشباب من ١٦ إلى ١٨ ٪، مما أدى إلى تعثر الشباب عن السداد وفشلت مشروعاتهم، وأصبحت الفوائد تتضخم داخل الصندوق، الذي تم تعيين معظم العاملين فيه بالواسطة والأقارب ومن المحاسيب، ولم يكف النظام عن خدعة الشعب فأنشأ هيئة الرقابة الإدارية وجعل لها فروع فى كل محافظة، وخصصها فى كشف الفساد، وجعل القائمين عليها من جهاز الشرطة ومؤسسة الجيش أولئك الذين تم تدريبهم على الولاء للنظام ومناصرة الأقوياء والمحاسيب ومحاسبة الضعفاء؛ وصحونا جميعاً بعد ٣٠ عاماً من الحكم، مكتشفين أن النظام قد سرق الشعب، وبدد ممتلكاته لصالح حفنة من رموزه المفسدين، وكان جهاز الرقابة جاء لحماية هؤلاء، والتستر على مفسدهم فى كل المجالات، وأن معظم القضايا التي كشفها الجهاز هى لأفراد ارتكبوها لظروف بيئية معينة، ربما دفعتهم إليها بيئة الفساد المستشرية فى المجتمع

وبالإضافة إلى ما سبق فقد كان ملف التوريث الذي تم فتحه منذ ١٩٩٣ هو الشرارة الأولى التي أحرقت الجرن، وأشعلت الثورة فى نفوس الشباب والعامة، حتى أطاحت -وسوف تستمر- بكافة رموز هذا النظام الفاسد، وإذا كان كل ما كتبناه سلفاً بمثابة إرهابات أو دلالات لقيام ثورة ٢٥ يناير؛ فإننا نود الإرشاد إلى آليات قيام هذه الثورة العظيمة، فإذا كان كل نظام يحمل بذور فناءه، فإن نظام مبارك

حمل الكثير من المفاسد التي أنهته بعد ٣٠ عاماً . وأن الفيس بوك الذى أنشأه النظام ليلهي الشباب عن المشاركة في العمل السياسي ، ذلك الذى حرمه علي منظمات المجتمع المدني، تحول إلي أداة قوية ومارد انفجر في وجه النظام، نظم خلاله الشباب أنفسهم، وحددوا إشارة البدء ومناطق الالتقاء وخالفوا علي الأهداف، وبالتالي فقد نجح برنامج الفيس بوك في تحقيق ما عجزت كافة منظمات المجتمع المدني الحقوقية عن تحقيقه علي مدار سنوات طويلة، نظراً للقوانين التي وضعها النظام والتي كانت تحد بدورها من نشاطات هذه المنظمات وخاصة ممارسة الأنشطة الدينية والسياسية، وما أود تأكيده أن هذه الثورة ثورة فردية لم تكن مؤسسية بأي شكل ، ولكن ما إن اندلعت حتى انضمت كافة أطراف الشعب ومؤسسات المجتمع المدني، مما سرع بنجاحها، فضلاً عن الدور الإعلامي الرائع أثناء اندلاع الثورة .

وبعد نجاح الثورة في تنحي الرئيس والقضاء علي رموزه. أدرك الشعب أن الثورة لم تنجح سوى بنسبة (٥٠٪) فقط ، وهو دورها في تنحي الرئيس ،الذي في نظري كان سوف يتنحي قريباً بفعل الطبيعة سواء بالموت أو بالعجز ، وقضت علي ملف التوريث، وإن كانت الـ (٥٠٪) الأخرى تتمثل في ثورة الشعب علي ذاته، ثورة الشعب علي كافة القيم ، والعادات ، والتقاليد، والأفكار التي كرسها فيه النظام لمدة ٣٠ عاماً. وراح الشعب يصير علي إحياء أصالته، وتأكيد الانتماء لتراب الوطن، وأنه ليس في حاجة إلي هذا

النظام فهو يستطيع متى صدقت العقيدة أن يحقق الأمن لنفسه بنفسه، ودون الحاجة إلى النسق الأمني الذي تخصص سنوات طويلة في إرهاب الشعب دون حمايته، كما يستطيع الشعب أن يتخلي عن كافة الأنساق ويستغني عن الخدمات التي كان يقدمها النظام للمواطنين، وقام الشعب بإحياء نسق التكافل الإجتماعي بمفهومه الشامل ، التكافل، المادي، والاجتماعي، والأدبي، والأمني ، وغيره ليرسل للعالم اجمع أننا قادرون علي إدارة أنفسنا بأنفسنا، وأن الحاكم هو عامل عند الشعب، وطالب بعقد اجتماعي جديد بين الشعب والحكومة ، عقد يملئ شروطه الشعب وليس للحكومة، يضع لكل منهما واجباته وحقوقه، والشعب هو المستفيد والمراقب، لقد نجحت الثورة في إحياء الأصالة المصرية بمفهومها الشامل ، ولكن حتي تستمر الثورة في اتجاهاتها كان لازماً علينا أن نتجاوز مفهوم المسؤولية الاجتماعية إلى مفهوم المسؤولية الوطنية ، ونغض الطرف عن مصالحنا الشخصية، ومطالبنا الفئوية ، وننظر فقط إلى مستقبل مصر ونشعر أكثر بمسئولياتنا تجاه الوطن، وأن يعمل كل منا قدر استطاعته علي إصلاح ذاته، ويؤدي دوره كما ينبغي، مفتخراً بأنه يساهم بذلك في بناء مصر.

وعلى أية حال فقد تعددت أسباب قيام ثورة ٢٥ يناير فمنها ما هو سياسي، ومنها ما هو اجتماعي، ومنها ما هو اقتصادي، فالثورة المصرية لم تكن حدثاً مفاجئاً إلا بالنسبة لأولئك الذين تعاملوا عن التعامل مع مقدماتها، وهي كثيرة ما بين اقتصادية وسياسية

واجتماعية ونفسية، فأسباب الغضب ظلت تتراكم منذ ستون عامًا تقريبًا تبذرت فيها كل أرصدة القوة المصرية حتى تشكلت أزمة مجتمعية خصوصًا في السنوات العشر الأخيرة، والتي لها أبعاد أربع:

(١) الأزمة السياسية:-

وتتمثل في جمود المشاركة السياسية وتكشف عن الأزمة مؤشرات متعددة أهمها الانفراد باتخاذ القرار السياسي بواسطة الحزب الحاكم تزاوج الثروة بالسلطة بالإضافة إلى تعددية سياسية مقيدة لم تسمح بقيام سوى الأحزاب التي ترضى عنها السلطة، وبالتالي ضعف الأحزاب السياسية عمومًا بالإضافة إلى القيود المتعددة على حرية التفكير وحرية التعبير وحرية التنظيم

بالإضافة إلى تزوير إرادة الشعب في استفتاء التعديل الدستوري ٢٠٠٧م وانتخابات برلمان ٢٠١٠م حيث يربط الكثير من الخبراء بين التعديلات التي أجريت على الدستور في ٢٦ مارس ٢٠٠٧م والتي كانت مزورة بدورها وتزوير برلمان ٢٠١٠م بعدها، وأكد المستشار محمود الخضيرى في جريدة الدستور أن مصر تنفرد بنوع معين من التزوير في الانتخابات ليس كباقي الدول التي يمكن أن يحدث بها شراء الأصوات أو استغلال النفوذ أو العصبية القبلية والعائلية وغيرها التي تمارس حتى في أكثر الدول الديمقراطية، فالتزوير لدينا هو تزوير مؤسسي تقوم به الدولة عن طريق أجهزتها التنفيذية ونفوذها القوي في دوائر الحكم وداخل لجان الانتخابات لتغيير النتيجة لمصلحتها.

كما دأبت الحكومة المصرية على تعذيب خصومها السياسيين وانتشر بعد مقتل أنور السادات وصارت ظاهرة واضحة وسمة أساسية للحكم في مصر وأسلوبًا رئيسيًا لإدارة شئون البلاد، ولما زاد الأمر أحست به كل الهيئات المعنية بمتابعة التعذيب حتى أن لجنة الشريعة الإسلامية بنقابة المحامين أكدت في يناير ١٩٩١م أنها رصدت ٢٥٠ ألف قرار اعتقال وأن حوالي ٣٠٠ معتقل مازالوا قيد الاعتقال منذ ثلاث سنوات، ويتجدد اعتقالهم تلقائيًا، وأشارت اللجنة في ورقة أعدتها للتوزيع على المحامين إلى صدور ٢٥٠ قرار اعتقال لمعارضين مؤتمري السلام واحتجاز أكثر من ثلاثمائة فلسطيني اعتقالات مفتوحة غير محددة المدة بسجن أبي زعبل مع طرد العديد منهم خارج البلاد. كما أشارت اللجنة إلى صدور ما يزيد على سبعة آلاف تقرير طبي يؤكد وقوع التعذيب للمعتقلين حيث تم استخدام الصعق الكهربائي والجلد بالكرباج وانتهاك الأدمية.

وعلى الرغم من مضي أكثر من ثلاثة عقود على الانتقال من صيغة التنظيم السياسي الواحد إلى صيغة التعددية الحزبية المقيدة في مصر إلا أنها لم تشهد قولاً ديمقراطيًا حقيقيًا، حيث أفضت عملية الانتقال إلى مجرد هامش ديمقراطي يتسع أحيانًا ويضيق أحيانًا أخرى طبقًا لإرادة السلطة الحاكمة، ولذلك فقد أصبح النظام السياسي المصري يمثل حالة نموذجية لنجاح النخبة الحاكمة في تفريغ عملية التحول الديمقراطي عن محتواها الحقيقي، حيث اهتمت هذه العملية على النحو الذي يعزز من قدرة النظام على

الاستمرار في السلطة وذلك اعتمادًا على آليات دستورية وقانونية وسياسية وأمنية، ونتيجة لتعثر عملية التحول الديمقراطي فقد بدأت تتراكم مع مرور الوقت ملامح ومؤشرات أزمة بنائية في النظام السياسي المصري.

وتمثل أهم مظاهر الأزمة البنائية التي يعاني منها النظام السياسي المصري، والتي كانت بمثابة المحركات الفاعلة في قيام ثورة ٢٥ يناير فيما يلي:

١- شخصانية السلطة وغياب مبدأ التوازن بين السلطات، حيث مثل التفرد والاستبداد بالسلطة أحد الملامح الرئيسية للنظام السياسي المصري خلال العشرة أعوام السابقة، وذلك بسبب السلطات الدستورية الضخمة التي يتمتع بها رئيس الجمهورية سواء في ظل الظروف العادية أو الاستثنائية.

٢- غياب مبدأ التداول السلمي للسلطة أو تقاسمها، وهذه نتيجة منطقية لشخصنة السلطة واحتكارها، لاسيما أنه بمقتضى الدستور يستطيع رئيس الجمهورية التأييد في السلطة، أي الاستمرار في الحكم مدى الحياة.

٣- جمود النخبة الحاكمة فهذه النخبة هرمت في مواقعها، وقد اتخذت هذا الوضع بسيادة نزعة تكنوقراطية في تعيين الوزراء، ولذلك أصبحت ظاهرة الوزير غير السياسي المعمر في المنصب من أبرز ملامح النخبة الوزارية في عهد مبارك، كما ترتب على هذا الوضع غياب أو ضعف قيادات الصف الثاني مما أدى إلى تيبس الحياة السياسية.

٤- وجود خلل كبير في النظام الحزبي التعددي، والحزب الوطني الديمقراطي احتكر الأغلبية البرلمانية منذ تأسيسه في عام ١٩٧٨م، وإلى جواره يوجد عددًا من الأحزاب السياسية ومعظمها غير معروف للمصريين ويمكن وصفها (بالكرتونية) وبالتالي أصبحت المعارضة الحزبية معارضة مستأنسة.

٥- تزوير نتائج الانتخابات البرلمانية والمحلية لصالح الحزب الوطني الحاكم، ولعل انتخابات مجلس الشعب التي جرت في ٢٨ نوفمبر ٢٠١٠م أفرزت مجلس غير مسبوق في تمثيله لا وجود للمعارضة بين جنباته.

٦- طرح ملف التوريث وإنهاء الجمهورية الملكية القائمة، وكان لطرح هذا الملف أثره في تأجيج مشاعر الوطنية المصرية من تكاتف لكل الحركات السياسية المعارضة مع رجل الشارع.

(٢) الأزمة الاقتصادية:-

وأهم مؤشرات هذه الأزمة يتمثل في غياب إستراتيجية التنمية في مجالات الزراعة والصناعة والتكنولوجيا وتنمية اقتصاد افتراضي يقوم على المضاربات في البورصة وفي مجال نهب أراضي الدولة من خلال تملكها لرجال الأعمال بأثمان زهيدة تاجروا فيها وبنوا عليها منتجات تباع فيها الفيلات والقصور بملايين الجنيهات في حين يقبع حوالي أربعين مليون مصري تحت خط الفقر وهم في حالة بؤس كامل. ويعتبرها البعض ثورة ضد الحكومة لنقول لها أننا بدأنا الاهتمام

بشئون بعضنا البعض وسنأخذ كل حقوقنا ولن نسكت بعد اليوم. فهناك ثلاثة ملايين مصري مريض بالاكتئاب منهم مليون ونصف مليون مريض بالاكتئاب الجسيم وأكثر من مائة ألف محاولة انتحار خلال عام ٢٠٠٩م وتسببت في وفاة خمسة آلاف شخص ولدينا ٤٨ مليون فقير منهم مليونان ونصف المليون يعيشون في فقر مدقع ولدنيا ١٢ مليون مصري بدون أي مأوى ومنهم مليون ونصف مليون يعيشون في المقابر وهناك فساد منهجي أدى إلى وجود قضايا فساد تزيد قيمتها جميعًا بأكثر من ٣٩ مليار جنيه خلال عام واحد فقط بالإضافة إلى المركز ١١٥ بين ١١٩ دولة في تقرير التنافسية العالمية من حيث الفساد الحكومي، وهناك أكثر من ثلاثة ملايين شاب عاطل ونسبة البطالة بين الشباب تجاوزت ٣٠٪، والمركز الأخير من ١٣٩ دولة في معدل الشفافية، وأعلى معدل لوفيات الأطفال في العالم بواقع خمسين طفل كل ١٠٠٠ ولادة ونصف أطفال مصر تقريبًا مصابون بالأنيميا، بالإضافة إلى ٨ ملايين شخص مصاب بفيروس (C) ولدينا أكثر من مائة ألف مصاب بالسرطان سنويًا بسبب تلوث المياه، بالإضافة إلى وجود سيارة إسعاف فقط لكل ٣٥ ألف مصري.

(٣) الأزمة الاجتماعية:-

وقد أدت هذه الأزمة الاقتصادية إلى نشوء أزمة اجتماعية كبرى تمثلت أساسًا في الفجوة الطبقية الواسعة بين الأغنياء والفقراء بصورة لم تحدث من قبل في التاريخ المصري الحديث، وإذا أضفنا إلى

ذلك الحراك الهابط للطبقة الوسطى والتحاق أعضائها بمجموع الفقراء لأدركنا خطورة الأزمة.

(٤) الأزمة الثقافية:-

وذلك لأن نسبة الأمية التي قاربت ٤٠٪ من السكان أدت إلى انخفاض الوعي الاجتماعي مما انعكس على فشل برامج تنظيم الأسرة وسيطرة التفكير الخرافي، والتعصب المذهبي والديني أدى إلى انقسام فكري بالغ الخطورة أثر على جموع الشعب المصري ساهم في زيادة الاحتقان السياسي الطائفي.

وفي إطار ما سبق تبلورت أهداف ثورة ٢٥ يناير المصرية فيما يلي:

- ١- تنحي الرئيس حسني مبارك عن الحكم نهائيًا.
- ٢- إقالة الحكومة وتشكيل حكومة وفاق وطني.
- ٣- حل مجلس الشعب والشورى وإصدار قانون جديد لمباشرة الحقوق السياسية يكفل حرية وحيوية التفاعلات السياسية وضمان نزاهة الانتخابات.
- ٤- إطلاق سراح جميع المعتقلين السياسيين ممن ليس عليهم أحكام جنائية.
- ٥- محاكمة كل رموز الفساد والمستفيدين منه وحصر ثرواتهم ومصادرتها لصالح خزانة الدولة.
- ٦- إلغاء حالة الطوارئ وإطلاق الحريات العامة.
- ٧- تشكيل جمعية تأسيسية لوضع دستور جديد للبلاد مشكلة من خبراء الدستور وأساتذة القانون الشرفاء وكبار القضاة.

- ٨- إجراء تعديل فوري في المواد المعيبة في الدستور المصري مثل المواد ٦٦، ٦٧، ٨٥، ٨٨، ٧٩ لضمان انتخابات رئاسية حرة.
- ٩- اتخاذ إجراءات عاجلة لتحقيق العدالة الاجتماعية وعدالة التنمية وتحقيق التوازن بين الأجور والأسعار وحماية مصالح الفقراء والمهمشين.
- ١٠- إلغاء كل القرارات التي اتخذت ضد العمال بسبب اشتراكهم في ثورة ٢٥ يناير سواء بالفصل أو النقل والتشريد .
- ١١- توفير حد أدنى من الأجور ١٢٠٠ جنيه لضمان حياة كريمة للمصريين.
- ١٢- تنفيذ كل أحكام القضاة الصادرة واحترام أحكام القضاء وإعادة هيبته كهيئة مستقلة.

ثانيًا: أحداث ثورة ٢٥ يناير المصرية:-

لقد انطلقت الشرارة الأولى لثورة ٢٥ يناير منذ عامين حينما قامت فتاة تدعى إسراء عبد الفتاح وكانت تبلغ حين ذلك من العمر ١٧ عامًا، من خلال موقعها على الفيس بوك قامت بالدعوة إلى إضراب سلمي في ٦ أبريل ٢٠٠٨م احتجاجًا على تدهور الأوضاع المعيشية وسرعان ما لقيت دعوتها استجابة من حوالي ٧٠ ألفًا من الجمهور والنتيجة أن الإضراب نجح وأطلق على الفتاة في وقتها لقب (فتاة الفيس بوك) و(القائدة الافتراضية) وخلال عام ونصف قامت حركات المعارضة ببدء توعية أبناء المحافظات ليقوموا بعمل

احتجاجات على سوء الأوضاع في مصر وكان أبرزها حركة شباب ٦ أبريل وحركة كفاية.

ومن هنا جاءت فكرة الاحتجاج على الشرطة في عيدها بعد ربع ساعة من منع القوات الأمنية للمواطنين من الوجود أمام دار القضاء العالي وقام شباب ٦ أبريل برفع لافتاتهم وسط الشارع في حق طائش وبريء للوجود الأمني وكعادتهم في صنع احتجاجاتهم السياسية بدورهم الوطني برفع الأعلام المصرية التي كان رفعها يشكل سببًا غامضًا لاستفزاز قوات الشرطة، وكان هذا يوم ٢٥ يناير ولكن عام ٢٠١٠م قبل عام واحد من تكرار نفس الدعوة التي تحولت إلى ثورة.

وبتصاعد التوترات السياسية والاقتصادية والاجتماعية في مصر بنهاية شهر نوفمبر عام ٢٠١٠م ومنتصف شهر ديسمبر من العام ذاته؛ حيث تراكمت العديد من الأحداث السياسية التي مهدت الطريق لقيام أكبر انتفاضة شعبية شهدتها مصر ففي تلك الفترة شهدت مصر عدة أحداث مثبطة ومحبطة من أهمها:

- انتخابات مجلس الشعب.
 - مقتل الشاب خالد محمد سعيد.
 - تفجير كنيسة القديسين بالإسكندرية.
 - مقتل سيد بلال.
 - قيام الثورة التونسية.
 - ظاهرة البوعزيزية.
- وبعد حادثة خالد سعيد قام الناشط وائل غنيم والناشط

السياسي عبد الرحمن منصور بإنشاء صفحة كلنا خالد سعيد على موقع فيس بوك ودعا المصريين إلى التخلص من النظام وسوء معاملة الشرطة للشعب وكانت تلك هي لحظة البدء الفعلية لثورة ٢٥ يناير عام ٢٠١١م.

ولقد أدت حالة الاحتقان التي عاشها المجتمع المصري في الآونة الأخيرة إلى الدعوة إلى تظاهرة قوية يوم ٢٥ يناير ٢٠١١ احتجاجًا على تردي الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية ومنها تجاوزات وزارة الداخلية وانطلقت الدعوة عبر موقعي التواصل الاجتماعي فيس بوك وتويتر حيث قام بالدعوة لهذه التظاهرات العديد من القوى السياسية غير الحزبية مثل كلنا خالد سعيد وحركة شباب ٦ أبريل، وحركة شباب من أجل العدالة والحرية، والحركة المصرية من أجل التغيير (كفاية)، والجمعية الوطنية للتغيير والحركة الشعبية الديمقراطية للتغيير وقد لبي الدعوة عدد غفير من جموع ومختلف طبقات المجتمع المدني بمصر وأعلنت جماعة الإخوان مشاركتهم في مظاهرات ٢٥ يناير وحددت الجماعة ثلاث ضوابط لشبابها المشاركين في المظاهرات وأكدت احترامها للشرطة كهيئة وطنية وحذرت من التخريب أو أعمال الشغب ونفت الجماعة دعوتها للحشد في موقع معين وأكدت على عدم منع الشباب من المشاركة.

وشهدت القاهرة وبعض المحافظات ظهر اليوم وقفات احتجاجية استجابة لدعوة قوى سياسية معارضة ونشطاء بالتظاهر بهدف الإصلاح السياسي والاقتصادي وناشدت الداخلية المجتمعين بعدم الانسياق وراء شعارات زائفة.

وزحف الآلاف إلى ميدان التحرير وبعد فترة من الهدوء استخدمت قوات الأمن المركزي، التي تتولى مكافحة الشغب الغازات المسيلة للدموع وخراطيم المياه وبنادق الخرطوش لتفريق المتظاهرين، كما نشبت مظاهرات في الإسكندرية والسويس وعديد من المدن الأخرى ولقي ثلاثة أشخاص على الأقل مصرعهم في السويس وألقي القبض على ما لا يقل عن ٥٠ متظاهر في أرجاء البلاد.

وما جرى في هذه الليلة في الشوارع الجانبية للميدان واليادين القريبة منه لا أجد له وصفًا سوى حرب العصابت غير أنها كانت حربًا من جانب واحد فقط وهو جانب الشرطة.

وفي يوم الأربعاء الموافق ٢٦ يناير ٢٠١١م، وفي مشاهد لم يسبق لها مثيل اشتبكت الشرطة مع آلاف المصريين الذين رفضوا مغادرة ميدان التحرير إمعانًا في الاحتجاج على حكم مبارك حيث استخدمت العصي وقنابل الغاز والقنابل المسيلة للدموع وخراطيم المياه لتفريق المتظاهرين واستعانت أجهزة الأمن في عملية التفريق والإجلاء بنحو ٢٠٠ سيارة مصفحة وما يقرب من ٥٠ أتوبيس نقل عام وأكثر من ٣ آلاف من قوات مكافحة الشغب و١٠ آلاف جندي أمن مركزي واستمرت عمليات فض الاعتصام في الساعات الأولى من صباح الأربعاء.

واستنفرت السويس رجالها فانخرطوا ولم تغب الإسكندرية عن الأحداث وانطلقت اليادين الكبرى في القاهرة تنادي بالحرية والعدالة الاجتماعية والخبز والتغيير وفي محطة الرمل بالإسكندرية تظاهر عشرات الآلاف بالإضافة إلى ميدان الأربعين بالسويس.

وقد حُجبت أجهزة الأمن بعض المواقع الإلكترونية بشكل نهائي في أثناء المظاهرات وأصابت موقع (تويتر) الاجتماعي بالشلل التام وفشل جموع المستخدمين في الوصول إليه من خلال الهواتف المحمولة أو أجهزة الحاسب الآلي فيما دخل موقع (فيس بوك) حيز الحجب أيضًا وأسفرت حصيلة المواجهات التي اندلعت خلال ليومي ٢٥، ٢٦ يناير بين قوات الأمن والمتظاهرين بالقاهرة وعدد من المحافظات عن وفاة أربعة أفراد بينهم جندي وإصابة ١٦٢ شرطيًا و١١٨ مواطنًا بينما تم إلقاء القبض على أكثر من مائة شخص حاولوا تنظيم مظاهرات احتجاجية من جديد بالقاهرة والمحافظات في تحدٍ للقرار الذي أصدرته الداخلية بحظر أي مظاهرات أو تحركات أو تجمعات احتجاجية أو مسيرات حسبما أوضح مصدر أمني.

وفي يوم الخميس ٢٧ يناير ٢٠١١م تم عقد هيئة مكتب الحزب الوطني برئاسة صفوت الشريف الأمين العام اجتماعها الذي بدأ صباح هذا اليوم، وذلك لمناقشة التطورات الأخيرة بحضور الدكتور زكريا عزمي الأمين العام لشئون العضوية والإدارية والمالية.

وقد هاجم المتظاهرون قسم شرطة الأربعين وأشعلوا النار فيه وفي سيارات الأمن التي ردت بالقنابل المسيلة للدموع واستمرت أعمال العنف والشغب في المحافظة واعتقلت قوات الأمن الناشط وائل غنيم وتم إقرار الخطة ١٠٠ من قبل وزارة الداخلية تمهيدًا لتنفيذها يوم ٢٨ يناير.

واتسعت رقعة المظاهرات في مختلف المحافظات ردًا على قتل

شباب مصر وخرج المزيد من عشرات الآلاف تخرج متظاهرة ضد النظام من دون مطالب محددة وربما كانت في بعض التظاهرات مطالب لكن سقف المطالب زاد ولم يعد (عيش، حرية، وعدالة اجتماعية وتغيير) بل تطالب تلك المظاهرات برحيل النظام.

وفي يوم الجمعة ٢٨ يناير ٢٠١١م خرجت المظاهرات الحاشدة في القاهرة والمحافظات وشهدت كل محافظات الجمهورية مظاهرات حاشدة تطالب بالتغيير والإصلاح فيما يسمى (جمعة الغضب) بمشاركة عشرات الآلاف من المواطنين من شباب ونساء القوى والأحزاب السياسية المعارضة وجماعة الإخوان المسلمين المحظورة، وتم اعتداء على مقر الحزب الوطني في عدة محافظات فقد اشتعلت النيران مساء الجمعة في مبنى ملحق بمقر الحزب الوطني بالقاهرة. ونتيجة لانقطاع الاتصال عبر شبكات المحمول والإنترنت أوجد اتصالاً أكبر عن طريق اتصال الشباب بعضهم ببعض وقرروا أنها ثورة وبدأن نقول (الشعب يريد إسقاط النظام) وزادت الجموع تدفقاً خاصة مع تعامل الشرطة الهمجي وفجأة تهاوت الشرطة وأصبح الشارع في قبضة الثوار ونزل الجيش سريعاً إلى الميدان وأحاط مبنى الإذاعة والتليفزيون المصري رمز السيادة المصرية وتجمع الناس حول الدبابات وعانقوا الضباط والعساكر وكانوا للأسف من الحرس الجمهوري وفي يوم السبت ٢٩ يناير ٢٠١١م بدأ هذا اليوم بحظر التجوال من الساعة السادسة مساءً حتى الساعة السابعة صباحاً وتعطلت في هذا اليوم جميع المصالح الحكومية وبات الفوضى من هروب السجناء

وحرق أقسام الشرطة مما أدى إلى ظهور اللجان الشعبية لحماية أفراد المجتمع بعضهم ببعض.

وفي هذا اليوم أصدر الرئيس حسني مبارك قرار جمهوري بتعيين السيد عمر سليمان نائباً لرئيس الجمهورية كما أصدر تكليف للفريق أحمد شفيق لرئاسة الوزراء والمظاهرات لا تزال مستمرة منذ العاشرة صباحاً في اتجاه ميدان عبد المنعم رياض وميدان التحرير.

وفي يوم الأحد ٣٠ يناير ٢٠١١م استمرت المظاهرات المناهضة لنظام الرئيس مبارك في المدن المصرية ودعوة من المعارضة إلى إضراب عام الاثنين وتظاهرات حاشدة الثلاثاء تحت اسم (احتجاجات مليونية لرحيل النظام)، وحث الرئيس الأمريكي باراك أوباما على انتقال منظم إلى الديمقراطية في مصر وأكد معارضة الولايات المتحدة للعنف، وكذلك دعوته إلى ضبط النفس ودعم الحقوق المالية ودعم إجراءات عملية تمضي قدماً بالإصلاحات السياسية في مصر.

وتوالى ردود الأفعال وأعلن الفريق أحمد شفيق عن تغيير عدد كبير من أعضاء الحكومة السابقة وعلى رأس التغييرات يوسف بطرس وزير المالية وظلت المظاهرات تحتشد في كل مكان، وزاد عدد المتظاهرين عن مائة ألف متظاهر وذلك خلال يوم الاثنين.

وفي يوم الثلاثاء الموافق ١ فبراير ٢٠١١ خرج عشرات الآلاف من المتظاهرين إلى شوارع القاهرة وغيرها من مدن مصر استجابة لدعوة المعارضة لانطلاق تظاهرة مليونية لإجبار الرئيس حسني مبارك على الرحيل، ووجه الرئيس خطابه الثاني للشعب وأكد أن الشعب عليه

أن يختار بين الفوضى والاستقرار وكلف الحكومة التجاوب مع مطالب الشباب وكلف نائبه بالحوار الوطني وتكليف البرلمان مناقشة تعديل المادتين ٧٦، ٧٧ من الدستور المصري.

وأعلن عن إجراءات الانتقال السلمي وأنه لن يترشح في الانتخابات الرئاسية المقبلة مؤكداً أنه سيعمل خلال الأشهر المتبقية من ولايته الحالية على اتخاذ التدابير والإجراءات المحققة للانتقال السلمي كما أكد لشفيق على استعداده للحوار مع المتظاهرين كما تم تأجيل جلسات البرلمان للفصل في الطعون عقب كلمة الرئيس.

وفي يوم الأربعاء الموافق ٢ من فبراير توجهت مجموعة من مؤيدي مبارك مصطحبين بعض البلطجية وأصحاب السوابق الجنائية بالخيول والجمال حاملين العصي والأسلحة البيضاء والهراوات صوب ميدان التحرير حيث اقتحموا ميدان التحرير بالقوة في محاولة منهم لإخراج المحتجين هناك وإلقاء المولوتوف وقد عرفت الحادثة إعلاميًا باسم (موقعة الجمل).

وفي يوم الجمعة الموافق ٤/٢ احتشد مئات الآلاف في التحرير يطالبون بالتغيير فيما أسموه (بجمعة الرحيل) ورددوا هتافات تطالب بتنحي الرئيس حسني مبارك عن الحكم.

ثم أعلن الثوار عن أسبوع التحدي وتواصلت الجماهير لحشد ثمانية مليون شخص متظاهر والهدف واحد هو إسقاط الطاغية.

وفي يوم السبت ٥ فبراير ٢٠١١م مع استمرار المظاهرات استقالت بعض قيادات الحزب الوطني الديمقراطي ومنهم جمال مبارك نجل الرئيس.

كما استقال الشريف وعز وهلال من أمانة الوطني وأصبح حسام بدراوي أمينًا عامًا ووافق الرئيس حسني مبارك رئيس الحزب الوطني الديمقراطي على قبول استقالة أعضاء هيئة مكتب أمانة الحزب برئاسة السيد / صفوت الشريف الأمين العام للحزب الوطني.

وفي يوم الأحد ٦ فبراير ٢٠١١م أجرت جماعات المعارضة ومنها جماعة الإخوان المسلمين وبعض المستقلين حوارًا مع عمر سليمان نائب الرئيس ثم فيه التوافق على تشكيل لجنة لإعداد تعديلات دستورية في غضون شهور والعمل على إنهاء حالة الطوارئ وتشكيل لجنة وطنية للمتابعة والتنفيذ، وحرير وسائل الإعلام والاتصالات وملاحقة المتهمين في قضايا الفساد. وأقام الآلاف في ميدان التحرير في هذا اليوم (أحد الشهداء) حيث صلى المسلمون صلاة الغائب على أرواح الشهداء الذين قتلوا في الأحداث وأدى المسيحيين قداس الأحد بحضور الآلاف من المسلمين كما أكد رئيس الوزراء أحمد شفيق ضرورة بقاء الرئيس مبارك في منصبه حتى نهاية مدة ولايته الرئاسية.

وفي يوم الاثنين ٧ فبراير ٢٠١١م بدأ الثوار يحاولون تشكيل ائتلاف ثورة ٢٥ يناير ويطالبون بمحاكمة الفساد وتم إخفاء وإحراق عدد كبير من ملفات القضاء في جنايات جنوب القاهرة.

وفي يوم الثلاثاء ٨ فبراير ٢٠١١م المليونية الثالثة في أسبوع الصوم حيث استمرت المظاهرات الحاشدة في ميدان التحرير والإسكندرية وعدد من المدن المصرية للمطالبة بإسقاط نظام مبارك

والمتظاهرون في القاهرة يعطلون المؤسسات الحكومية حيث تظاهر الآلاف أمام مجلسي الشعب والشورى ومقر رئاسة الوزراء.

وفي يوم الأربعاء ٩ فبراير ٢٠١١ أم رئيس الوزراء يصدر قرار تشكيل لجنة تحقيق وتقصي حقائق حول الانتفاضة الشبابية والمتظاهرون يجبرون الحكومة على نقل اجتماعاتها إلى مصر الجديدة وإصدار المجلس الأعلى للقوات المسلحة بيان حول الأحداث الجارية برئاسة المشير حسين طنطاوي القائد العام للقوات المسلحة ووزير الدفاع والإنتاج الحربي لبحث الإجراءات والتدابير اللازمة للحفاظ على الوطن ومكتسبات وطموحات شعب مصر العظيم وأصدر بيانه الأول.

وفي يوم الخميس ١٠ فبراير ٢٠١١ أم ألقى الرئيس خطاباً إلى الشعب نقلته شاشات التليفزيون، وسط شائعات بأن الرئيس مبارك سيتنحى لكنه لم يعلن فيه استقالته فرفع المتظاهرون في ميدان التحرير أحييتهم في الهواء ملوحين بها تعبيراً عن الغضب وطالبوا الجيش بالانضمام إليهم.

وفي يوم الجمعة الموافق ١١ فبراير لسنة ٢٠١١ أم التي سميت (بجمعة الزحف) حشود مليونية تتجاوز العشرة ملايين في أنحاء الجمهورية مع الزحف على قصور الرئاسة وبخاصة قصر القبة الرئاسي بالقاهرة والقصر الرئاسي برأس التين بالإسكندرية، وأثناء ذلك أعلن السيد عمر سليمان نائب رئيس الجمهورية تنحي الرئيس محمد حسني مبارك عن السلطة وجاء ذلك خلال بيان أذاعه سليمان بنفسه من مقر رئاسة الجمهورية.

وجاء نص البيان كالتالي: (في هذه الأوقات العصيبة التي يمر بها الوطن قرر الرئيس محمد حسني مبارك تخليه عن منصب رئيس الجمهورية وكلف المجلس الأعلى للقوات المسلحة بإدارة شئون البلاد والله الموفق والله المستعان)، ثم أذيع البيان رقم (٢) للمجلس الأعلى للقوات المسلحة وأنه سيبطل في انعقاد دائم.

وعقب إعلان النبأ مباشرة عمت أفراح كبيرة في الشوارع المصرية في القاهرة والمحافظات واحتفل الثوار في ميدان التحرير بانتصارهم الكبير وبنزول مبارك على إرادة الشعب وفي تطور سريع أكد المجلس الأعلى للقوات المسلحة في بيانه الثالث أن المجلس ليس بديلاً عن الشرعية التي يرتضيها الشعب وأن المجلس يدرس اتخاذ خطوات لتحقيق طموحات الشعب وأنه سيقدم بياناً لاحقاً متضمناً إجراءات محددة وقدم المجلس تحيته وتعازيه لأرواح شهداء ثورة ٢٥ يناير.

ثالثاً: نتائج ثورة ٢٥ يناير المصرية:-

إن الثورات لا تحدث فجأة ولا تجني ثمارها فور حدوثها وكذلك ثورة ٢٥ يناير فهي كما اتضح من خلال العرض السابق أنها لم تحدث فجأة وإنما هي نتيجة لميراث طويل من الظلم والاستبداد والفساد الذي استمر لأكثر من ٣٠ عام كما أن ثمارها لم تظهر فور حدوثها وإنما أخذت في الظهور تدريجيًا؛ حيث بدأت الثورة تحقق أهدافها وبدأ الشعب المصري يجنب يجني مكاسبها وبدأت تظهر نتائجها :

١- الحالة السياسية :

وتمثل في التحول الأساسي الذي حقق بسبب ثورة ٢٥ يناير هو

إنشاء نوع جديد من الشرعية على الحاكم في مصر وقد مرت الشرعية في مصر بمراحل عديدة في تاريخها الطويل وكانت السلطة بيد الدولة المصرية قبل ستة آلاف عام أي قبل توحيد القطرين على يد مينا تقوم على الشرعية الربانية قبل كافة دول العالم في العصور القديمة بداية من فرعون مرمرورًا بالفتح الإسلامي إلى أن جاءت ثورة ٢٥ يوليو ليطيح بالعلاقة بين السلطة السياسية والسماء وأوجدت نوعًا جديدًا من الشرعية أطلق عليها الشرعية الثورية والتي بموجبها حكم عبد الناصر ثم السادات ثم مبارك إلى أن جاءت ثورة ٢٥ يناير وأسقطت آثار الشرعية لثورة ٢٣ يوليو كما أسقطت الشرعية الخارجية المتمثلة في القوى الأجنبية التي كانت تحكم مصر حتى توصلنا إلى شرعية صناديق الاقتراع أو الشرعية الديمقراطية.

كما أنها أضافت لنا بعض الإجراءات السياسية منها:

- بدء التحقيق مع رموز النظام السابق.
- تقنين العمل بقانون الطوارئ.
- احترام قرارات القضاء ببطالان مجلس الشعب ومن ثم حل المجلس.
- إجراء التعديلات الدستورية من خلال استفتاء شعبي أعقبه صدور إعلان دستوري.
- صدور حكم نهائي بحل الحزب الوطني الحاكم.
- كما أضافت مجموعة نتائج على المستوى الدولي تتمثل في:
- الاعتراف دوليًا بثورة ٢٥ يناير.

- تحسين صورة المواطن المصري لدى الشعوب الأوروبية والأمريكية
فظهر ذلك في تصريحات رؤساء هذه الدول أثناء الثورة وبعدها.
- تجميد أرصدة وثروات الرئيس المخلوع في مختلف الدول.
- دعم الكثير من دول العالم لحركة التحول الديمقراطي والانتقال
السلمي للسلطة في مصر.

بالإضافة إلى مجموعة إجراءات إصلاحية في المجتمع تتمثل في:
- إعلان جدول زمني لبدء انتخابات جديدة تقوم على التعددية
الحزبية والبدء الفعلي لتنفيذ ذلك الجدول الزمني.
- وضع جدول زمني للانتقال السلمي للسلطة إلى قيادة مدنية
من خلال انتخابات رئاسية تتم في موعد أقصاه شهر يونيو ٢٠١٢م.
بالإضافة إلى قيام نظام ديمقراطي حيث أن الثورة قامت ضد
الطغيان وحكم الفرد والدكتاتورية في ظل مناخ عالمي يدفع جميع
الدول في هذا الاتجاه، وبالتالي فإن مستقبل مصر أن تدخل في زمرة
الدول المتقدمة التي تعيش تحت مظلة نظام ديمقراطي حكيم.

٢- الحالة الاجتماعية:

والتي تمثلت في اكتساب حالة (الماجنا كارتا) والتي تعبر عن فكرة
التمرد على الحكم المطلق التي لم تكن واردة ولا مطروحة بأي مكان
في العالم طوال مئات السنين وكانت هناك عقيدة الخضوع للحاكم
مسيطرة بالطبع على كافة المجتمعات في أوروبا وآسيا وغيرها حتى
وقت قريب، وعندما بدأت أفكار الحرية واختيار الشعب لحكامه تأخذ

طريقها إلى العقول والضمائر خاصة منذ بزوغ عصر النهضة في أوروبا قد وقع أول تمرد رصده التاريخ على السلطة المطلقة للحاكم في القرن الثالث عشر وأسفر عن وثيقة عرفت باسم (الماجنا كارتا). وكان ذلك في بريطانيا عندما تمرد النبلاء على الملك جون الشقيق الأصغر لريتشارد قلب الأسد وتمكنوا من الاستيلاء على الدولة وحاصروه في رقعة صغيرة وأرغموه في يوم ١٥ يونيو عام ١٢١٥م على توقيع وثيقة أطلقوا عليها اسم (ماجنا كارتا) ومعناها باللغة اللاتينية (الوثيقة العظمى).

بالإضافة إلى المسؤولية المشتركة وأن الأمل في الشعوب وذلك لأن الإنسان المصري لديه مخزون حضاري وطاقات لا حصر لها ولكنها مكتومة ومحبطة ومقموعة بفعل عيوب في الشخصية الجماعية لكنه إذا كنا مخلصين في سعينا للتقدم والحق بركب الدول الكبيرة ورجوع مصر إلى المكانة التي تستحقها بين الأمم فإنه علينا أن نبدأ بالمكاشفة أو المصارحة والكشف عن إيجابيات وسلبيات الشخصية المصرية فقد شابها خلال تاريخها عيوباً بعضها كان متوارثاً وبعضها كان موجوداً في كافة شعوب العالم، وأن نعمل بجد وعزيمة حتى نكون جديرين بالانتماء إلى مصر ونستحق لقب (مصري) الذي كان ولا زال له سحر واضح في العالم أجمع لما له من تاريخ وبفضل ثورة ٢٥ يناير لعام ٢٠١١م

رابعاً: المغارم التنموية لثورة يناير:

تختلف العلاقة بين الجريمة والتنمية اختلافاً بيناً عن العلاقة بين

الجريمة و التطور. فدائماً ما تكون الجريمة معوقاً من معوقات التنمية في المجتمع و سبباً في إهدار موارده , أما التطور الذي يمر به المجتمع فرمما يكون سبباً في نشأة الجريمة و تطورها, وغالباً ما يكون هذا التطور عشوائياً و غير منظم, ويصحب التنمية الاقتصادية والاجتماعية كثير من العضلات والمشكلات التي تمثل قاطبة تربة خصبة أو بيئة مناسبة لنمو وانتشار الجريمة, ليس هذا بسبب التبعات والعواقب غير المرغوبة للتنمية بشقيها الاجتماعي والاقتصادي. بل أيضا لأن الجريمة هنا تمثل خيارات فردية لمرتكبيها, فرمما من خلالها يتمكنوا من الوصول لفرص حياتية مناسبة.

وإذا أردنا الحديث بموضوعية عن الجريمة في علاقتها مع التنمية؛ فإنه أحرى بنا أن نُمعن النظر بداية في العوامل الاجتماعية التي تؤثر أو تضغط اجتماعياً وتتسبب في نشأة الجريمة وتعمل على رواجها. ومخاطر هذه العوامل قاطبة على الفرد والمجتمع, و كذلك علي البنية الثقافية الفرعية و السائدة فيه. فإذا كانت الجريمة تمثل خياراً فردياً في أحوال كثيرة, بيد أنها قرار حتمي ثقافي في أحوال أخرى, فللثقافة الفرعية في المجتمع دور كبير في التأثير على دافعية وتشكيل اتجاهات الفرد, ومن بينها حالة التمرد على الموروث الثقافي العام

ذا تعطي البلدان المتقدمة, اهتماماً خاصاً بالجريمة وتركز على إبراز علاقتها بالتنمية وتبني استراتيجيات للحد منها وبخاصة القضاء على فرضية أن الجريمة يمكن أن تكون خياراً فردياً أو ميلاً ثقافياً فرعياً للمهمشين في المجتمع. لذلك تقوم هذه البلدان بتجريم

الكثير من الأنشطة والممارسات الفردية أو الجماعية التي يُعتقد أنها تمثل عدواناً أو خطراً على المجتمع ككل. مثال ذلك، تعاطي المخدرات، الدعارة المنظمة، الاتجار بالمخدرات وتهريبها أو أنشطة تهريب السلع والمنتجات عبر الحدود، أيضاً تهتم هذه البلدان بتعزيز سلطة وقوة الدولة وتفرض نسق للعدالة الجنائية قادر فعلاً على التصدي للجريمة الموجودة في المجتمع بكافة أشكالها.

ويحدث الخلط وسوء الفهم، فيما يتعلق بالتنمية والجريمة، بزعم البعض أن الجريمة نتيجة طبيعية أو فرز ثانوي للتغير أو النمو، متجاهلين أن التنمية القائمة على مفهوم العدالة الاجتماعية والتوزيع العادل للثروات والدخول الإجمالية لا يمكن أن تتسبب في جرائم مثلما يحدث من التنمية الاقتصادية القائمة على تمييز فئات أو جماعات على حساب أخرى. فالجريمة هنا تتطور بتطور خطط التنمية الجارية في المجتمع، فمن النتائج المترتبة على سياسات وبرامج التنمية أن تتبدل قيم وتقاليد وتقل أخرى محلها، كما ترتفع فئات أو إثنيات على حساب أخرى أو تسود معايير ثقافية على ثانية مهيمنة محلية. ومع الزيادة الكبيرة للسكان وميل العديد من السياسات التنموية الاقتصادية لإفقار فئات أو طبقات لصالح أخرى، ومع تعدد وتنوع الخيارات الحياتية المتاحة أمام النشء المتعطل عن العمل، لا يجد هؤلاء من سبيل سوى اللجوء لعالم الجريمة لاقتناص ما تبقى لهم من حق أو نصيب في الثروة الاجتماعية.

ومن ثم ترتبط الجريمة بعمليات التحديث والتنمية الاقتصادية إذ

يترتب علي هذه وتلك تهميش طبقات أو فئات اجتماعية معينة , بما يؤدي في النهاية إلى استبعاد هؤلاء من الوصول للفرص المعيشية والحياتية المناسبة أسوة بأقرانهم من غير المهمشين, أو قد تكون الجريمة هنا نوع من الثورة أو الخروج الثقافي " لثقافة مهمشة مستضعفة " حيال أخريات قدرات وسيطرت في المجتمع , ومن أخطر العضلات التي تعوق رجالات الحكم والسياسة عن تطبيق سياسات أو استراتيجيات تنموية و اقتصادية, أن هذه الأخيرة تركز على تمييز فئات اجتماعية على حساب أخرى أو أن المستفيدين من ثمار التنمية ليسوا غالبية السكان بل فئات محددة تملك التأثير على برامج التنمية وتوجهها الوجهة التي تحقق لها مزايا أو مصالح كبيرة أيضاً. والخلاصة أن الجريمة يُنظر لها هنا على أنها متغير تابع أو عاقبة وخيمة من عواقب التنمية غير المخططة أو غير الهادفة سواء أكانت اجتماعية أو اقتصادية.

إن انخراط الشباب والمراهقين في الجريمة والأنشطة الإجرامية يعتمد بقوة على حجم الفرص الحياتية المتاحة أمام هؤلاء , كما يعتمد أيضا على نظرة المجتمع " الثقافة السائدة " لبنياتهم الثقافية ووضعياتهم الاجتماعية الخاصة بهم. وهنا لابد لنا أن نؤكد على فكرة مفادها أن هذه التنظيمات أو العصابات قد يجد الشباب أو المراهق فيها مأوى أو متنفساً لقدراته وأداة لتحقيق ما يصبو إليه في أحايين كثيرة. ومع النمو السكاني المتزايد والكبير , وتزايد أعداد الشباب في المجتمع , تتزايد عمليات التهميش الاجتماعي وتجرى على

قدم وساق مستبعدة فئات وطبقات اجتماعية كثيرة، حيث تغيب فرصة العيش الآمن أو إمكانية الوصول لفرصة وظيفية أو تعليمية جيدة، ولا يكون أمام النشء والمراهقين سوى الانخراط في عصابات وتشكيلات إجرامية هي الأقرب لفكرة التنظيمات الاجتماعية في المجتمع حيث تكون بديلاً لهم عن المجتمع والأسرة.

والجدير بالذكر أيضاً أن شيوع أو انتشار مثل هذه التشكيلات أو التنظيمات الإجرامية تكون قوية للغاية في المدن الحضرية الكبيرة وتنضawl بالحجم والقدرة كلما صغر حجم المدينة أو كلما توغلنا أكثر في الريف؛ مما يعني أن ثمة رابط بين التحضر والتنمية وبين تآكل رأس المال الاجتماعي وشيوع الجريمة والتهميش على نطاق واسع، أيضاً كشفت الدراسات عن أنه كلما تدهورت العلاقات الإنسانية والأسرية بين الناس وبعضها في الحضر كلما مال الشباب والمراهقون على الأخص إلى الانخراط في تنظيمات اجتماعية خارجة على القانون، ومن ناحية ثانية لا تمثل عمليات مشاركة الشباب والمراهقين في هذه التشكيلات والعصابات ميلاً غريباً بينهم للجريمة أو لممارسة السلوكيات الإجرامية، بل هي ترجمة لظروف وبنية ثقافية قاسية تفرض نفسها عليهم فرضاً مغتربة أي فرصة قد تبدو بالآفاق أمامهم. وينبغي أن نلاحظ أننا عند دراسة الجريمة أو تحليل السياق الذي تمت فيه أن نركز بشكل خاص على الثقافة السائدة في المجتمع والتي يُنظر لها باعتبارها المناخ الملائم لوقوع الجريمة بل والمتشجع عليها، حيث تفترض الجريمة وجود جملة من السمات والوظائف الاجتماعية

وأنها جميعها تعتمد على السياق الموجود وأنه ما لم يكن هناك فهم عميق للسياق المجتمعي الموجود فإنه سيكون من الصعبه
بمكان التوصل لفهم حقيقي لمبررات ومسببات الجريمة , فقد لوحظ
أيضا أن الجريمة من الناحية الثقافية أمراً نسبياً يختلف النظرة إليها
باختلاف الثقافات والأنساق المجتمعية , و أيضا باختلاف المجتمعات عن
بعضها البعض , ومن ثم يمكننا أن نخلص لنتيجة مؤداها أن الجريمة
أمراً شائعاً عالمياً وأن وراءها دائماً مشكلات اجتماعية.

وتشير الدراسات إلى أن عملية التنمية تتضمن بداخلها عمليات
أخرى للتحديث و النزعة الحضرية و تغييرات جذرية في كثير من
المعايير والقيم الاجتماعية والثقافية التي جُبل عليها الناس ومع
حالة الاضطراب وعدم الاستقرار القيمي والاجتماعي هذه تتولد
الجريمة بصورها وأشكالها التقليدية والحديثة على السواء , ومن ثم
فإن الرغبة في الحضرية تؤدي إلى:

- حدوث حالة من عدم استقرار وعدم توازن في عملية التحديث ,
فنجد حضر يمتلك الثروة والنفوذ وريف يفتقر من الفاقة والعوز.
- اضطراب وعدم استقرار بين النمو السكاني المضطرب وبين عجز
أو قصور الاقتصاد عن خلق أو إيجاد وظائف وفرص عمل لهؤلاء.
- وجود اضطراب بين المتوافر أو المتاح من المهارات والطااقات
الإنتاجية وبين حاجة الاقتصاد لهؤلاء لتوظيفهم.
- تدهور مركز ودور الأسرة في الحضر واختفاء ما كان يُطلق
عليها الأسرة الممتدة لصالح الأسرة النواة , كما تضطرب أوضاع
المرأة والمسنين تحت الضغوط الاقتصادية والاجتماعية الشديدة.

• التغييرات الشديدة والحادة في نسق القيم والمعايير الثقافية والاجتماعية السائدة , ونجد ميلاً شديداً لتهميش قطاعات سكانية, لخصوصياتها الثقافية لحساب نمط أو بنية ثقافية أخرى سائدة, مما يولد في النفوس ميلاً للجريمة للوصول لحق مُفتقد لهؤلاء المهمشين. فإذا تبنت دولة ما إحدى نماذج التنمية الاقتصادية دون مراعاة للبعد الاجتماعي فمن المؤكد أن تحدث الآثار والتبعات المشار لها أنفاً ما يعني أن الجريمة هي نتاج أو فرز طبيعي للضغوط الاقتصادية والاجتماعية الموجودة , فالتنمية و ما يصاحبها من عمليات تحديث وتطوير وتغيير ببنية المجتمع الاجتماعية والاقتصادية والثقافية كلها إما منفردة أو مجتمعة تُسهم فعلاً وقولاً في التشجيع للجريمة أو الترويج لها.

فمن الصعوبة بمكان تصور أن يتمكن كافة المواطنين والأفراد من الفرار من هذه الضغوط أو حملها إلي ما لا نهاية , فالفقر والعوز من ناحية و البطالة والطاقات العنيفة للشباب والنشء الباحث عن العمل والقادر عليه والتهميش الاجتماعي من ناحية أخرى , كلها عوامل أو عناصر لا يمكن للفرد أن يصمد أمامها فترة طويلة, فالجريمة في النهاية وحسبما يرى كثيرون هي نتاج أو ترجمة اجتماعية للضغوط الاجتماعية والاقتصادية الجارية, لكن هذا لا يعني أن التنمية بصفة عامة سيئة أو غير مرغوب فيها, فقط ما نود التركيز عليه بالحديث هنا الجانب السلبي أو غير المتوقع أو غير المرغوب فيه من وراء عملية التنمية من تهميش أو استبعاد اجتماعي أو إفقار

لفئات اجتماعية لصالح أخرى في المجتمع, فالجريمة ولا ريب هي ابنة غير شرعية لكل هذه الضغوط الاجتماعية والاقتصادية الموجودة في المجتمع والمتزايدة بصفة دورية ومنتظمة, ويمكن ملاحظة قسوة تبعات التنمية الاقتصادية بالنظر بعمق لحالة البلدان المتحولة من النظام الاقتصادي الاشتراكي لآخر رأسمالي, وفي دول وبلدان الكتلة الشرقية والاتحاد السوفيتي السابق مثال حي على عمق المشكلات والعواقب الوخيمة التي تخلفها حالة التحول الاقتصادي المرتبطة بالتنمية الاقتصادية الاجتماعية.

وأيضاً قد تكون الجريمة ترجمة حقيقية أو انعكاساً لمتغيرات ديموجرافية طارئة أو مستجدة بالمجتمع مثل النوع والسن أو الفئة العمرية, التركيب العرقي والإثني, لذا لا غرابة أن تتخذ هذه العناصر الديموجرافية فيما بعد مدخلاً لصياغة مؤشرات اجتماعية لقياس الجريمة أو عواقبها على الفرد أو المجتمع, وفي أحيان كثيرة, تنتج الجريمة بطريقة غير مباشرة, و الهرب من الفقر والبطالة قد يضطر الفرد لتعاطي المخدرات أو الكحوليات, وهذه المواد بدورها تسبب إدمان وتشويه للسلوكيات والممارسات الفردية الشخصية, بحيث قد تضطرب المعايير والقيم لدى المتعاطين, بل قد تعمل هذه المواد المخدرة المسببة للإدمان في الإتيان بسلوكيات عنيفة أو بارتكاب جرائم كثيرة ضد النفس أو الآخرين, أو الممتلكات.

وخلاصة القول أن ثمة علاقة طردية وشيخة بين غياب العدالة الجنائية وبين شيع الجريمة في المجتمعات المعاصرة على نطاق واسع

وكبير؛ إذ أن وجود الجريمة مرهون إلى حد كبير بالغياب الكامل للمعدالة الجنائية وشيوع ممارسات التهميش الاجتماعي. وهنا نركز على الدور المهم الذي يمكن للدولة أن تلعبه في التصدي لحالات فقدان أو غياب العدالة الجنائية، وذلك من خلال إقرار نصوص تشريعية وقانونية ترسخ مساواة الكافة أمام القانون دون تمييز كما تعمل على التخفيف من حدة وقسوة التهميش الاجتماعي.

وكما أشرنا سلفاً، فإن غياب التنظيم الاجتماعي الجيد وشيوع الفقر والبطالة وتدهور العلاقات الإنسانية في الحضر والريف فضلاً عن زيادة حدة عمليات التهميش الاجتماعي، كل ذلك يسهم بشكل كبير في خلق البيئة المواتية للجريمة، والنتيجة الطبيعية لكل ما سبق هي أن يُصبح السلوك الإجرامي تطبيق فعلي لغياب القانون ورداءة التنظيم الاجتماعي وفقدان المعايير والتقاليد الاجتماعية، أي أن النشاط الإجرامي هو وليد غير شرعي للواقع الاجتماعي المرير، وبالتالي إذا أراد مجتمع ما أن يتغلب على الجريمة به فيجب عليه بداية أن يعمل على التخطيط الجيد والجدي للتعامل مع العناصر أو المسببات المرتبطة بنشأة أو ظهور هذه الجريمة من تهميش اجتماعي أو تدهور مجتمعي أو رداءة في التنظيم الاجتماعي بمختلف أبعادها.

ولقد شهدت غالبية المجتمعات عبر التاريخ انهيار العديد من الأنظمة الدكتاتورية المختلفة، وأثبتت عدم قدرتها على تحدي الشعوب سياسياً واقتصادياً واجتماعياً على الرغم من النظر إليها على أنها أنظمة قوية ووطيدة. فمنذ عام ١٩٨٠ وتحدي الشعوب

الذي تميز باللاعنف استطاع إسقاط الأنظمة الدكتاتورية في الكثير من الدول مثل لتوانيا وبولندا وألمانيا الشرقية وتشيكوسلوفاكيا وسلوفينيا ومدغشقر ومالي وبوليفيا والفلبين. وعملت المقاومة على ترسيخ التوجه نحو الديمقراطية في نيبال وزامبيا وكوريا الجنوبية وتشيلي والأرجنتين وهايتي والبرازيل وأورجواي وملاوي وتايلاندا وبلغاريا وأجزاء مختلفة من الاتحاد السوفيتي السابق، أن هذا النضال كشف عن الطبيعة الوحشية لهذه الأنظمة القمعية أمام أعين المجتمعات الدولية.

كما كان التاريخ القديم والمعاصر شاهداً على الكثير من الأحداث والوقائع التي انفرط فيها عقد الأمن والاستقرار حيث ساد الانفلات الأمني بدلاً من الإستقرار والسلام وعمت الفوضى بدل النظام، ولقد كان ذلك لأسباب عديدة ومتنوعة فقد شهد التاريخ ازدهار دولة العرب في الأندلس ثم سجل سقوطها المريع و انقسامها إلى دول للطوائف كلّ أستاثر بها وصلت إليه يداها فحدث السقوط الذي أدى إلى ضعف الدولة العربية وتفشى ظاهرة الانفلات الأمني بسبب عدم التوحيد في دولة عربية واحدة قوية مُهابة.

ولقد كانت للمتغيرات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والعلمية التي طالت كافة مناحي الحياة انعكاساً واضحاً على المحور الأمني في حياة الإنسان سواء من ناحية الجريمة وأساليب ارتكابها، أو البحث عن أساليب توفيره والحفاظة عليه، حيث شهدت السنوات الأخيرة من القرن الماضي نقلة نوعية لمفهوم الأمن ، والذي لم يعد

مفهوماً ضيقاً يقتصر على إنفاذ القانون وحماية المجتمع من الجريمة ومخاطرها فحسب، بل أصبح يعنى تأمين مسيرة المجتمع والعمل على التحسين المستمر لمستوى الطمأنينة الشاملة والحفاظ على المقدرات التى تؤمن رفاهية المجتمع وسعادة الإنسان.

ولم تكن مصر بعيدة عما يجرى فى العالم من تغيرات سياسية أسقطت نظاماً وصفتها بالديكتاتورية و سعت بخطوات متعثرة لإنشاء نظاماً جديدة تكفل لها الحرية والعدالة الاجتماعية والعيش الكريم.. و على الرغم من أن التغيير كان حلماً بعيد المنال لغالبية المصريين، و على الرغم من أنهم هم من صنعوا التغيير بيد أنهم هم أنفسهم من وضعوا الحواجز فى طريق إتمامه، حيث شهدت مصر إبان ثورة الخامس والعشرين من يناير وحتى الآن، ارتفاعاً غير مسبوق فى معدلات الجرائم على اختلافها من "قتل، واختطاف، وسرقة واغتصاب الخ". وهو ما أكدته تقارير وإحصاءات عديدة اهتمت بالوضع الأمنى فى مصر منها التقرير الذى نشرته مؤخراً جريدة "الديلي ميل، ٢٠١٣" البريطانية، والتى كشفت عن ارتفاع معدلات الجريمة فى مصر منذ قيام الثورة بنسبة ٢٠٠٪ عما قبلها، فيما قدر تقرير آخر (لمركز الدراسات السياسية بالأهرام: ٢٠١٣) ارتفاع نسبة زيادة الجريمة فى عام ٢٠١٢م بمعدل ١٤٠٪ عن العام الذى سبقه، وهى أرقام تطرح عدداً من التساؤلات أهمها.. هل الديمقراطية وجبة دسمة لا تهضمها أمعاء المصريين؟ أم أن النفاقس الأمنى هو المسئول؟ وماهى الحلول التى يضعها الخبراء والمختصون لمواجهة ذلك الارتفاع المطرد

في نسبة الجريمة في مصر؟ خاصة وان ارتفاع معدلات الجريمة بعد أحداث الثورة كان له أثاره الوخيمة على كافة قطاعات الدولة، حيث كشفت التقارير الاقتصادية تراجع عوائد النشاط السياحي بنسبة تجاوزت ٦٠ ٪ عما كانت عليه في ٢٠١٠م اي قبل قيام الثورة مباشرة. كما كشفت الدراسات عن انخفاض قيمة الجنيه المصري أمام الدولار كما تم انخفاض عدد الشركات الدولية التي تم تأسيسها في مصر بالإضافة إلى انخفاض توسعات رأس المال، وارتفاع معدل التضخم، وتزايد معدلات إفلاس الشركات والأشخاص، وانخفاض صادرات الغاز الطبيعي، وارتفاع حدة البطالة وازدياد حالات التعدي على الأراضي الزراعية، حيث بلغت حالات التعدي بمحافظة الفيوم وحدها ٥٥ ألف حالة إلى جانب البناء بدون تراخيص، كذلك تخوف المستثمرون العرب والأجانب من الاستثمار في مصر بجانب انخفاض إيرادات السياحة بما لا يقل عن ٤٠ ٪، فمصر تخسر يومياً نحو ٤٠ مليون دولار، حيث تراجع دخل السياحة بنسبة ٨٠ ٪ بالرجوع إلى عدد الحجوزات السياحية الذي تراجع بنسبة ٢٠ ٪ بسبب أحداث امبابة التي ألغت العقود السياحية، علاوة على تراجع الاحتياطي النقدي من ٣٦ مليار دولار إلى ٢٨ مليار دولار خلال الثورة، كما ترواحت خسائر قطاع الصناعة ما بين ١٠ و ٢٠ مليار جنيه نتيجة توقف معظم المصانع خلال الفترة الماضية.

وفي هذا السياق كشف تقرير(مصلحة الأمن العام، ٢٠١٣م) أن معظم مرتكبي الجرائم من الشباب وهي جرائم يتم ارتكابها ضد

الشرطة بغرض الانتقام أو الاستيلاء على الأسلحة الموجودة في مخازن وزارة الداخلية، ولسوء الحظ واكب هذه الأحداث ثورة ليبيا والاضطرابات السياسية والعسكرية التي نراها الآن كما بدأ في دخول كميات كبيرة للأسلحة وتهريبها عبر الصحراء الغربية التي يصعب تأمينها , كما أن هروب أكثر من ٢٣ ألف مسجون من عتاة المجرمين وإخلاء سبيل الآلاف من المعتقلين جنائياً وسياسياً لانتهاك قانون الطوارئ كل ذلك صب في الشارع المصري وكان دافعاً لكل العناصر الإجرامية سواء الكامنة أو التي كانت متواجدة لأول مرة، وأن ٦٥٪ من المجرمين بلا سوابق. أما تقرير وزارة الداخلية، ٢٠١٢) فقد أشار إلى ارتفاع معدل الجريمة بشكل ملحوظ عقب ثورة ٢٥ يناير وبالتحديد عقب أحداث ٢٨ يناير حيث تم اقتحام ٣٥٪ من الأقسام والمراكز على مستوى الجمهورية للاستيلاء على كميات كبيرة من أسلحة الشرطة سواء الأسلحة الأميرية , إلى جانب وجود ورش تصنيع الأسلحة التي توفر الأسلحة لمرتكبي الجرائم بأسعار زهيدة، وواكب كل هذا تصاعد المطالب الفئوية وارتفاع سقفها إلى حد غير منطقي ومطالب غير منطقية بعضها غير قابل للتنفيذ، ولاشك أن بعض هذه المطالب لفئات مظلومة لها مستحقات ولكن المطالب في حد ذاتها هي حرفة أو مهنة للكثير من الفئات التي تتخذ من هذا الأمر وسيلة لإهانة رموز الهيئة أو الوزارة التي يعملون فيها، ووجود كل هذه العناصر في الشارع مع وجود طرق مسدودة وسكة حديد مقطوعة كل هذه الأمور تؤدي إلى الشعور

بعدم الأمان، وحتى لو وضعنا جندياً وضابطاً في كل شارع فكل هذا يلقي بظلال كثيفة علي الحالة الأمنية والشعور الأمني لدي المواطن، صاحب كل ذلك جرأة وتجراً المواطن علي القانون وعلي هيبة الدولة فكافة رموز الدولة ومؤسساتها أهينت سواء من أشخاص أو من رموز ثورية أو من حركات كل هذا أدى إلي زيادة شعور المواطن بعدم الأمان، مشيراً إلي أنه لا يوجد في مصر رفاهية تحمل تبعات الصراع السياسي الموجود بالشارع ونتائجة الاقتصادية والسياسية والأمنية، كل هذا أدى إلي الوضع الاقتصادي السيئ الذي يفرض عناصر جديدة تغذي الشارع وتغذي الوضع الأمني. وانتهى التقرير الى أن ١٥٪ من الجرائم التي ترتكب لجناة لأول مرة فليس لديهم سجل جنائي ولا توجد عنهم معلومات جنائية. حيث أسفرت دراسة (المركز الديموجرافي، ٢٠١٣م) عن أن فئة الشباب هي أكثر فئات المجتمع ارتكاباً لجرائم العنف لما تتميز به هذه الفئة من قوة ورعونة بحكم التركيب الجسماني والنفسي لها وطبقاً للإحصائيات الواردة في تقارير الأمن العام فالشباب في الأعمار ١٨ إلى ٣٠ سنة قد ارتكبت ٥٠٪ من جرائم القتل، و ٥٧٪ من جرائم الضرب المفضي للموت، و ٨٠٪ من جنایات الاغتصاب، ٨٠٪ من جنایات هتك العرض، كما أن البطالة لها نصيب وافر في جرائم العنف، فقد ارتكب المتعطلون عن العمل ١٨٪ من إجمالي الجنایات و ٣٠٪ من جنایات السرقة بالإكراه، كما أن الأمية كانت سبباً من أسباب العنف في المجتمع فقد ارتكب الأميون ٨٠٪ من إجمالي جرائم العنف و ٨٣٪ من جنایات القتل العمد وحدها و ٩٣٪ من جنایات الاغتصاب وحده.

وتظهر الأرقام التي نشرتها صحيفة (فاينانشيال تايمز البريطانية، ٢٠١٢م) أن معدلات الخطف بدافع الحصول على فدية ارتفعت نحو ٤ مرات، من ١٠٧ حالات سجلت قبل الثورة إلى ٤٠٠ حالة بعدها، بل وانتشرت تلك الحوادث من المناطق النائية إلى كافة بقاع مصر. كما تصاعدت سرقات المنازل من قرابة ٧ آلاف حالة إلى أكثر من ١١ ألفاً. وتضاعف السطو المسلح ١٢ مرة، من ٢٣٣ حالة عام ٢٠١٠ إلى قرابة ٣ آلاف حالة سطو عام ٢٠١٢. وارتفعت حالات سرقة السيارات ٤ أضعاف، من قرابة ٥ آلاف سرقة إلى أكثر من ٢١ ألف حالة عام ٢٠١٢. ووصلت حالات القتل إلى أكثر من ألفي حالة سنوياً، بما في ذلك الضحايا الذين سقطوا في التظاهرات.

والغريب في معظم الدراسات والتقارير التي تناولت حالات الانفلات الأمني التي حدثت عقب ثورة ٢٥ يناير أنها حملت القسطن الأكبر من الجرائم على كاهل الشباب، والغريب أن الدراسات ذاتها قد بينت أن ٧٣٪ نسبة المصريين الذين لا يشعرون بالأمان هذه الأيام وتتراوح هذه النسبة من ٧٨٪ من الشباب في الفئة العمرية من (١٨-٢٩ سنة)، ٧٦٪ من هم في الفئة العمرية (٣٠-٤٩ سنة)، و ٦٤٪ من المصريين ٥٠ سنة فأكثر. ولم يكن الشباب وحدهم هم فريسة الشعور بغياب الأمن بل حملت المرأة بالذات القسطن الأكبر حيث كشفت الدراسات أن ٨٧٪ نسبة السيدات المصريات اللاتي لا تشعرن بالأمن والأمان في المواصلات العامة، تليها ٨٢،٦٪ من السيدات اللاتي لا تشعرن بالأمن والأمان في الشارع. كما اشرت الدراسات أن نسبة

السيدات المصريات اللاتي يتعرضن للتحرش الجنسي يومياً ٤٩,٢٪، و ٩,٢٪ من السيدات يتعرضن للتحرش أسبوعياً، أما اللاتي يتعرضن للتحرش بشكل شهري فقد بلغت نسبتهن ٧,٣٪.

و على الرغم تدهور الاوضاع الاقتصادية لمصر أعقاب ثورة الخامس والعشرين يناير وتراجع ترتيبها من حيث الناتج المحلى الإجمالى لتحتل رقم ٤٠ من بين ١٤٨ دولة. فى حين تأتى ألمانيا فى المركز الرابع وهى تتساوى مع مصر تقريباً فى عدد السكان- إلا أن انتاج مصر فى السجائر بلغ ٩٦,٧ مليون سيجارة فى ٢٠١١م/٢٠١٢م بزيادة بلغت ٤,٦ مليون سيجارة عن عام ٢٠١٠م. وعلى الرغم من وجود رئيس منتخب لمصر لمدة عام بدأ من ٣٠ يونيو ٢٠١٢ إلى ٣٠ يونيو ٢٠١٣ وكان من المفترض أن تكون البلاد قد استقرت إلا أن الدراسات تؤكد تزايد حدة الانفلات الأمنى وأن ترتيب مصر فى تقرير التنمية البشرية بلغ ١١٢ من بين ١٨٧ دولة فى حين كانت مصر فى المرتبة ١١٣ فى عام ٢٠١١م⁽ⁱⁱⁱ⁾. كما تشير الاحصاءات الى تراجع عائدات هيئة قناة السويس يوماً بعد الآخر منذ قيام ثورة يناير والتي وصلت فى مارس ٢٠١٣م إلى ٤٠٧ مليون دولار بنسبة انخفاض قدرها ٤٠,٨٪ عن مارس ٢٠١٢م.

ومن المفارقات الشديدة التى استرعت انتباهى أنه على الرغم من انخفاض الدخل القومى وهجرة المستثمرين وتوقف أكثر من ٤٥٠٠ مصنع بعد الثورة ألا أن عدد الاحتجاجات العمالية التى قام بها العاملون فى القطاع الحكومى- وليس الخاص- حوالى ١٩٦٩ احتجاج

فى ٢٠١٢م بمتوسط ٤ احتجاجات يومية، وعلى الرغم من هذه الظروف الاقتصادية الراهنة وتراجع معدلات التنمية بشكل ملحوظ بلغ عدد المواليد فى ٢٠١٢م حوالى ٢,٦ مليون مولود، وهو ما يعادل مجموع مواليد إنجلترا وفرنسا وإيطاليا وإسبانيا فى نفس العام.

وفى مصر صار الانفلات الأمنى شبحاً يطارد المواطنين أينما ذهبوا، فلم يكن فقط مرهون بالشارع، حيث أشار المركز المصرى لحقوق الإنسان فى تقريره الربع سنوى إلى غياب الأمن فى الشارع المصرى بصفة عامة وفى المدارس بصفة خاصة، وتضمن تقريره ما يلى:

١- هناك حالة واضحة من الغياب الأمنى فى الشارع المصرى مع تزايد حالات السرقة والاختطاف لتلاميذ المدارس وترويعهم من قبل البلطجية والخارجين عن القانون.

٢- رصد التقرير عدد (١٥) حالة عنف من قبل أولياء الأمور تجاه المدرسين عقاباً لهم على سوء معاملة أبنائهم وهى الأمور التى تؤكد انتشار ثقافة العنف بشكل واضح فى المجتمع المصرى.

٣- أشار التقرير إلى ظهور عدد من حالات التحرش الجنسى تجاه التلاميذ خلافاً لما يتم فى الشارع المصرى.

٤- على الرغم من أن قضية الفساد كانت من القضايا المهمة واللافتة للنظر عقب ثورة يناير من حيث السعى الجاد لتطهير البلاد من الفساد وتتبع الفاسدين ومحاكمتهم إلا أنه على العكس إزدادت وتيرة الفساد بشكل غير مقبول، حيث أكدت تقارير (مؤسسة الشفافية، ٢٠١٣م) أن ١٣٪ من المصريين ذكروا أنهم دفعوا رشوة فى العام الماضى

وحول أسباب تزايد معدلات الانفلات الأمنى فى مصر وارتفاع معدلات الجريمة تباينت المبررات ففى حين يرى البعض أن العنف المتفاقم والمتزايد فى الشارع المصرى ما هو إلا إرهاباً موجهاً إلى مصر وأنه نتاج واضح للتعصب وعدم الفهم الواعى لصحيح الدين، فهناك فريق يرجع تزايد معدلات الجريمة إلى التقصير فى الجهود الأمنية حيث ضعفت الرقابة والتدابير المتخذة لمواجهة الإضافة إلى التقصير الشديد فى الجهود الاجتماعية داخل المجتمع المصرى، سواء بترك الفقراء وذوى الحاجة نهياً لمشاكلهم التى تعترضهم وتنج بهم إلى الجريمة. وهناك من ربط ارتفاع معدلات الجريمة وحياسة وتجارة السلاح والتى انتشرت بشدة أعقاب قيام ثورة يناير وخاصة بعد اندلاع الثورة الليبية التى ساهمت فى إغراق السوق المصرية بأكثر من ١٢ مليون قطعة سلاح. حيث أشارت الدراسات إلى أن انتشار السلاح وسهولة الحصول عليه ورواج تجارة الأسلحة خاصة المهربة منها من أهم أسباب تفاقم الانفلات الأمنى ، ومن ثم ارتفاع وتيرة العنف والجريمة بالمجتمع. فى حين أوضحت دراسة أخرى أن المجتمع المصرى بصفة عامة وفى صعيد مصر بصفة خاصة فى الآونة الأخيرة يشهد ظهور أسلحة متطورة ساهمت بشكل كبير فى انتشار الكثير من جرائم الاعتداء على النفس والبلطجة، إذ أن خطورة الانفلات الأمنى وما صاحبه من حياسة السلاح لم تظهر فقط للذين يستعملون هذا السلاح فحسب، بل بدت خطورتها باعتبارها وسيلة من الوسائل العنيفة الفعالة، والتى يمكن اللجوء إليها من أجل الوصول إلى

أهداف معينة، وكذا باعتبارها ظاهرة اجتماعية سياسية تندرج في لائحة الظواهر المماثلة كالتخدرات وحرب العصابات، والحرب الأهلية وغيرها، ومع ذلك لم تلق هذه الظواهر الاهتمام الكافي، وقد يعود السبب في ذلك إلى اعتبارها جريمة عادية تعود مسؤولية الحكم فيها ومعالجتها إلى المحاكم الجنائية العادية، أسوة بأعمال الترويع الفردية التي يقوم بها المجرمون العاديون واللصوص والقتلة بهدف السرقة والنهب والابتزاز والثأر، دون أن يكون لمنظمات المجتمع المدني أو المؤسسات الأهلية دوراً واضحاً في الحد منها، وترشيد استخداماتها، مما يزيد من حجم هذه الظاهرة ويجعلها تستشري بين كافة الطبقات والفئات الاجتماعية، حتى وصلت إلى طلاب المدارس مما أدى إلى ارتكاب العديد من الجرائم تحت مسميات ومبررات مختلفة ومتعددة أيضاً.

وهناك فريق ثالث ربط بين الانفلات الأمني والجريمة وحياسة الأسلحة والتنمية مؤكداً أن حياسة السلاح زادت من معدلات الجريمة، كما أن انعدام الأمن والأمان يقلل من فرص التطور والاستثمار في قطاع كبير من قطاعات الإنتاج، وأن غياب القانون والتشريعات الرادعة ساهم بشكل كبير في تفاقم وتزايد معدلات الجريمة بجانب الانفلات الأمني الذي شكل حجر عثرة في تحقيق التنمية الشاملة. وفي هذا السياق أكد باحثون آخرون أهمية العامل الاقتصادي في زيادة أو انخفاض معدلات الجريمة، مبررين ذلك بأن انخفاض أو انعدام الدخل الشهري في بعض الحالات يؤدي إلى عدم القدرة على سد الاحتياجات الضرورية التي تدفع بالفرد إلى ارتكاب الجرائم لإشباع هذه الاحتياجات. وأصت بنفس

الدراسة بضرورة تعميق دور الأسرة وبنائها في المجتمع من خلال إبراز دورها في عملية التنشئة الاجتماعية وذلك بالتعاون مع المؤسسات الرسمية وذلك لبناء جيل من شباب الوعي المدرك لمسؤوليته ودوره في هذه المرحلة مع إعطاء أهمية متزايدة إلى المناطق شبه الحضرية الموجودة على أطراف المدن أو في المناطق الفقيرة المكتظة بالسكان لكي لا تكون مركزاً مناسباً لارتكبي الجرائم وذلك عن طريق توفير الخدمات، توفير أماكن ترفيه من أجل قضاء وقت الفراغ.

وما سبق تكشف الدراسات والإحصاءات عن حجم الكوارث الأمنية التي وقعت في مصر إبان ثورة ٢٥ يناير والتي أحدثت شرخاً كبيراً في النسيج الاجتماعي المصري الذي ظل متماسكاً على مدار ٧ آلاف سنة قاوم فيها المصريون دعاوى الفتنة كافة، وجابه بتماسكه كل معتد ومستعمر، والذي زاد الطين بلة هو التحول الكبير في أدوار المجتمع المدني ولاسيما الجمعيات الأهلية التي تخلت عن أدوارها الرعوية والتنموية عن عمد، ولبست عباءة الدفاع عن حقوق الإنسان المهضومة في بطون النظم المستبدة، مما أسهم بشكل كبير في تزايد أعداد المحتاجين ومستحقي الرعاية والذين أصبحوا لقمة سائغة في فم تجار السياسة، وأصحاب المصالح، يحركونهم تجاه مصالحهم أنى شاءوا، ويستخدمونهم كـ "فئران الحقل" يحرقون بهم مكتسبات الفريق المعارض حتى وإن أسفرت النتائج عن حرق الفقراء أنفسهم، ومن ثم تحول هؤلاء الفقراء من محتاجين يستخدمون "التسول" كأداة للعيش، "والسلم" كأداة للتعيش، تحولوا وبفعل

الفقر وانصراف الدولة والمجتمع المدني عن رعايتهم إلى مجرمين، يستخدمون "البلطجة" كأداة للعيش، "والعنف" كأداة للتعایش.

وفى هذا السياق يمكننا رصد المغارم التنموية لثورة ٢٥ يناير وما تسببت فيه من انفلات أمنى فى مجموعة من المحاور نراها قنابل موقوته انشوب ثورة جديدة ليست سياسية فى المقام الأول وانا هى ثورة للجوع:

١- المغارم الاقتصادية: لقد كان لثورة يناير مغارم اقتصادية عديدة، تمثلت فى تزايد معدلات البطالة بالمجتمع المصرى، والتي تفاقت كنتاج واضح لتوقف كثير من أرباب الحرف عن مواصلة أعمالهم، بالإضافة إلى انخفاض أجور العاملين بشكل غير مسبوق، مع تولى نسبة كبيرة من المصانع والشركات عن العمالة خاصة العمالة المؤقتة؛ نظراً لتعرض هذه المصانع والشركات للاعتداء والسلب والنهب والتخريب، كما أدى الانفلات الأمنى إلى حدوث أزمات اقتصادية ومالية كبيرة، تمثلت فى الخسائر الجسيمة بالبورصة مع انخفاض فى الاحتياطى النقدى المصرى وتعرض كثير من المؤسسات المالية لأعمال التخريب والنهب والسلب، بجانب الزيادة غير المقبولة فى الأسعار والتي صاحبها عدم قدرة المواطنين على توفير احتياجاتهم الضرورية، فضلاً عن هروب الاستثمارات إلى الخارج وتدنى معدلات العوائد السياحية.

٢- المغارم الاجتماعية: أسفرت الشواهد عن مغارم اجتماعية عديدة للانفلات الأمنى تمثلت فى انتشار البلطجة والتعدى على

الأخرين وما صاحب ذلك من ظهور للعصابات المسلحة وتعرض المواطنين للاختطاف والسرقة بالإكراه، بجانب التأثير السلبي على العلاقات الاجتماعية بين أفراد المجتمع وتدهورها وما صاحبها من غياب للاحترام المتبادل بين أبناء المجتمع، مع تزايد معدلات العنف بين أبناء المجتمع الواحد وبين أفراد الأسرة الواحدة. كما أدى الانفلات الأمني أيضاً إلى تدهور المرافق العامة بالدولة مع غياب واضح لكافة أعمال الصيانة الدورية لهذه المرافق. وأخطر هذه الممارم هو ارتفاع حالات التفكك الأسري وتزايد معدلات الطلاق وضعف قبضة الأسرة على أبنائها.

٣- الممارم البيئية: هناك أضراراً ومخاطرًا بيئية عديدة نجمت عن الانفلات الأمني عدها المبحوثون في انتشار الحرائق في مناطق عديدة بالدولة خاصة في الميادين العامة ومؤسساتها. فضلاً عن التفجيرات التي تلحق بالمنشآت البترولية، بجانب غياب دور المحليات في مواجهة المشكلات البيئية والتي ظهرت جلية في الانتشار غير المقبول للكتابات على الحوائط، مع عدم قدرة أجهزة الأمن على التصدي لكافة أعمال التهريب للنفايات والملوثات الكيميائية الخطرة. وارتبطت الممارم البيئية أيضاً بانتشار الملوثات المائية والهوائية خاصة تلوث الهواء نتيجة لأبخرة الانفجارات وحرق المنشآت وتلوث مياه النيل، كما تفاقمت أزمة القمامة كنتاج واضح للانفلات الأمني؛ حيث ظهر ذلك جلياً في انتشار القمامة في كثير من الميادين العامة مع انتشار الخلفات وما صاحبها من انتشار للأوبئة والأمراض نتيجة لهذه الخلفات.

٤- **المغارم الصحية:** وفي هذا السياق يمكننا رصد أضراراً صحية بالغة نجمت عن الانفلات الأمني وتمثلت في تدهور حالة الإنتاج الدوائي وما صاحبه من ندرة شديدة لبعض الأدوية مع الزيادة المستمرة في أسعار ما هو متاح منها في الأسواق المحلية، بجانب عدم توفرها في المستشفيات العامة، كما ارتبطت أيضاً بغياب دور الدولة في توفير الرعاية الصحية للمواطنين والذي جاء واضحاً في تدنى الخدمة الصحية بالمستشفيات مع انخفاض الدور الرقابي للدولة عليها بجانب عجزها عن توفير الأجهزة الطبية بها، فضلاً عن غياب الحماية الأمنية للمواطنين، والذي ظهر جلياً في تعرض حياة الأطباء للخطر نتيجة لتعدى المواطنين عليهم. بالإضافة إلى تزايد وتيرة العنف والقتل بين أفراد المجتمع مع ارتفاع ملحوظ في عدد الوفيات نتيجة لعدم قدرة المؤسسة الصحية على توفير الرعاية الصحية للمرضى.

٥- **المغارم الأمنية لثورة يناير:** هناك عوامل عديدة تسببت في الانفلات الأمني وتفشى الفوضى إبان ثورة يناير أولها ضعف الأداء الشرطي نظراً لحرق كثير من أقسام الشرطة، وتعرض كثير من رجال الأمن للبلطجة والاعتداء عليهم حتى القتل فضلاً عن تعرض كثير منهم للمحاكمات بتهمة استخدام العنف في التعامل مع حالات الانفلات الأمني. ثانياً فقدان الثقة بين الأجهزة الشرطية والغالبية العظمى من المواطنين وحالات الاحتقان الموجودة لديهم عبر سنوات ما قبل الثورة . ثالثاً توقف العمل بكثير من القوانين وارتعاش أيدي حكومات ما بعد الثورة في التعامل مع حالات الانفلات مما يؤدي إلى تزايدها .

الفصل الخامس

هل نحن مقبلون على مجاعة ؟

١ لن تنتهض مصر من كبوتها إلا إذا أدرك
النظام أن الطعام حق لكل فم .. وأدرك
الشعب أن العمل فرض على كل ساعد .."

تمهيد:

على مدار تاريخ مصر الحديث وبعض حقب من التاريخ القديم كان
الفقرو لا يزال بيت القصيد فى كافة المناقشات السياسية والصراعات
المخدمة بين الدولة والشعب، وكان المجتمع دائماً والقوى السياسية
الشعبية فيه تحمل شخصية الحاكم وطريقة إدارته للدولة ومواردها
العبء الأكبر فى كل هذه الشئون وتلك الشجون، وكلما اشتد الفقر
وطأة كان حلم الخلاص من الحاكم هو الهدف .. وكان الخلاص من
مصيدة الفقر كان مرهوناً بالخلاص من الحاكم، فيما عدا الفترات
التي انشغلت فيها القيادة السياسية بالحروب ومجابهة الأعداء،
حيث انشغل الشعب عن إشباع احتياجاته الإنسانية بالعمل على
استرداد الكرامة وحرير الأرض، وتاصل ذلك التفانى فى حب الوطن فى
شخصية الإنسان المصرى عبر تاريخه الطويل فى صراعه مع حكامه
المتجبرين. فالفقر حميم لعامل اللامساواة وغياب العدل والعدالة

الاجتماعية والجناائية فهو رذيلة اجتماعية تخشاه كافة المجتمعات المعاصرة وتحسب له بالتخطيط الجيد للتخلص منه أو التخفيف من قسوته على الفرد والمجتمع. ففي عهد مبارك لم يرى الشعب مبرراً للسنوات العجاف التي لم تنقض ولم يجد تفسيراً لها في كل مجالات الحياة سوى بفشل يلاحق فشلاً في الإدارة السياسية للبلاد. حيث جاء تقرير الأمم المتحدة الصادر في ٢٠١٠ يرسم صورة سيئة للأوضاع الاجتماعية في مصر إبان ثورة يناير؛ مؤكداً أن ١٠,٧ مليون مصري لا يحصلون على احتياجاتهم من الغذاء وأن ٢٤,٨٪ من المصريين يعيشون بدخل يومي لا يتجاوز ٢ دولار وطبعاً بالقيمة الشرائية للدولار في أمريكا وليس بالقيمة المصرفية له في مصر. كما بين التقرير أنه في أواخر عهد مبارك توقف ٢٣,٣٪ من الأطفال عن إتمام دراستهم، وأخطر ما جاء في التقرير أن نسبة الفقر ارتفعت بمعدل ٧٪ في نهاية ٢٠١٠. ولكي تزداد الصورة قتامة كشف التقرير عن تفشي وباء الالتهاب الكبدي سى إلى حد بلغ في بعض المحافظات ٥٧٪ وهذه الصورة بالغة السواد لم تفلح معها ما أعلنته حكومات ما بعد الثورة بأن هناك إجراءات تشرع الحكومة في اتخاذها للإصلاح الاجتماعي وتنمية الريف المصري الذي بلغ عدد القرى الأكثر فقراً فيه ٣١٥٠ قرية بل ارتفع معدل الفقر في المجتمع المصري بعد الثورة ليصل إلى ١٧٪.. ولعل هذه الأوضاع المتردية كانت هي العوامل الحافزة لقيام ثورة يناير وتأخر فترة الاستقرار في مرحلة ما بعد الثورة.. فرغم أن الثورة كانت هي الأمل المعقود للخلاص من

مصيصة الفقر العنكبوتية التي تشعبت أسبابها في كافة أنظمة الحكم الفاسدة إلا أنها كانت صائمة لكثيرين من عامة الشعب الذين تعطلت مصالحهم وتوقفت أعمالهم وانحسرت دخولهم في إطار من حالات الاحتكار والاستغلال التي يمارسها التجار بتحكمهم في أسعار السلع الأساسية.

فبعد الثورة تزايدت معدلات الفقر في مصر بصورة ملحوظة، سواء إذا ما قيس بحد الأسر التي تعيش عند مستوى الفقر أو أقل منه؛ حيث أوضحت مسح الاستهلاك في أوائل ٢٠١٢م ارتفاع معدل الفقر الكلي، مع عدم قدرة ٤٤٪ من السكان على الإنفاق بشكل كافٍ للحصول على الحد الأدنى من الغذاء المناسب. كما أدى إغلاق وتوقف كثير من المصانع والأعمال بسبب كثرة التذمرات العمالية وإحراق كثيراً من المصانع في إطار من حالات الانفلات الأمني إلى انخفاض متوسط الدخل ومن ثم انخفاض الإنفاق العائلي على الطعام.

وتشير التقارير إلى أن إطالة الفترة الانتقالية يرتبط بارتفاع معدلات الفقر وشيوع الجريمة. وأنه لا خلاص من هذه المصيصة دون خطة حكيمة تشترك فيها كافة الأطياف المؤهلة من كل قطاعات الدولة من خلال الأخذ بآلية بنوك الأفكار (ثناك تانك) التي تفتح نوافذ الإبداع أمام المبدعين من شباب مصر وكفاءاته المخلصة مع ضرورة التخلي عن سياسات التهميش والإقصاء والاستبعاد الاجتماعي المتعمد لميول حزبية أو دينية وأن يكون معيار الاختيار دائماً هو الكفاءة وليس المكافأة للتبعية لنظام أو جماعة، مع تنظيف كافة الأوعية

الإدارية مما علق بها من أفكار تعلقت بسياسات النظام السابق ولا نكتفي فقط بتغيير الوزراء واستبعاد أعضاء المجالس المحلية فالأخطر من ذلك هم وكلاء وزارات العهد السابق وكبار التنفيذيين الذين لم تصلهم الثورة كفكر ومازالوا يعملون بنفس الآلية ولا يدركون طبيعة المرحلة ولا آليات التغيير..

هل نحن مقبلون على مجاعة؟

رغم تعرض مصر لثورتين كبيرتين خلال ثلاثة أعوام متعاقبة، فما يزال الحديث عن موجة ثورية ثالثة يتصدر تفكير ونقاشات كثير من السياسيين ورجال الاقتصاد.. ويظل السؤال قائما هل نحن بالفعل معرضون لثورة جوع؟؟ الإجابة بكل شفافية "نعم" معرضون لثورة جديدة يقودها جوع. إذا ما استمرت هذه الأوضاع التي تعيشها البلاد كما هي.. إذا ما استمرت موجات الغلاء بلا ضابط، وتحمل تكلفتها الفقراء وحدهم. وظل رجال القصر في أماكنهم يهنئون برغد العيش يفكرون في مجاعة الفقراء بطريقة ترفيحية تقليدية..

فبعد موجات الغلاء التي صاحبت تولى المشير عبد الفتاح السيسي لرئاسة البلاد والذي بادر في الأسابيع الأولى من توليه السلطة بإصدار قرارات برفع أسعار الطاقة ورفع الدعم بشكل كبير؛ مما تسبب في ارتفاع غير مسبوق في السلع الأساسية، وتحمل الفقراء ٦٤ ٪ من تكلفة الغلاء، بينما لم يتحمل القادرون سوى ٧ ٪ من تكلفة علاء الأسعار وهم العاملون في دولاب الحكومة والذين لم

تتجاوز أعدادهم ٦,٥ مليون عامل وهم الذين استفادون من الحد الأدنى للأجور الذى اقترته حكومة الببلاوى والتي جاءت أعقاب ثورة ٣٠ يونيو إبان حكم الرئيس الموقت المستشار عدلى منصور. بينما لم يتمتع همزايا الحد الأدنى العاملين فى القطاع الخاص المنظم وغير المنظم . والذين هم أنفسهم تعرضوا لغلاء الاسعار كغيرهم من العاملين فى الحكومة.. بالإضافة الى قطاعات عديدة أخرى من الشباب المتعطل عن العمل والذين وصلت نسبتهم ١٣,٤ ٪ . فلم تتمكن الدولة من وضع ضوابط لرفع أجور العاملين فى القطاع الخاص، ولم تتمكن أيضا من جعلهم يتمتعون بالحد الأدنى من الأجور والذى تم تحديده بـ " ١٢٠٠ جنيه " شهريا. وفى هذا السياق اشارت دراسة المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية أن ٧٨ ٪ من المترددين على موائد الرحمن فى رمضان من العاملين فى القطاع الخاص؛ مما يؤشر لحدوث العاطلين فى هذا القطاع على أزمة طاحنة فى الغذاء .. فغالبا ما يستمر معظم العاملين فى المطاعم والاكشاك والباشرركات الصغرى والباع بالشوارع حتى موعد الافطار ليتناولوه فى الموائد، نظرا لعدم كفاية دخولهم فى اشباع الاحتياجات الأساسية لأسرهم.

ورغم التزايد المضطرد فى الأسعار والتهور الواضح فى البنية للاقتصادية للدولة وتراجع معدلات التنمية، لم يتوقف المصريون عن الانجاب، بل ارتفعت معدلات الزواج بعد ثورة ينايرولا سيما ابن حكم الاخوان فى ٢٠١٢م، ووصل عدد المواليد فى ذلك العام قرابة ٢,٦ مليون طفل وهو ما يعادل حجم مواليد أربعة دول أوربية فى نفس العام

مثل أسبانيا وإيطاليا وفرنسا وبريطانيا. وفي ٢٠١٣م تزايد أيضا معدل المواليد بشكل ملحوظ وان كان أقل من سابقه في ٢٠١٢م. حيث اشارت تقارير الجهاز المركزي للتعبئة العامة والاحصاء ان عدد سكان مصر ارتفع من ٨٣ مليون و٤٥٢ ألف في يناير ٢٠١٣ الى ٨٣ مليون و٨٧٥ ألف في يناير ٢٠١٤ و مشيراً الى ان عدد المصريين في الخارج يتجاوز ٧,٨ مليون و طبقاً لتقديرات وزارة الخارجية ليصل اجمالي السكان الى ٩١,٢ مليون نسمة أوائل عام ٢٠١٤ . أى أن مصر أُنجبت في ٢٠١٢م ما يعادل تقريبا عدد سكان دولة قطر مضافا إليه ٧٠٠ ألف طفل .ولعل هذا الزيادة المضطردة دفعت الى زيادة حجم الانفاق ليصل إلى ٨٠٧ مليار جنيه. بمعدل عجز ٢٨٨ مليار جنيه. حيث بلغت نسبة الايرادات حتى يونيو ٢٠١٤م حوالى ٥١٧ مليار جنيه .. وهذا العجز في الموازنة (٢٠١٤ / ٢٠١٥م) هو ما دفع الرئيس عدلى منصور وعبد الفتاح السيسي إلى رفضها والمطالبة بتخفيض العجز : مما تسبب في تخفيض مسبة الدعم على الطاقة والسلع الأساسية تمهيدا لرفع الدعم الكامل خلال الثلاث سنوات التالية . وتشير التقارير أن الزيادة في تعداد السكان لم تقابلها زيادة مماثلة في معدلات النمو الاقتصادي، وأن ان عدداً كبيراً من المصانع يعمل بنحو نصف طاقتها نتيجة عدم انتظام العمالة وعدم توافر الخامات ومستلزمات الانتاج وتم غلق العديد من المصانع بعد ثورة ٢٥ يناير حيث ان اجمالي المصانع المتوقفة عن العمل بلغ ٣ الاف مصنع حتى عام ٢٠١٣ في مجالات التصنيع المختلفة , منهم ١٥٥٠ مصنعاً كان

متوقفاً قبل الثورة ، وتم إعادة فتح وتشغيل ٣٠٠ مصنع . فى حين أكد تقرير صادر عن مؤتمر عمال مصر الديمقراطى ان المصانع التى اغلقت فى اعقاب ثورة ٢٥ يناير وحتى اول عام ٢٠١٢ تجاوزت ٤٥٠٠ مصنع فى ٧٤ منطقة ، وفى ابريل ٢٠١٣ اصدر الاتحاد العام لنقابات عمال مصر تقرير يؤكد ان اجمالى عدد المصانع التى اغلقت بعد ثورة يناير بلغ ٨٢٢٢ مصنعاً . بينما أشار مركز " بصيرة " إلى أن اجمالى المصانع المغلقة حتى النصف الأول من عام ٢٠١٤م بلغ ٤٦٠٣ مصنع. وتشير بعض التقديرات ان خسائر قطاع الصناعات التحويلية والاستراتيجية خلال الفترة من ٢٨ يناير الى ٥ فبراير بلغت نحو ٢,٧ مليار جنية . مما تسبب فى ارتفاع معدلات الاسيتراد من الخارج بنسبة ١٧ ٪ فى الوقت الذى تراجعت فيه معدلات التصدير بنسبة ٥ ٪. ليس ذلك فحسب بل هبط معدل النمو فى قطاع قناة السويس فى ٢٠١٣م ليصل الى - ٣,٨ ٪ فى حين بلغ هذا المعدل فى ٢٠١١م حوالى ١٢,٧ ٪، علما بأن قناة السويس هى المصدر الاساسى للعملة الصعبة بعد ضرب نشاط السياحة و تحويلات المصريين بالخارج والتى تبلغ حوالى ١٨ مليار جنية سنوياً.

وحول قطاع السياحة الذى يعد المصدر الثانى للعملة الصعبة اشارت التقارير الصادرة عن الجهاز المركزى للتبئة العامة والاحصاء إلى أن السياحة فى مصر وصلت الى افضل اعوامها فى ٢٠١٠م ؛ حيث زار مصر فى هذا العام ١٤٠٨ مليون سائح وحقت السياحة دخل بلغ ١٢٥ مليار دولار وبعد ثورة يناير حقق قطاع خسائر كبيرة

قدرها ٨٢٥ مليون دولار نتيجة الغاء الحجوزات السياحية خلال شهر فبراير ٢٠١١م، وقدّر عدد السائحين الذين غادروا في الأسبوع الأخير من يناير ٢٠١١ بنحو ٢١٠ ألف سائح.

في عام ٢٠١٢ قدرت وزارة السياحة حجم خسائر قطاع السياحة ب ٢٦٧ مليون دولار اسبوعياً منذ اندلاع احداث ثورة ٢٥ يناير، وتراجع الاشغالات بنسبة تتراوح بين ١٨,٥٪ بحسب ماورد في دراسة حكومية بعنوان " بحث وتحليل وانعكاسات احداث ثورة ٢٥ يناير والثورات العربية على القطاع السياحي في مصر وأشارت الدراسة الى انخفاض حجم انفاق السائح من ٨٥ دولار الى ٧٢,٢ دولار يومياً وهو ما اثر على دخل السياحة . وأشارت الدراسة إلى أن مصر تراجعت بنحو ١٣ مركزاً في تقرير التنافسية السياحية الذي احتلت فيه المركز رقم ٩٤ من بين ١٤٢ دولة مقارنة بالعام الماضي.

ولم يكن أمر التعرض للمجاعة متعلقاً فقط بالسياسات الانتاجية والاقتصادية التي تتبعها الحكومة . بل كان للتغيرات المناخية والصراعات السياسية المحيطة بالبلاد دورا كبير في تعرض المصريين للمجاعة. حيث تشير الدراسات إلى أن تشير الدراسات الى أن التغير المناخي يؤدي إلى خفض انتاجية كثير من المحاصيل الزراعية بنسبة تتراوح بين ١١٪ للأرز و ٢٨٪ لفول الصويا بحلول عام ٢٠٥٠م، مقارنة بأنتاجيتها تحت الظروف الحالية ، في حين يؤدي هذا التغير في درجات الحرارة الى ارتفاع انتاجية القطن بحوالي ٢٩٪ مقارنة بالوضع الحالي . ولعل هذا التأزم في ظاهرة تغير المناخ هو ما جعل

مصر تحتل مركز الصدارة الأول فى معدلات التصحر على مستوى العالم بنسبة ٢٦ ٪، حسب تقرير السكرتارية التنفيذية لاتفاقية الأمم المتحدة للتصحر والذي اشار بأن مصر تفقد كل ساعة حوالى ٣,٥ فدان من أراضيها الزراعية الخصبة والمحدودة بالدلتا. ما يقلص من حجم الانتاجية الزراعية ويعجل بالتعرض للمجاعة، خاصة وان الأرض الصالحة للزراعة فى مصر لا تتجاوز ٤ ٪ من مساحتها، وأن ٨٦ ٪ أراضي شديدة القحولة و١٤ ٪ أراضي قاحلة.

وإذا كان النيل هو مصدر الاشباع والمجاعة على مدار تاريخ مصر الطويل. فقد عانت مصر على مدار السنوات القليلة الماضية من تقلص حصتها من مياه النيل، فى ظل النمو السرى للسكان والذي يتطلب تزايد موازيا فى حصتها مياه الشرب لدرجة أنه قدر العجز فى مياه الشرب ابان ثورة يناير بحوالى ١٣ مليار متر مكعب، وتشير التقارير أنه فى حالة قيام اثيوبيا ببناء سد النهضة على مياه النيل سوف تخسر مصر حوالى ١٣ مليار متر مكعب جديدة من حصتها الأساسية وهى ٥٥,٥ مليار متر مكعب؛ مما يكون له أكبر الأثر على الزراعة مستقبلاً.

ولم تنته الأزمة عند انحسار مياه النيل للإشارة على تعرض مصر لما يسمى "بالجوع المائى". بل تشير التقارير إلى انخفاض نسبة مياه الأمطار التى تسقط على سواحل مصر الشمالية خلال الأربعة الأعوام الماضية. فبعد أن كانت ١٥٠ ملم قبل ٢٠١١م بلغت هذا العام حوالى ٨٠ ملم؛ مما اثر بشكل كبير على انتاجية الزراعات القائمة على الأمطار ناهيك عن أثره فى خصوبة الأرض الزراعية.

أضف إلى تلك الأزمات المتعلقة بالنيل والمطر أن ٩٥ ٪ من المصريين يعيشون في أراضي الوادى والدلتا. وأن هذه الزيادات في السكان تصاحبها حاجة إلى وحدات سكنية غالباً ما يتم بنائها على أراضي زراعية خصبة، فبعد ثورة يناير افترش المصريون الأراضي الزراعية بالخرسانة كبديل عن زراعة القمح والذرة . حيث بلغ اجمالى حالات التعدي على الأراضي الزراعية منذ يناير ٢٠١١ حتى ٩ ديسمبر ٢٠١٣ وصل الى ٩٤٢ الف ٧٩٠ حالة (بمساحة ٤٠٣٥٤ فدان) وتم ازالة التعدي عن ٩٦ الف و٥٨٦ حالة منها (بمساحة ٥٥٥٠ فدان) .

ولكل هذه العوامل مجتمعة تقلصت مساحة الأراضي الزراعية الخصبة، وتقلص بناء عليها حجم الانتاج الزراعى من المواد الغذائية الاساسية، لدرجة أن أصبحت مصر الآن دولة مستوردة لأغلب المواد والسلع الغذائية وكانت تستورد أكثر من ٥٠ ٪ من الغذاء والآن تستورد نحو ٧٠ ٪ من السلع والمحاصيل الغذائية .

وتشير احدث التقارير الاحصائية أن مصر التى تعتبر اكبر مستورد للقمح فى العالم.. وانها فى حاجى لتبنى سياسات زراعية جديدة تعمل على خفض واردتها من القمح بين ١ - ١,٥ مليون طن. وأن مصر تشتري فى العادة ٣,٦ مليون طن من القمح سنوياً من المزارعين، وتستورد حوالى ١٠ ملايين طن من الخارج بتكلفة ٣٢ مليار جنية لتلبية احتياجات برنامج الخبز المدعم . وتستورد مصر قرابة ٦٠ الف طن قمح روسى بسعر ٢٦,٨٤ دولار للطن , و ٦٠ الف طن قمح رومانى بسعر ٢٦,٥ دولار للطن الواحد .

ورغم السياسات العديدة التى تبنتها حكومات مبارك وحتى حكومة ما بعد ثورة يناير للحد من الفقر فإن هذه السياسات قد فشلت جميعها فى مواجهة الفقر؛ حيث اشارت تقارير الجهاز المركزى للتعبئة العامة والاحصاء عن زيادة معدل الفقر فى مصر الى ٢٦,٣٪ من اجمالى السكان ، وفقاً لمقياس الفقر القومى خلال عام ٢٠١٣/٢٠١٢ مقابل ٢٥,٢٪ فى العام السابق له ٢٠١١/٢٠١٠ . وأن ٤٩٪ من سكان ريف الوجهة القبلى لا يستطيعون الايفاء باحتياجاتهم الأساسية من الغذاء خلال عام ٢٠١٣/٢٠١٢ مقابل ٤٤٪ خلال عام ٢٠٠٨/٢٠٠٩ بينما تصل هذه النسبة الى الثلث فى الحضر . أن نسبة الفقراء بين الامين بلغت ٣٧٪ فى عام ٢٠١٣/٢٠١٢ مقابل ١٢٪ بين حاملى الشهادات الجامعية، وتقل نسبة الفقر كلما ارتفعت مستويات التعليم .

كما تؤكد التقارير على تركيز غالبية الفقراء فى مصر بمحافظات الوجهة القفلى حيث تصل نسبتهم الى ٣٥,٢٪ من اجمالى سكان الوجهة القفلى ، بينما تنخفض نسبة الفقراء فى محافظات الوجهة البحرى الى ١٣,١٪ .

واذا كانت كل هذه الاحصاءات والنتائج تؤشر على أن المصريين قادمون على كارثة تاريخية مرتبطة ببقاء الانسان المصرى على الأرض وهى كارثة الجوع .. ازمة شاركت فيها الطبيعية والمؤمرات الدولية وسياسات الحكومات المتخبطة وسلوكيات الانسان المصرى غير المسئولة.. والتى أوصلت مصر إلى هذا الوضع المأزوم لتكون

قضية صراع الشعب مع النظام هي قضية حياة أو موت. فرغم تعدد متطلبات الحياة في مصر إلا أن تقارير مركز المعلومات واتخاذ القرار تشير إلى أن المصريين ينفقون ٤٤,٩ ٪ من أجمالي دخولهم على الغذاء، بما يعادل ٢٠٠ مليار جنيه سنوياً، ومن المتوقع ان يتضاعف هذا الرقم في السنوات المقبلة ؛ نظرا لارتفاع أسعار المواد الغذائية، والذي بلغ نسبة غير معقولة بين ١٠٠ الى ٢٥٠ ٪.

هل هناك أمل؟

لا شك أن الأمل موجود ولكن ليس بالأمل وحده ولا التمني لحل المشكلات أو تنهض الأمم. ولكننا بحاجة لسياسات جديدة قادرة على تجاوز أزمات الواقع الاجتماعي والاقتصادي والثقافي والسياسي الذي نعيشه.. فالواقع يقول أن أزمنا ليست في مواردنا ولا في ندرتها. وكبوتنا ليست في حجم تعدادنا، وإنما هي في طبيعة البشر ولا اعنى بالبشر التعداد السكاني .. ولكنى أعنى العقلية التى يفكرون بها .. والأساليب التى يتبعونها فى مواجهة مشكلاتهم اليومية. والخطط التى يرسمونها لتنمية ذواتهم وتنمية المجتمع الذى يعيشون فيه.. كما أن المشكلة ليست فى المكان واقصد به جغرافية الوطن وإنما فى الزمن الذى يسوقنا أمامه ويباغتنا، فإما ننتصر عليه وإما ينتصر علينا .. وإذا سبقت الأزمات تطور المجتمعات؛ فإن هذه المجتمعات سوف تسقط بلا محالة. وحتى نكون واضحين مع أنفسنا لابد لنا من الاعتراف بأننا زمانا قد سبقنا ببضع وستين سنة على الأقل، أو

قل منذ نهاية الحرب العالمية الثانية والتي شكلت نقطة انطلاقا لكثير من الشعوب التي سبقت الزمن فغلبته ووقعنا نحن فريسة سهلة وأصبحنا لقمة سائغة في فم أم كثيرة تكالبت علينا تشدنا للخلف بمفاهيم تنموية مزيفة أو سياسية واهية. ودون تدخل مباشر منها حملنا نحن بانفسنا مهمة اسقاط الوطن في كافة القطاعات وعلى كافة المستويات .. وأن الآن بعد قرابة أربعة أعوام من ثورة يناير أن نتحرك سريعا لنسابق الزمن ونحدد الهدف . ولا أعنى بالهدف وصول فصيل سياسى معين للسلطة فكله لا يهم .. ولكن الهدف هو نقل مصر نقلة نوعية جديدة تقربها على سباق الزمن ومجابهة تحدياته وتنافس على الوصول للقمة . ولن يتحقق ذلك دون تحديد هوية جديدة للوطن .. هوية تتواءم مع التغيرات الدولية المعاصرة والتقدم التكنولوجى السريع .. هوية يتفق عليها كل أبناء الشعب .. ويتفق عليها الشعب والنظام على حد سواء .. هوية تقوم على استثمار مواردنا الثابتة الاستخدام الامثل وتقليل حجم اهدارها قدر المستطاع .. هوية تقوم على تجاوز الموارد الثابتة والبحث فى دخول السوق التكنولوجى والتنافس على مكانة متميزة فيه .. هوية تقدم بناء دولة القيم على دولة السياسة .. هوية تضمن أن تصبح مصر دولة شابة على مدى التاريخ .. يقودها المبدعون من شبابها .. بعد أن شاخت، وصارت دولة عجائز. قادها الشيوخ من ابنائها فترات طويلة؛ حتى أوصلوها معهم إلى أبواب القبر.. هوية تجبر المواطن على المباهة بوطنه والانتماء إليه .. وتقديم امته وأمانه على كل

شيئ.. هوية يصنعها المثقفون والعامة ورجال السلطة والدين ..
هوية ترفض الاقصاء والاستبعاد إلا لجرم مقصود .. فقد أن للوطن أن
ينهض .. ولن ينهض سوى بأبناءه المخلصون المتكاتفون من أجل بناء
الوطن والحفاظ عليه ..

وإذا كنا بصدد التنظير للخروج من أزمة الفقر وحقاشي الوقوع في
برائن الجوع فعلينا الالتزام بالتالي :

**أولاً : إعادة النظرة في السياسات الائتمانية الحالية وتبني
سياسات جديدة للمشروعات الصغيرة ومتناهية الصغر :**

تمثل مؤسسات الإقراض متناهي الصغر إحدى أهم المصادر
الخارجية الرسمية لتمويل المتاح للفقراء النشطين اقتصاديًا، و
يؤدي الإقراض متناهي الصغر على المستوى الجزئي إلى زيادة الإيرادات
والاستثمارات في الأعمال وخلق فرص العمل، ويؤدي أيضا إلى تحسين
التغذية وحصول العملاء على الخدمات الصحية والتعليمية، وأخيرًا
يسهم الإقراض متناهي الصغر في زيادة الشعور الإجمالي بتحسين
الأحوال والتقدير الإيجابي للذات عند أصحاب المشروعات متناهية
الصغر، فضلا عن دوره في إغاثة الفقراء أمام الظروف الطارئة، ولذلك
فهو يمثل صمام أمان للمجتمع والفقراء، وبناءً على هذا التوجه
ينبغي أن تبقى مؤسسات الإقراض متناهي الصغر في هذا الإطار
التنموي دون محاولات تحقيق أي مستوى من الربح أي أن تتم مراجعة
نسب الفائدة المحصلة على القرض بحيث تبقى في حدود المصروفات
الإدارية وخدمة الدين فقط، ومن ناحية أخرى ينبغي على مؤسسات

الإقراض متناهي الصغر تطوير منتجات وخدمات جديدة تتناسب واحتياجات كل أنواع العملاء. حتى يصبحوا قادرين على المساهمة الملموسة في الاقتصاد المصري بشكل أكبر وكلما ارتقى العملاء في تملك أصول مشروعاتهم كلما أصبحت أعمالهم أقوى، كما يكون لدى أولئك العملاء عدد أكبر من العاملين، وتحقيق أرباحاً شهرية أعلى، وأصبحت لديهم القدرة على الخروج من دائرة الفقر، وتوليد قيمة اقتصادية مضافة على مستوى الاقتصاد الكلى، ولذلك نوصى من خلال هذه الدراسة بما يلي :

١ - إنشاء هيئة لقطاع التمويل متناهي الصغر في مصر كلها، بحيث يمكن من خلالها وضع الاستراتيجيات العامة للتمويل والأهداف وإدارة المعلومات وتحقيق الانتشار الجغرافي العادل، بحيث يمكن احتواء الفقراء وتعيمهم للحراك الإجتماعى المنشود لهم.

٢ - وفى ضوء استهداف الفقراء والدور التنموى لهذه المؤسسات تصبح المرونة شرط ضروري فى التعامل معهم إذ أنهم أكثر تأثراً من غيرهم بالتحويلات والتوترات الاقتصادية وما يصاحبها من ارتفاعات مفاجئة فى الأسعار وتزايد فى التضخم، ومع قدراتهم الاقتصادية المحدودة يصبح التعثر المؤقت فى السداد أمراً وارداً ومن ثم ينبغي ألا يدفع الفقير ثمن هذا التوتر الاقتصادى، فقد أنشئت هذه المؤسسات فى الأصل لمساعدته فهو الأصل فى وجودها وليس العكس، وبناءاً عليه يجب أن تبقى المؤسسة والعاملين فيها فى خدمته وتنفهم ظروفه وتضع له الحلول وتعينه لا أن تعين عليه، ومن ثم ينبغي

مراجعة كافة إجراءات الحصول على القرض وشروطه من حيث القيمة وفترة السداد والفائدة وغيرها حتى تتلاءم هذه الشروط مع احتياجات الفقراء.

٣ - توفير آلية لقياس تطلعات الفقراء بشكل دورى - كل عامين مثلاً - ومدى رضاهم عن البرامج ومقترحاتهم حتى يمكن تجويد الأدوات والبرامج ومراجعة الأخطاء والسلبيات.

٤ - ابتكار إستراتيجيات تسويقية متجددة تلائم السياق الثقافي الذى تدور فيه، فالرسالة الإعلانية التى تلائم المزارع تختلف عن تلك التى تلائم الصياد عن تلك التى تلائم أهل الصعيد.

٥ - تطوير منتجات جديدة من أجل زيادة الأثر الكلى أو الشامل مثل التأمين الصحى والتأمين على الحياة، صناديق المعاش، التأمين ضد مخاطر الائتمان، أو القروض الاستهلاكية، وتطوير خدمات جديدة مثل قروض لبدء الأعمال بأقساط وفترات سماح مناسبة، التأمين، التحويلات، تشجيع الحسابات الادخارية، والقروض الاستهلاكية "للأغراض الأسرية" (مثل الزواج والحالات الطارئة) أو القروض المصممة لخدمة المشروعات التى تعمل على أساس أسرى، وهذا سوف يفيد أصحاب المشروعات متناهية الصغر، كما يفيد المؤسسات التى تمولهم عبر زيادة انتماء العميل والارتقاء بكفاءة مؤسسات الإقراض متناهية الصغر فى احتواء الفقراء.

٦ - الاهتمام بالتدريب وخدمات الاستشارات وتنمية الأعمال لأن هذا من شأنه الارتقاء بإدارة المشروعات متناهية الصغر وتقليل المخاطر التى يتعرض لها القرض والعميل فى آن واحد.

ثانياً: الالتزام بمبدأ العدالة الاجتماعية فى توزيع عوائد التنمية :

إن تحقيق العدالة الاجتماعية يتضمن كثيراً من المتناقضات الاجتماعية والاقتصادية وحتى الأخلاقية. وحتى تتحقق العدالة فإن ذلك يلزم الدولة أن تبني بعض السياسات الاجتماعية المهمة فى هذا السياق ، والتي من أهمها:

- ١- تبني سياسات لحفز النمو المنحاز للفقراء: ويتطلب ذلك:
 - إيجاد فرص عمل كافية لاستيعاب الراغبين فى العمل فى أعمال منتجة ومدة لدخول تفى على الأقل باحتياجاتهم الأساسية.^١
 - إنتاج سلع وخدمات تضم نسبة كبيرة مما يحتاج إليه الفقراء فى إشباع احتياجاتهم الأساسية.
 - التحيز فى توزيع مشروعات التنمية فى المناطق الفقيرة، وإعادة توطين بعض المشروعات فى هذه المناطق، وهو ما يقتضى ممارسة فعالة للتخطيط الاجتماعى.

٢- تمكين الفقراء من الحصول على أصول إنتاجية:

شهد المجتمع المصرى فى السنوات الأخيرة التى سبقت ثورة يناير تغييرات اجتماعية واقتصادية مهمة تحت اسم الخصخصة التى استهدفت فى ظاهرها توسيع قاعدة الملكية، والواقع أنها تنقل ملكية الأصول من مجموع الشعب إلى حفنة ضئيلة منه. ومن ثم فإن هذه السياسات عملت على تضيق قاعدة الملكية، ومن ثم

زيادة الفجوة بين من يملكون ومن لا يملكون. ولهذا فعلى الدولة ان تعمل على تمكين الفقراء من تملك مشروعات انتاجية بعينها، حتى يتمكنوا من العمل على تنميتها وتطويرها ، وبما ينعكس فى نهاية المر على تنمية وتحسين مستوى معيشتهم.

٣- تنمية القدرات البشرية للفقراء وتمكينهم من زيادة مشاركتهم فى الإنتاج؛

وتتضمن هذه السياسة تمكين الفقراء من الحصول على الخدمات الأساسية وبخاصة التعليم والتغذية والخدمات الصحية والاسكان. كما تتضمن تمكين الفقراء من الارتقاء بقدراتهم ومهاراتهم الانتاجية، من خلال برامج جادة لإعادة التدريب والارشاد الانتاجى.

٤- تطبيق سياسات لرعاية الفقراء وتحقيق الحماية الاجتماعية؛

ويندرج تحت هذه السياسات سياسات الدعم والضمان الاجتماعى والتأمينات والسياسات والبرامج الخاصة بتشغيل الفقراء والنهوض بمناطق تركزها. وتحسين مستوى تغذيتهم ومد يد العون لهم ولغيرهم فى حالة التعرض للأزمات والكوارث، مع ضرورة مشاركتهم فى تخطيط وتحسين هذه البرامج والسياسات، وتدبير التمويل الكافى لها من اجل ان يكون لها تأثير محسوس على مستوى حياة الفقراء، ومن المهم فى هذا الاطار بذل جهود كبيرة من أجل تعريف الفقراء بالبرامج والمشاريع الموجهة خصيصا للنهوض بأحوالهم وحمايتهم وتبصيرهم بكيفية الاستفادة منها. والعمل على ضمان وصول المساعدات للفقراء، إذ يفضل تقديم الخدمات للفقراء فى أماكن

اقامتهم، وكل ذلك لن يتحقق دون تفعيل وتنشيط الجمعيات الأهلية المنتشرة في ربوع الوطن والتي تجاوز عددها ٥٣ ألف جمعية أهلية.

٥- تعزيز دور التحويلات الاجتماعية وشبكات الأمان:

هناك فئتان واسعتان معرضتان للمجاعة وحتاجان إلى اهتمام خاص من الدولة هما: من يعجزون عن المشاركة في عملية النمو كالمعاقين وكبار السن والأطفال، ومن يتعرضون للخطر بشكل مؤقت، عندما تتخذ الأحداث اتجاهها لا يتناسب من طريقة تفكيرهم ولا قدراتهم ولا الأساليب التي يتبعوها في الإنتاج . أو لا يستطعون التواكب أو التكيف من السياسات الانتاجية والضريرية التي تتبعها الدولة. وحتاج الفئة الأولى إلى نظام للتحويلات يكفل لها مستوى معيشى مناسب، بينما تحتاج الفئة الثانية إلى أنواع مختلفة من شبكات الأمان .

وفي جميع الحالات يكون العمل على وصول الدعم إلى من يستحقه أمرا لا غنى عنه؛ لتحقيق التوازن بين التكاليف والمنافع وإذا كانت نسبة الموازن أكثر ارتباطا بالمناطق الفقيرة ، فإنه ينبغي إيجاد أنظمة للضمان الاجتماعى وتوسيع تغطيتها.

٦- إتاحة الفرصة للفقراء للحصول على الخدمات :

يتطلب تحقيق العدالة الاجتماعية التزاما واضحا باتاحة الفرص للفقراء للحصول على الخدمات الاجتماعية. وينبغي أن ينعكس ذلك في البنية الأساسية وفي تنظيم القطاعات الاجتماعية، وفي طريقة تمويلها.

٧- الإيفاء بالاحتياجات الأساسية للمواطنين:

حتى تستطيع الحكومات تحقيق الاستقرار فى أى مجتمع يجب عليها أن تهتم بتوفير الاحتياجات الأساسية للسكان من ملبس وماكل ومسكن ومياه نقية. وكذلك توفير الخدمات الصحية والتعليم على حدٍ كبير. وإذا كان على الحكومة أن تلتزم بتوفير مؤسسات الرعاية الصحية والتعليم لجميع قطاعات الشعب، فمن المتوقع أن تتعرض الدولة لقضية العدالة والكفاية. ولذلك فينبغى عليها أيضا تنشيط أدوار الجمعيات الأهلية لتسد العجز فى الخدمات الاجتماعية التى تقدمها الدولة .. وفى حالة عجز الدولة عن تغطية كافة الفئات المحتاجة للخدمة، ز لا ينبغى على الجمعيات الأهلية أن تقدم خدمات موازية .. بل عليها أن تستكمل العجز فى أداء الدولة .

وفى إطار سعى الدولة الحديث لتطبيق العدالة الاجتماعية يجب أن تلتزم بالآتى:

- إقرار مبدأ تكافؤ الفرص، فى التعليم والعمل والسياسة وكل الحقوق الأساسية للمواطنين
- تذويب الفوار بين الطبقات، وذلك من خلال الأخذ بسياسات الإصلاح الاجتماعى ووضع حد أدنى واقصى للأجور . وضمان مجانية التعليم ، والتأمين الصحى الشامل للجميع .. وتطبيق قانون للضرائب التصاعدية.

المراجع

- ١- أحمد رشاد موسى، دراسات في تاريخ مصر الاقتصادي (الدراسة الأولى حضارات ما قبل التاريخ وحضارة مصر الفرعونية، المجلس الأعلى للثقافة، ١٩٩٨.
- ٢- أحمد محمد البربري، معالم تاريخ مصر القديم وحضارتها، الإسكندرية، ٢٠٠٦م.
- ٣- آلن شوتر الحياة اليومية في مصر القديمة، ترجمة / نجيب ميخائيل إبراهيم، مراجعة محرم كمال، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٧.
- ٤- برهان الدين دلو، حضارة مصر والعراق (التاريخ الاقتصادي - الاجتماعي - الثقافي والسياسي)، الطبعة الأولى، دار الفارابي، بيروت، ١٩٨٩.
- ٥- ت.ج. جيمز الحياة أيام الفراعنة (مشاهد من الحياة في مصر القديمة)، ترجمة أحمد زهير أمين، مراجعة محمود ماهر طه، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٩٧.
- ٦- جمال حمدان، شخصية مصر (دراسة في عبقرية المكان) الجزء الثاني، دار الهلال.
- ٧- جيمس بيكي، مصر القديمة، ترجمة نجيب محفوظ، مطبعة الحلبة الجديدة، القاهرة.
- ٨- حسن محمد محي الدين السعدي، حكام الأقاليم في مصر الفرعونية (دراسة في تاريخ الأقاليم حتى نهاية الدولة الوسطى) دار المعرفة الجامعية.
- ٩- عبد الرحمن الرافعي، تاريخ الحركة القومية في مصر القديمة من فجر التاريخ إلى الفتح العربي، دار المعارف، القاهرة.
- ١٠- فوزي الأخناوي، مصر الفرعونية بين الماضي والحاضر (دراسة عن دور الدولة المركزية في التكوين الاقتصادي الاجتماعي المصري، الطبعة الأولى، دار الثقافة الجديدة، ١٩٩٣.
- ١١- محمد بيومي مهران، الحضارة المصرية القديمة (الحياة الاجتماعية والسياسية والعسكرية والقضائية والدينية)، الجزء الثاني، الطبعة الرابعة، دار المعرفة الجامعية، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م.

- ١٢- محمد بيومي مهران، الثورة الاجتماعية الأولى في مصر الفرعونية، المرجع السابق، دار المعرفة الجامعية، ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م .
- ١٣- محمد علي سعد الله، في تاريخ مصر القديمة، مركز الإسكندرية للكتاب، ٢٠٠١.
- ١٤- محمد علي سعد الله، الدور السياسي للملكات في مصر، تقديم محمد جمال الدين مختار مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية .
- ١٥- مختار السويفي، أم الحضارات (ملامح عامة لأول حضارة صنعها الإنسان) تقديم جاب الله علي جاب الله، الدار المصرية اللبنانية .
- ١٦- موسوعة تاريخ مصر عبر العصور (تاريخ مصر القديمة)، لجنة التاريخ والآثار (عبد العزيز صالح- جمال مختار- محمد إبراهيم بكر- إبراهيم نصحي- فاروق القاضي) أعدها عبد العظيم رمضان، الهيئة المصرية العامة، ١٩٩٧.
- ١٧- نعيم فرح، موجز تاريخ الشرق الأدنى القديم (السياسي والاجتماعي والاقتصادي والثقافي) دار الفكر ١٩٧٢.
- ١٨- عمر مدوح، أصول تاريخ القانون، دار المعارف، مصر ١٩٦٣
- ١٩- صوفى حسن أبو طالب، تطبيق الشريعة في البلاد العربية، دار النهضة العربية ١٩٩٥
- ٢٠- علي بن محمد الماوردي، الأحكام السلطانية، القاهرة، المكتبة التوفيقية، ب.ت.
- ٢١- هشام عبد المنعم عكاشة، مبادئ الأنظمة السياسية، دار النهضة العربية، مصر ٢٠٠٣
- ٢٢- سليمان الطماوي، التنظيم السياسية والقانون الدستوري، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٩٠.
- ٢٣- صوفى حسن أبو طالب، تاريخ النظم القانونية والاجتماعية، القاهرة، دار النهضة العربية، ١٩٨٥م.
- ٢٤- أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، القاهرة، دار الغد الجديد، ب.ت.
- ٢٥- إبراهيم بن موسى (الشاطبي)، الموافقات في أصول الشريعة، القاهرة، مكتبة الأسرة، ٢٠٠١م.

- ٢٦- عبد الكريم زيدان، أصول الدعوة، مؤسسة الرسالة للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان
- ٢٧- إبراهيم عيسى، ألوان يناير دار الشروق، القاهرة، ٢٠١٢م.
- ٢٨- أحمد نهامي عبد الحى، المفاجآت الإدراكية لجيل الثورات العربية، مجلة السياسة الدولية، العدد (١٨٤)، المجلد (٤٦)، أبريل ٢٠١١.
- ٢٩- أحمد سعيد تاج الدين، ٢٥ يناير... ثورة شعب، الهيئة العامة للاستعلامات، القاهرة، ٢٠١١م.
- ٣٠- الحسيني الحسيني، معدي، ثورة يناير (انتفاضة شعب وسقوط فرعون)، دار الخلود، القاهرة، ٢٠١١م.
- ٣١- السيد الحسيني، علم الاجتماع السياسي، دار المعارف، القاهرة، ط٢، ١٩٨١.
- ٣٢- السيد عبد الفتاح، ثورة التحرير (أسرار وخفايا ثورة الشباب)، دار الحياة، القاهرة، ٢٠١١م.
- ٣٣- السيد يسين، ثورة ٢٥ يناير بين التحول الديمقراطي والثورة الشاملة، الدار المصرية اللبنانية، ط٢، القاهرة، ٢٠١٢.
- ٣٤- السيد يسين، مقال بعنوان "التحول الديمقراطي بين الإصلاح والثورة"، جريدة الأهرام، العدد ٤٥٣٤٩، الخميس ٢٠١١/٢/٣.
- ٣٥- إيمان أحمد رجب، المفاهيم الخاصة باتخاذ النظم السياسية، مجلة السياسة الدولية، العدد ١٨٤، المجلد ٤٦، أبريل ٢٠١١.
- ٣٦- جريدة الأهرام، الأعداد (٤٥٣٤٠ إلى ٤٥٣٥٦).
- ٣٧- حمادة إمام، ٢٥ يناير سقوط عصاة الوريث، كنون القاهرة، ٢٠١١م.
- ٣٨- دنيا شحاته، مريم وحيد، محركات التغيير في العالم العربي، مجلة السياسة الدولية، مجلد ٤٦، ٢٠١١م.
- ٣٩- شارلوت سيمور - سيمبث، موسوعة علم الإنسان المفاهيم والمصطلحات الأنتروبولوجية، ترجمة علياء شكري وآخرون، الهيئة العامة للنشر والطابع الأميرية، ١٩٩٨.
- ٤٠- شريف الشوباشي، مستقبل مصر بعد الثورة، مكتبة مدبولي، القاهرة، ٢٠١١م.
- ٤١- صلاح منتصر العمود والسقوط من المنصة إلى المحكمة، مؤسسة المصري للصحافة والنشر، القاهرة، ٢٠١١م.

- ٤٢- علاء الدين سعد جاووش، مصر حرة (ثورة ٢٥ يناير)، الإسكندرية، حورس الدولية، ٢٠١١م.
- ٤٣- عبداللطيف المنياوي، الأيام الأخيرة لنظام مبارك، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ٢٠١٢.
- ٤٤- عبدالنبي عبدالستار الهانم سيدة القصر التي أضاعت مصر، كنون القاهرة، ٢٠١١ .
- ٤٥- علاء الأسواني، هل نستحق الديمقراطية، دار الشروق، القاهرة، ٢٠١٠.
- ٤٦- محمد فتحي القرشي، ثورة ٢٥ يناير المشروع المصري للنهضة، مكتبة مدبولي، القاهرة، ٢٠١٢.
- ٤٧- كوثر زكي، ثورات المصريين، مجلة ديوان الأهرام، العدد السادس، القاهرة، أبريل ٢٠١١م.
- ٤٨- مؤمن الحمدي، جرائم العيب العادي، مؤسسة الجزيرة للنشر ط ١، القاهرة، ٢٠١١م .
- ٤٩- مصر تنتفض، أعمال القتل والتعذيب خلال ثورة ٢٥ يناير، تقرير منظمة العفو الدولية، الطبعة الأولى (حقوق النشر محفوظة لمنظمة العفو الدولية، الأمانة الدولية، المملكة المتحدة، ٢٠١١م).
- ٥٠- وحيد عبد المجيد، نهاية الإهانة (ثورة ٢٥ يناير ضد النظام الهش في مصر)، مجلة السياسة الدولية، العدد (٢١٨٤) المجلد (٤٦)، أبريل ٢٠١١م.
- ٥١- فتحية الجميلي، الجريمة والمجتمع ومرتكب الجريمة، دار وائل للنشر، عمان، ٢٠٠١، ص ٢٠٧.
- ٥٢- عبد السلام عقارب، الانفلات الأمني في المجتمع المصري، بحث منشور بمجلة السلاح، العدد ٤٣، القاهرة، ٢٠١٢.
- ٥٣- محمد حسين محمود، الجريمة العصرية، مزيج رهيب من العنف والتكنولوجيا، مجلة الأمن العام المصرية، العدد ٩٩، ٢٠٠٤، ص ١٢٣.
- ٥٤- معتز عبدالله، الاتهامات التعصبية (الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، عالم المعرفة، عدد ١٣٧، ١٩٨٩م) ص ٨٠-٨١.
- ٥٥- محمد سعيد العشماوي، التطرف الديني وأبعاده السلبية (القاهرة، مجلة المنار، عدد ٣٦، ١٩٨٧)

- ٥٦- يوسف خليل غراب، العوامل المجتمعية الدافعة للمتطرف في المجتمع المصري، ورقة عمل مقدمة إلى (المؤتمر العلمي السنوى الثالث- التعليم وتحديات القرن ٢١- كلية التربية، جامعة حلوان، ١٩٩٥م)
- ٥٧- عبلة محمود إبراهيم، هيراركية الالتصاقات، رسالة دكتوراة غير منشورة (جامعة عين شمس، كلية الآداب، ١٩٩٣م)
- ٥٨- صلاح هاشم ، التنمية والجريمة المعونة، سياسات الافقار والهدم الخلاق (الهيئة العامة لقصور الثقافة - سلسلة اصدارات خاصة- عدد ٨٧، ٢٠١٠م) ص ص ٦٨-٧٠.
- ٥٩- جين شارب، من الدكتاتورية إلى الديمقراطية، إطار تصوري للتحرر الدارالعربية، ال قاهرة، ٢٠٠٠، ص ١١.
- ٦٠- هاشم بن محمد الزهراني، الأمن مسئولية الجميع، ورقة عمل مقدمة إلى ندوة المجتمع والأمن، كلية الملك فهد الأمنية، الرياض، ٢٠٠٤، ص ٥٤
- ٦١- خالد كاظم ، نعوسوسيولوجيا جديدة لفهم ثورة المصريين، مجلة الديمقراطية، مؤسسة الأهرام، القاهرة العدد ٤٢، أبريل، ٢٠١١، ص ٥٥.
- ٦٢- الشيشيني، دراسة العنف في المجتمع المصري (المركز الديموجرافى، القاهرة، ٢٠١٢م)
- ٦٣- المركز المصري للبحوث والرأي العام "بصيرة"، استطلاع رأى المصريين في أموالهم المعيشية وتوقعاتهم للمستقبل، سبتمبر ٢٠١٣م.
- ٦٤- هيئة الأمم المتحدة للمرأة، تقرير طرق وأساليب القضاء على التعرش في مصر، القاهرة، ٢٠١٣م
- ٦٥- المنتدى الاقتصادي العالمى، تقرير التنافسية العالمية، ٢٠١٣م.
- ٦٦- المركز المصري لبحوث الرأي العام "بصيرة"، استطلاع تقييم المصريين لجماعة الإخوان المسلمين، أغسطس ٢٠١٣م.
- ٦٧- برنامج الأمم المتحدة الانمائى، تقرير التنمية البشرية، ٢٠١٢م.
- ٦٨- الجهاز المركز للتعبيث العامة والاحصاء، النشرة الاحصائية الشهرية، القاهرة، أغسطس ٢٠١٣م
- ٦٩- المركز المصري للحقوق الاقتصادية، تقرير الاحتجاجات العمالية في مصر ٢٠١٢م، القاهرة، ٢٠١٢م.

- ٧٠- بالمركز المصري لبحوث الرأي العام "بصيرة"، عدد ٢٣٤، القاهرة ٢٠١٣م.
- ٧١- المركز المصري لحقوق الإنسان، الانتفلات الأمني وحالات إقتحام البلطجية للمدارس في المجتمع المصري، التقرير ربع السنوي، القاهرة، ٢٠١٢.
- ٧٢- مؤسسة الشفافية الدولية، تقرير الفساد في مصر، ٢٠١٢م.
- ٧٣- عبلة محمود البنا، عزة إبراهيم، رؤية عينة من علماء الدين والمهتمين بعلم الاجتماع نحو ظاهرة الإرهاب السياسي في المجتمع المصري، بحث علمي منشور في المؤتمر الدولي للعلوم الاجتماعية ودورها في مكافحة جرائم العنف والتطرف في المجتمعات الإسلامية، القاهرة، ١٩٩٨.
- ٧٤- ربيع الروبي، التكافل الاجتماعي والوقاية من الجريمة والإلصاف، بحث علمي منشور في المؤتمر الدولي للعلوم الاجتماعية ودورها في مكافحة جرائم العنف والتطرف في المجتمعات الإسلامية، القاهرة، ١٩٩٨.
- ٧٥- أحمد عسكر جريمة القتل - طبيعتها وموالمها وآثارها، رسالة دكتوراة غير منشورة كلية الآداب، جامعة المنيا، ١٩٩١.
- ٧٦- سيد حسنين بخيت، ظاهرة إحتراز السلاح في مصر، رسالة ماجستير غير منشورة كلية الآداب، جامعة سوهاج، ١٩٩٣.
- ٧٧- مصطفى عبد الجواد، ثلاثية الآثار، مجلة الدوان العدد الثالث، مركز تنمية المرأة، كلية الإعلام، جامعة القاهرة، ٢٠٠٥.
- ٧٨- صلاح هاشم، حيازة السلاح والمجتمع المدني، بين الواقع المتأزم والدور المأمول (المجلة المصرية للتنمية والتخطيط، معهد التخطيط القومي، القاهرة، ٢٠٠٦م).
- ٧٩- محمد توفيق، أهمية ودور الأمن الحضري في الحد من الجريمة في المدن الفلسطينية، دراسة تحليلية لمدينة نابلس، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الدراسات العليا في جامعة النجاح الوطنية، نابلس، ٢٠٠٧، ص ٩١.
- ٨٠- نوري سعدون عبد الله، العوامل الاجتماعية المؤثرة في ارتكاب الجريمة دراسة ميدانية لأثر العوامل الاجتماعية التي تؤدي إلى ارتكاب الجريمة في مدينة الرمادي، بحث علمي منشور بمجلة علم الاجتماع، كلية الآداب، جامعة الأنبار، بغداد، ٢٠١١، ص ١٥٥.

- 81- Findlay, M. , Corruption in Small States, Case, Studies in Compromise. Journal of Financial Crime , London, 1997).
- 82- Anderson, A.(1995).,The Red Mafia, A Legacy of Communism ,in E. P Lazier(ed.), Economic Transition in Eastern Europe and Russia, Realities of Reform. Stanford, Hoover Institution Press.
- 83- Bergalli, R. and Sumner, C.(eds.)(1997). Social Control and Political Order.. London, Sage.
- 84-Braithwaite, J.(1996).,Searching For Epistemologically Plural Criminology(And Finding Some). Australian and New Zealand journal of Criminology 29(2),142-6.
- 85- Brown, D., Farrier, D. and Weisbrot, D.(1996).Criminal Laws, second edition. Sydney, Federation Press.
- 86- Cherney, A.(1997). Trust as a Regulatory Strategy. A Theoretical Review. Current Issues in Criminal Justice 9(1), 71-84.
- 87- Cunneen, C and White, R.(1995). juvenile Justice, An Australian Perspective Melbourne, Oxford University Press.
- 88- Mayhew, P and van Dijk, J.(1997). Criminal Victimisation in Eleven Industrialised.
- 89- Currie, E.(1997). Market, Crime and Community. Theoretical Criminology 1(2). 147-72.
- 90-Findlay, M.(1996/7) Juries and Justice Symbolism – Deconstructing Jury Research. Unpublished paper presented at the University of Edinburgh, Department of Criminology Seminar Series.
- 91- Dinnen, S.(1995). Praise the Lord and Pass the Ammunition – Criminal Group Surrender in Papua New Guinea. Oceana 66(2), 103- 18.
- 92- Downes, D. and Rock, P(1995). Understanding Deviance. Oxford, Clarendon Press.
- 93- Duff, P and Findlay, M.(1997). Jury Reform, Of Myths And Morel Panics. International Journal of the Sociology of Law 25, 363-84.
- 94- (Findlay, M.(1995)International Rights and Australian Adaptations, Recent Developments in Criminal Investigation. Sydney Law Review 17(2). 278-97.

المحتوى

- توطئة 9
- الجوع والثورة : فصل تمهيدى 17
- الفصل الأول :
- ثورة الفرعون الجائع : قراءة اجتماعية لبرديات ايبور 45
- الفصل الثانى :
- البطالة والرومان : الطريق إلى آلهة الطعام 81
- الفصل الثالث :
- المسلمون والمجاعة : سنوات من الخوف والجوع 123
- الفصل الرابع :
- ثورتا القرن : الصراع بين الجوع والكرامة 147
- الفصل الخامس :
- هل نحن مقبلون على مجاعة .. ؟ 201

في حياة الأمم والشعوب أيام لا تنسي.. تظل ماثلة أمام الأجيال المتعاقبة.. تمتاز بأنها من الأيام الفارقة الصانعة للتغيرات الكبرى.. أيام تؤصل وتجسد مستقبل الشعوب وآمالها وطموحاتها.. وقد عاشت مصر على امتداد خريطتها أياماً خالدة مع بدء أحداث ثورة 25 يناير 2011 وحتى سقوط رأس النظام السابق في الحادي عشر من فبراير 2011 م.

وهناك اتفاق بين العلماء الاجتماعيين على أن الإصلاح هو نقيض الثورة ذلك لأنه اسـتـراتيجية للتغيير الاجتماعي، تقوم على التدرج، ويتم إيقاعها بالبطء النسبي الذي يعتمد على التراكم المجتمعي البطيء، في حين أن الثورة تؤمن بالطفرة والانقلاب على الأوضاع المجتمعية الراهنة للتغيير تغييراً جذرياً.



Bibliotheca Alexandrina
مكتبة الإسكندرية



1237527



التمن: أربعة جنيهات